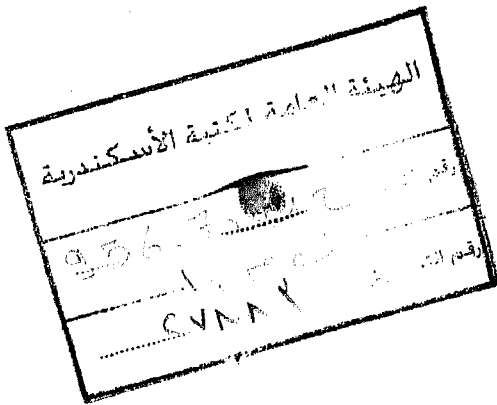


انفجار الخليج..
العراق المغبون وكلمة للتاريخ

دكتور / أحمد محمد كمال



الناشر : مكتبة مدبولى

التنفيذ الفنى : سعيد أبو مسلم

مقدمة

لم تواجه الأمة الإسلامية خطرا هدد كيانها ومعناها.. منذ سقوط بغداد تحت معاول التتار.. ومنذ الغزوة الصليبية الكبرى مثلما كان الأمر فى أزمة الخليج الأخيرة.. وتميزت تلك الأزمة - فيما تميزت - بأنها كانت بين المسلمين بعضهم والبعض من جهة.. وبين المسلمين وقوات العالم المهيمنة من جهة أخرى.

ذلك الانقسام هدد أثمن ما تملكه الأمة العربية الإسلامية.. ذات الإنسان المسلم العربى.. والأرض العربية.. ثم أخيرا وليس آخرا الثروة العربية الإسلامية.

من أهم الأمور فى بناء الكيان الإنسانى الواعى العلم الملتزم والمرتكن إلى أساس للحكم والقضاء.. خاصة بعد تعقد الأمور وتشابكها.. واختلاف المصالح وتضاربها.. وتعارض الأهواء وتنافرها.. هذا الأساس هو مفتاح الأمر كله.. به نعلم كوننا على الطريق.. وتتحدد نظرتنا للأمور.. ويتشكل موقفنا مبدئيا وأساسيا.. وبه تتضح الرؤية للجميع.. فمن المعلوم والمتفق عليه أن المبادىء الأساسية السياسية والاقتصادية والاجتماعية العالمية تتعارض وتتناقض بالنسبة لمختلف الشعوب والأمم.. وذلك لتعدد المدارس.. واختلاف المذاهب وتنوع النظرات والفلسفات.. إلخ.

ولو توجهنا بالسؤال عن الأساس السليم لتقييم الموقف فى أزمة الخليج الأخيرة لطالب فى الصف الابتدائى فيقينا أن الإجابة ستكون هى المنهاج الإيمانى الإسلامى.. ومع ذلك فنكبة المنطقة العربية أنها لا تتقيد بهذا الأساس المتين.. والمنهاج السليم هذا رغم أنهم حملة الرسالة.. ومهبط الأمانة.. وأولى الناس بالمنهاج وأحقهم به.

نظرة سريعة لتاريخ المنطقة العربية الإسلامية توضح أهمية ذلك المنهاج فى الحرب والسلم على السواء.

كانت الفتنة الكبرى - بين أعلام المسلمين الأول - نتيجة مباشرة لاختلافهم حول ذلك الأساس المتين.. فى حين كان هو الأساس الثابت الذى انتصر به المسلمون على الروم والفرس فى سنوات قليلة.

هذا.. فى حين كانت هزيمة المسلمين وتدمير بغداد تحت معاول المغول نتيجة مباشرة لعدم التمسك بهذا المنهاج القويم.. وتتكرر نفس القصة بنفس السيناريو البغيض فى عهود تاريخ الإسلام فى الأندلس وصقلية.. وفى مصر المملوكية.. وفى بلاد ما وراء النهرين.. وفى دولة المسلمين بالهند.. وفى غيرها.

اعتمد ذلك المنهاج على مصدرى التشريع الأساسيين فى الإسلام.. القرآن والسنّة.. واللذان يوضحان وبكل تأكيد العلاقات الأساسية السليمة بين المجتمعات الإسلامية.. وحدود الآراء.. كما ينظم الاتجاهات داخل الدول الإسلامية ضمن إطار واضح المعالم.. حاد الملامح.. ظاهر الحدود.. والحقيقة المؤكدة أن هذا المنهاج يحدد أيضا وبكل تحديد المنهاج السياسى بانعكاساته الاجتماعية والفكرية والاقتصادية بين المسلمين بعضهم البعض وبين غيرهم..

هذا هو لب القضية.. ومفتاح النجاة فى الدنيا وفى الآخرة.. أما الرافعون شعار الالتزام السياسى العالمى والقوانين الدولية وما شابه.. فإنا لا نسقط كل ذلك.. ولكن لمن الأولوية؟

فى مأساة فلسطين التزم المسلمون بمنهاج الغرب.. وفى المقابل رفع اليهود منهاجهم العقائدى التلمودى.. اسقط المسلمون أساس وحدتهم وتميزهم.. وتمسك به اليهود.. وكانت النتيجة كما يعلمها الجميع.. نلمس ذلك يوميا على مختلف المحاور والمستويات.

باختصار شديد كان بيدنا منهاج الإيمان.. انتصرنا به.. وأنهزمنا بغيره. ثم توالت الأزمات.. وتعتم الفكر.. وتكاثفت الغيوم.. فانعدمت الرؤية.. حتى أصبحنا

فى زماننا هذا لا نجد من يرفع هذا المنهاج بل وجدنا - وعلى النقيض - من يشكك فيه.. ومن ينقضه. وصدق المولى العظيم.. «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».

إن وضوح الرؤية وثبات المنهاج.. وعدل الميزان يزيح بلا شك اضطراب النفس.. ويهدىء من روع العقل أمام ما نعيشه من مآسى حيث أنه هو السبيل لتجميع الجهود نحو العدل والسلم والقوة.. بل وتتلاشى أمامه مخاطر المواجهة على خطورة الموقف وعظم المسئولية وصعوبة المواجهة..

إن ما دفع الكاتب للغوص فى هذا المستنقع هو فى الحقيقة اختلاط الحابل بالنابل فى خلاف هو فى الأساس بين المسلمين بعضهم والبعض.. ومع ذلك فسرعان ما تعارضت الفلسفات وتباينت الأهواء وتناظرت المصالح حتى لم يعد أمام القارىء لوسائل الإعلام إلا أن يرفع يده إلى السماء.. ويدعو الله السلامة.. وفقط..

فقد تطورت الأمور بسرعة.. حتى أصبح أمر المسلمين بأيدى غيرهم!! فكيف والحال يمكن تطبيق المنهاج.. وكيف تستقيم الأمور؟! بل وبأى ميزان يمكن على أساسه الحكم ومن ثم اتخاذ المواقف؟!

قال تعالى : «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء»[(١)].

وقال جل شأنه : «لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين»[(٢)].

وقال عز وجل : «الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ايبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا»[(٣)].

بل لقد جعل المولى هذا الأمر شرطا من شروط الإيمان.. وصحيح الإسلام وعبادة الرحمن.. فقال عز من قائل.

أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء»[(٤)].

---

(١) سورة الممتحنة الآية ١

(٢) سورة آل عمران الآية ٢٨

(٣) سورة النساء الآية ١٣٩.

(٤) سورة الكهف الآية ١٠٢.

فالأمر من جهتيه مقضى فيه.. محكوم عليه.. ولو اختلفنا فى نظرتنا للأمور وتطورات الحوادث وأحداثها.. وهو شىء متوقع ومقبول فهل يمكن أن تختلف فى تفسير آيات الرحمن على تواليها ؟!.. بل هل هناك أوضح وأفصح وأظهر من حكم المولى؟!.. وليراجع القوم جميعا كتب التفاسير..

أما عن أزمة الخليج - جذورها وفروعها - فلها قصة.

المشرق العربى..

خصوصية وتحليل

يمتاز المشرق العربى عن المغرب العربى بعدة خصوصيات.. فقد كان المشرق مهبط الوحى ومركز الدعوة الإسلامية.. وكان أيضا مركز وثقل أقوى قوتين فى ذلك الوقت.. الدولة الفارسية.. والإمبراطورية الرومانية.. وكان المشرق كذلك مركز الديانتين اليهودية والمسيحية.

من المنطقى أن تكون تلك المنطقة هى الساحة الأولى لانتشار الإسلام.. فكان من الطبيعى أن تكون هى أيضا محور تفاعل ذلك التاريخ العقائدى مع الدين الجديد الخاتم.. الأمر الذى حتم وصبغ المسلمين فى تلك المنطقة بوعى سياسى وعقلانى وعقائدى متميز.. ثم كان لكل ذلك أثره فى ما حدث للدعوة الإسلامية من انشاق ومذاهب عدة.

على العكس من ذلك كله كان المغرب العربى.. فقد كان إسلامه هادئا ثابتا.. حتى مع تغير الأحداث وتنوعها.. فمصر مثلا.. كانت فى وقت من الأوقات مركزا قويا

للمذهب الشيعى.. أثناء الدولة الفاطمية القوية.. وعندما انتصر صلاح الدين الأيوبى وفتح مصر انتقلت مصر بهدوء وثبات وعادت مرة أخرى إلى مذهبها السنى الحنيف. نفس الأمر حدث للمغرب الأقصى الإسلامى..

لكن الأمر لم يكن على هذا الثبات والهدوء فى المشرق.. فهى منبع التعددية الفكرية والمذهبية الأمر الذى صبغ منازعات الشرق خاصة بظاهرة العنف العقائدى السياسى.

كانت هذه سمة النزاعات والحروب فى تلك المنطقة عبر التاريخ كله.

إن أوضح وأشهر مثال لذلك هى نظرة العراق - وإيران لحربهما والتى امتدت لأكثر من ثمانية أعوام.. ففى هذا الاتجاه ركز الرئيس العراقى صدام حسين والزعيم الإيرانى آية الله خمينى على كون حربهما حربا مقدسة قامت باسم الدين ولأجله.

وفى أزمة الخليج الأخيرة ركز الرئيس صدام وعلى خامينى على إضفاء الصبغة الدينية على الأزمة الحالية..

وفى أزمة القدس وقضية فلسطين يظهر هذا الاتجاه واضحا جليا ومنذ ولادة إسرائيل إلى يومنا.. وتقف مذبحة المسجد الأقصى الأخيرة كأقوى دليل على ذلك.. إن فهم مواقف الأطراف المتعارضة حول القدس ثالث الحرمين وأولى القبلتين يؤكد ذلك دون شك.

وفى لبنان يحاول كل حزب إطلاق رصاصاته تحت غطاء مذهبه الدينى والعقائدى.

والدولة اليهودية فى فلسطين لم يخلقها الغرب إلا تجسيدا لذلك الواقع. الحقيقة التى لا مفر من إعلانها هو أن المشرق العربى ومنذ عشرات السنين يشهد تيارات متعارضة تميزت بأنها إسلامية متمثلة فى الصراع بين السنّة والشيعة.. أكبر حزبين إسلاميين.

هذه الظاهرة ليست شرق أوسطية وفقط . بل هى عالمية شملت العالم شرقه وغربه.. شماله وجنوبه.. فالصراع فى إيرلندا بين الكاثوليك والبروتستانت تمتد جذوره لأكثر من مائة عام.. وفى الهند بين الهندوس والمسلمين.. وبين الهندوس والسيخ من

جبهة أخرى.. وفى نزاع السودان اتخذ الصراع شكل دينيا بين مسلمى الشمال ومسيحى الجنوب.. وهكذا.. من المنطق أن تتميز صراعات المشرق بتلك التيارات.. فهى مهدها. ومن المنطق أيضا أن تنشأ أسبابا أخرى غيرها.

يقول المحلل السياسى وليم بفاف فى صحيفة «لوس أنجلوس تايمز» تعليقا يستقصى فيه أسباب الصراع فى منطقة الشرق الأوسط فيذكر أن هناك أربعة عوامل تؤثر على مجرى الأحداث فى المنطقة.. ويعددها كما يلى:

١ - ما زالت الحدود والكيانات السياسية فى المنطقة لم تتخذ شكلها النهائى بعد منذ سقوط الإمبراطورية العثمانية سنة ١٩١٨ لأنها كانت نتيجة لتقسيمات الاستعمار الأوروبى فى الفترة الممتدة منذ عام ١٩١٨ إلى فترة الحرب العالمية الثانية.

٢ - توزيع الثرورة فى المنطقة لم يتم بعدالة.

٣ - الصراعات بين المتطرفين الدينيين والقوى العلمانية.

٤ - ثم القضية الرئيسية والتى ما زالت مسيطرة على المنطقة منذ أربعين عاما وهى النزاع الفلسطينى - الإسرائيلى.. وقد أصبحت الولايات المتحدة طرفا مباشرا فيها لدورها المؤيد والمدافع عن إسرائيل، ومن المؤكد أن القوى الاستعمارية حرصت على تقسيم المنطقة بكل تناقضاتها لتخدم أهدافا لها مستقبلية عند حدوث أى نزاع.. خاصة بعد اكتشاف البترول فى تلك المنطقة التى تعصف بها الآراء والاتجاهات المذهبية والسياسية.

والرأى هام لمنطقه.. ولحيادة..:

من الطبيعى أن تعصف النزاعات بمنطقه على هذه الحالة.. خاصة فى حالة الضعف.. أو حالة الغنى.. والمؤسف أن نتيجة تلك المنازعات يتحكم فيها وعلى الدوام من يمد أطرافها بالسلاح والعتاد.

من المنطقى والأمر على هذه الشاكلة أن يتسم الحكم فى تلك المنطقة الحساسة من العالم بالحزم والقوة مع ميل إلى العدل والإنصاف بين فئات المجتمع المتعارضة حتى تستتب الأمور فى بلدان المشرق.. تلك التى تتميز بالتناقض والتعارض بين جماعاتها.. كما تتميز بالقوة والغنى والبترول تستثنى من ذلك المملكة العربية السعودية وذلك لاستقرارها وأمنها ووحدة المذهب الدينى على أرضها وإلى حد بعيد.. فالمنطقة الشرقية تتميز بأغلبية شيعية المذهب متعصبة لكنها غنية وقوية.. ومن جهة أخرى فإن أمن السعودية يهم أطرافا أخرى عالمية كأمريكا وأوروبا واليابان وغيرها.

منذ عشرات الأعوام.. وبعد الحرب العالمية الثانية ظهرت تفاعلات كل تلك العوامل نتيجة لنمو الوعى الوطنى والقومى فقامت الاضطرابات وتوالت الحروب الصغيرة بين بلدان المنطقة العربية.. فقد احتلت اليمن إمارة حضرموت..و لم يهتز العالم.. وقامت إسرائيل باحتلال الضفة الغربية وجنوب لبنان.. ولم يتحرك العالم بل قامت أمريكا بمساعدة إسرائيل ومدها بالسلاح والعتاد والمؤن.. وفى المغرب العربى قامت المملكة المغربية بضم الصحراء الكبرى بعد استقلالها.. وفى جنوب السودان قامت وما زالت حركة انفصالية قوية.. وفى أيام أنور السادات قامت مصر بغارة على الجارة الشقيقة ليبيا.. فى كل تلك الأحوال لم يهتز العالم كثيرا.. ولم تعقد المؤتمرات ولم تتخذ القرارات بشكل يثير العالم أو يدفعه إلى حافة الحرب.

غير أنه وفى أيام عبد الكريم قاسم حاول العراق ضم الكويت.. وكان رد الفعل عربيا وعالميا حادا قويا قاطعا الأمر الذى أجهض الفكرة فى مهدها.

إن المتأمل لخريطة العالم الغربى ليستنبط بعض أسباب تلك الحوادث وبسهولة.. كما أن الدارس للتاريخ القديم والحديث ليتأكد من أسباب أخرى عديدة لكل تلك الحوادث.

أما المحلل لكل تلك المتناقضات وأسبابها فإنه سرعان ما يخلص إلى حقيقة واضحة تكمن دون شك فى تناقضات وتفاوتات غريبة.. صنعها شيطان ذكى.

والحقيقة أن تلك الأسباب كان من الممكن حلها بطريقة لا تثير العالم ولا تستنفره لولا غنى بعض هذه المناطق بطريقة شاذة جعلت ارتباطها بالغرب وأمريكا بالذات مسألة عضوية بالغة التعقيد.. شديدة الأهمية.. ذلك الواقع الذى ترك على أرض الشعور واللاشعور سببا للتنافر بين أعضاء العائلة العربية لا يمكن إزالته إلا بزوال أسبابه.. ألا وهو التنافر والتباين بين دول المشرق الغربى. ومما زاد فى تعميق وترسيخ ذلك الشعور السياسة المالية للدول الغنية - دول النفط - فقد أصبحت دون أن تدرى تجد فى وجودها ذاته عنصرا ضاغطا لتنفيذ السياسة الإعلامية الاقتصادية للغرب تجاه المنطقة بأسرها.

وهكذا تكتمل الحلقات وتتشابك بشكل يمثل عنصرا ضاغطا نفسيا.. وأبديا.. ما دامت الأحوال.

لم يكن من المستغرب أن ننتظر حدوث أية أزمة.. لكى يحدث الانفجار.. ونشعر بالزلزال.

نظرية تاريخية

الهوية الجغرافية التاريخية للكويت

معنى الكويت

الكويت تصغير لكلمة «كوت» بمعنى الحصن أو القلعة بجانب ماء البحر.. وكانت تلك المنطقة على رأس الخليج العربى قرية صغيرة تعيش فى ظل حصن صغير بناه أمير بنى خالد حكام تلك المنطقة قديما.

على أن التحقيق فى كلمة الكويت يستدعى بعض التحاليل:

١ - كانت المنطقة الساحلية الممتدة من بلدة البصرة بالعراق إلى عمان بالجزيرة العربية تسمى قديما باسم «البحرين».. ثم انحسر هذا الاسم فى دولة البحرين الحديثة والتى تتكون من مئات الجزر فى شكل أرخبيل وسط الخليج العربى.

يذكر البلاذرى فى كتابه «فتوح البلدان»: «اسم البحرين كان يطلق على الشريط الساحلى الذى يقع بين البصرة وعمان».

٢ - عرفت تلك المنطقة أيضا فى التاريخ باسم : هَجَرَ.

ذكر العلاء بن الحضرمى : «بعثنى رسول الله (ﷺ) إلى هجر».. يقصد البحرين وقد ضرب باسمها المثل العربى «كحالب التمر إلى هجر».

وفى حديث عمر : «عجبت لتاجر هجر وراكب البحر».. وذلك لكثرة وبائها أى أن تاجرها وراكب البحر سواء فى الخطر.

٣- عرفت تلك المنطقة أيضا باسم مدينة «القرين».. وذلك قبل قرن كامل من الزمن على مجىء آل الصباح إلى تلك المنطقة.

ذكر الرحالة الدانمركى «كارستن بنبور» اسم القرين وكتبه على الخارطة التى أعدها عن رحلته إلى المنطقة عام ١٧٦٥م.

٤ - أما آخر الاسماء فهو «الكويت».

الحقيقة التاريخية المؤكدة هو أن المنطقة التى تضم فى الوقت الراهن مساحة الكويت كانت جزءا من العراق القديم.

«عثرت البعثة الداينماركية للآثار فى جزيرة فيلكه على تمثال صلصالى يشبه ملوك بلاد ما بين النهرين من العصر الآشورى.. كما عثرت على بعض الاختام الاسطوانية تماثل الاختام العراقية القديمة[١].

أما فى عصر الخلافة الراشدية فقد احتفظ تخطيط البصرة بطابع المعسكرات لتكون مركزا للجيش العربى باعتبارها بقعة قريبة من النهر تشرف على السهول والوادى الخصيب.. وقسمت إلى خمس دوائر قبلية.

لم يذكر ياقوت الحموى فى كتابه «معجم البلدان» من هذه المشارف سوى «كاظمة».. والتى كانت منتجعا لقبيلة بكرين وائل.

و«اوارة».. والتى كانت مسكنا لبنى تميم.

و«المقر».. والذى كان ضمن كاظمة.

هذه الأماكن ما تزال شاخصة حتى الآن فى الكويت.

ومن ثم يمكن القول إن هذه الأماكن كانت تحت سلطة «المناذرة» أى تحت النفوذ العراقى.

---

(١) تاريخ الكويت - لأبى حاكمة.. الجزء الأول / القسم الأول ض ٨٨.

شهدت «اوارة» الحملة التأديبية التى شنها عمرو بن هند ملك الحيرة على بنى تميم»[1].

«كانت كاظمة تخضع أيضا للمناذرة وفيها شيدت ابنه المقدم قصرا التماسا للراحة والاستجمام»[2].

أما فى العهد الأموى.. فقد كانت كاظمة وسواها من مشارف البصرة خاضعة للإدارة الأموية.

«طلب زياد بن ابيه» «والى البصرة» الفرزدق فهرب.. فاشتد زياد فى طلبه فوجده فى بيت امرأة نصرانية يقال لها «مرار» من بنى قيس بن ثعلبه.. وكان بيتها فى كاظمة»[3].

وعلى عهد الخلافة العباسية كان الأمر نفسه هو هو.. حتى اهتزت الدولة الإسلامية بعنف بعد غزو التتار لبغداد.

ومع ذلك كله.. فقد اعترف لوريمر «إنه فى سنة ١٧٧٥ كان ينظر إلى الكويت على أنها تابعة للبصرة»[4].

ومن المعروف أن لوريمر اعتمد فى دليله علي وثائق شركة الهند الشرقية الإنجليزية.

وتأكيدا لكل تلك الحقائق نجد أن الأديب عثمان بن سند البصرى صاحب «مطالع السعود» ينتسب إلى البصرة بالرغم من ولادته فى جزيرة فيلكه إحدى جزر الكويت فى الوقت الحالى.

---

(١) تاريخ الكويت السياسى ١/٢٩.
(٢) تاريخ الكويت السياسى ١/٢٢.
(٣) تاريخ الكويت السياسى ١/٢٢.
(٤) الكويت فى دليل الخليج ١/٢٥.

إن جذور السكان لتلك المنطقة دون أدنى شك من عرب الشمال أو العدنانيين.. وقبائلهم كانت تسكن ديار نجد وساحل العدن الممتد من قطر جنوبا إلى أطراف الكويت الشمالية.

وهم هم دون شك أيضا معظم سكان العراق.. فالجذور تمتد وتتشابك منذ عصر الفتح الإسلامى الأول إلى عصرنا.. فالأصول ثابتة.. والجذور واحدة. وليس من الإنصاف أن نحدد تاريخ منطقة مثل الجزيرة العربية بظهور مؤسسها الفاتح العظيم الشيخ ابن سعود.. بل إن تاريخ المنطقة تحدده جذوره العربية الأصيلة منذ قبل عهد النبوة.. فهذا هو الانصاف.. ولا يقلل ذلك من تاريخ ابن سعود فى شىء.. كما لايجب أبدا أن تتميز قبيلة ابن سعود إلا بما تتحمله من تبعات القيادة والولاية لجزيرة العرب.

من الناحية التاريخية.. فإن أرض العراق ذات طبيعة خاصة.. نشأت عليها منذ القدم دويلات عديدة لها تاريخ.. فقد قامت دولة «سومر» فى جنوبه الغربى وإلى الشمال مما يعرف الآن باسم شط العرب. ثم ظهرت بعد ذلك دولة «أكاو».. ثم ظهرت إلى الشمال كذلك دولة «بابل».. وبعد ذلك بعدة قرون ظهرت دولة آشور فى الشمال الشرقى من العراق والتى تأثرت وارتبطت بما وراءها من شمال أرض إيران القديمة.. هكذا كان العراق وما يزال ومنذ القدم أرض التاريخ والحضارة.. والعراق بموقعه فى طرفيه ومكانه كان يقع فى منطقة حضارة عريقة شديدة المراس ألا وهى الحضارة الإيرانية الفارسية.. وقد تداخلت حضارة أهل الهضاب العالية مع حضارة سهول العراق منذ أيام كسرى والذى أنشأ مدينة «المدائن» جنوب بغداد مباشرة.

وقبيل فترة العهد العربى الإسلامى فى أواخر العهد الإغريقى تركزت تجارة الإغريق وملاحوها فى منطقة «شاراكس» والتى أصبحت تعرف فيما بعد باسم «المحمرة العربية».. والتى تطلق عليها إيران الآن اسم «خورمشهر».. وهى القاعدة البحرية لما نسميه أرض «عربستان».. الطريف فى الأمر كله أن هذه المنطقة عرفت دائما بهذا الاسم المنسوب إلى العرب وذلك لأن من عمر هذه المنطقة كانوا من القبائل العربية

والتى قدمت من شمال جزيرة العرب وسارت حتى عبرت شط العرب.. ووصلت إلى مداخل أرض إيران وفارس القديمة.

تميز السكان فى المحمرة وشواطىء عربستان بنشاطهم البحرى والذى أعقب النشاط الإغريقى القديم.. وكان نشاط السكان مرتكزا إلى الصحراء والبادية من جهة.. وإلى مياه رأس الخليج وصيد اللؤلؤ.. ثم التجارة البحرية فى جزيرة «فيلكه» الواقعة على رأس الخليج.. ومنها إلى شاراكس القديمة والمحمرة وأرض عربستان.

من المؤكد أن المثنى بن حارثة الشيبانى كان من عرب تلك المنطقة على أواخر أيام الصديق رضى الله عنه.. وكان الرجل قد أمر نفسه على قومه وقام بمحاربة المرتدين على الساحل الفارسى آنذاك.. وحقق المثنى نجاحا منقطع النظير حتى أنه بلغ فى انتصاراته حدود دولة فارس وتمنى الرجل أن يمعن فى العراق غير أنه نزل المدينة وطلب المعونة من الصديق فأمده بخالد بن الوليد.. وتم فتح العراق.

وعلى أيام الفاروق عمر تم غزو فارس وفتحها بصورة نهائية واستقرت فيها قبائل العرب وأصبحت المنطقة عربية خالصة.. وهكذا استقر الأمر لسكان تلك المنطقة الحساسة من أصل عربى واحد.

على طول أعوام التاريخ لم تكن هناك حدودا تحدد وتشكل هيمنة- مجتمع أو قبيلة معينة على منطقة دون أخرى.. فالمجتمع واحد كما أشرنا.. والدولة واحدة.. حتى جاء عهد الضعف والتفرق ونمو القوميات.. كان ذلك عندما هرمت الإمبراطورية العثمانية.. رجل أوروبا المريض.

كانت الحدود مجهولة فى تلك المنطقة الصحراوية المترامية خلال قرون عدة من حكم الدولة العثمانية (٧٥٠ م : ١٥١٦م). وبانهيار الدولة العثمانية فى نهاية الحرب العالمية الأولى جاءت بريطانيا للسيطرة على تلك المنطقة الصحراوية ثم بدأت تعمل على خلق الحدود بين الأهل الواحد.. وتقسم الرمال بين المجتمع المتجانس.

ومن ثم بدأت المشاكل:

التخطيط الإنجليزى لتقسيم الدولة الإسلامية الكبرى وظهور مدينة الكويت:

قد يكون من العسير على الباحث الأمين أن يحدد تاريخا ثابتا لظهور مدينة الكويت.. غير أن مدونات شركة الهند الشرقية الإنجليزية تثبت أن حكام تلك المنطقة فى القرن الثامن عشر كانوا من بنو خالد.. وهم من العدنانية.. هذا مع أن حكم تلك المنطقة والتى تعتبر كمفصل هام فى الطريق إلى العراق وإيران والسعودية لم يكن خالصا لفئة دون غيرها.. فقد نزل العقوب تلك المنطقة وازداد نفوذهم كما تزامن ذلك أيضا مع ازدياد الخطر الوهابى القادم من نجد على شرق الجزيرة.. أما خطر الفرس فلم ولا يمكن تجاهله.

تمشى ذلك كله مع اضمحلال نفوذ الأتراك الفعلى على المنطقة مع أن المنطقة كلها كانت اسميا تحت حكمهم.. وكانت النهاية مع نهاية الحرب العالمية الأولى.

فى ذلك الوقت كان دور شركة الهند الشرقية الإنجليزية فى تنامى.. فقد أحكم الإنجليز علاقتهم بالقبائل العربية فى محاولة منهم لنسف علاقتهم بشركة الهند الشرقية الهولندية - حتى انفرد الإنجليز فى النهاية بالمركز الأول للتجارة فى هذه المنطقة الهامة.. كان ذلك فى الشطر الأول من القرن الثامن عشر.

كان للإنجليز مراكز ووكالات تجارية فى كل من جمبرون «بندر عباس» وأصفهان والبصرة وغيرها من مدن فارس والعراق. كانت تلك المراكز حلقة وصل للنشاط الإنجليزى من وإلى الهند.

وفى إشارة لقدرة تلك الشركة نذكر أن بناء الإمبراطورية البريطانية فى الهند كانت على يد شركة الهند الشرقية هذه.. فلم تكن السياسة منفصلة عن الاقتصاد فى أى زمن كان.

كانت البصرة تحت الحكم العثمانى عندما أصابها الطاعون عام ١٧٧٣م بعد أن انتقل إليها طاعون بغداد.. وانتشر الوباء حتى أصاب الكويت والقطيف.. وكان من أثر ذلك تدمير تجارة البصرة تدميرا يكاد يكون كاملا..

وفى عام ١٧٧٥م كان حصار الفرس للبصرة الأمر الذى أدى إلى انتقال الثقل التجارى إلى مدينة الكويت الناشئة ومدينة الزيارة «العتيبية» الناشئة كذلك.. وازداد بالتالى اهتمام الإنجليز بتلك المنطقة حتى أن شركة الهند الشرقية قامت بتعيين ممثل لها مقيم فى الكويت.

كان من المحتم والأوضاع هكذا أن تزداد وتتوطد علاقة حكام تلك المنطقة بالإنجليز.. حتى بعد عودة الوكالة التجارية الإنجليزية من الكويت إلى البصرة فى عام ١٧٩٥.. غير أن الوكالة عادت فانتقلت بكاملها إلى الكويت مرة أخرى عام ١٨٢٠م.. كان ذلك أثرا مباشرا لصراع داوود باشا والى بغداد مع الإنجليز.. وعندما تدخلت المؤسسات البريطانية لدى الأستانة لحل ذلك الخلاف عادت الوكالة مرة أخرى إلى البصرة فى مايو ١٨٢٢..

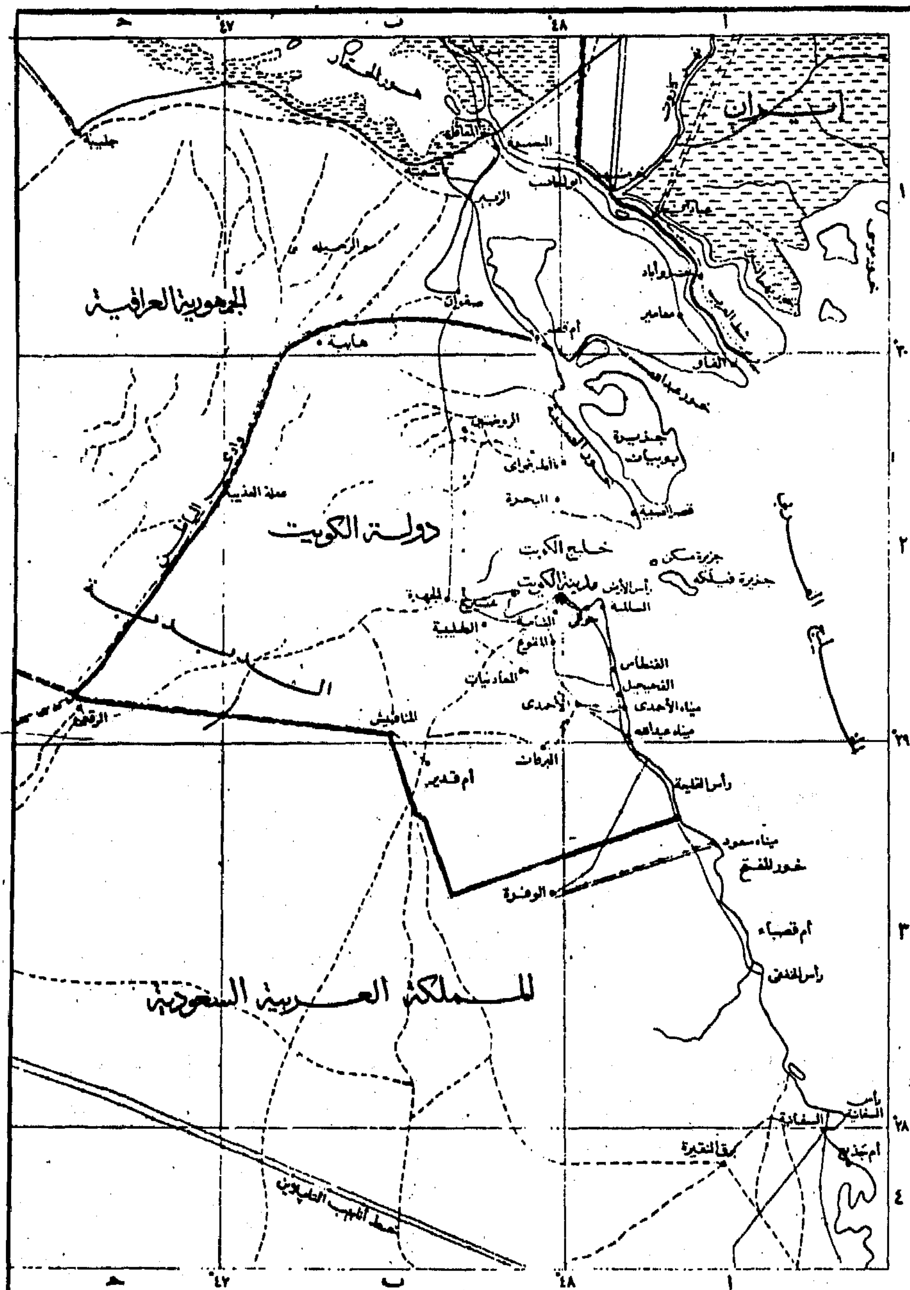
وهكذا عادت الأمور إلى البصرة.. المدينة الأم.

إن كان لنا أن نستنتج شيئا من ذلك التاريخ عن طبيعة الأمور فى تلك المنطقة تحديدا وتفصيلا فإن البصرة كانت ولا شك الميناء الأم الأساسى لتلك المنطقة الهامة.. وكانت تخضع لوالى بغداد.. أما ما نطلق عليه منطقة الكويت فقد كانت أيضا تقع على الخليج رغم أن تحديدها لم يمكن حسمه من سجلات شركة الهند الشرقية الإنجليزية المحفوظة بمكتبه وزارة الكمنولث.. أو إدارة المحفوظات البريطانية.. ومهما يكن الأمر فإن تلك المنطقة كانت تحت حكم البصرة عقلا ومنطقا.. وإلا لحدثت غزوات وجولات بين البصرة والكويت ذاتها.. هذا فى حين أن تلك التيارات والغزوات لم تنقطع عن المنطقة.

فى عام ١٨٢٩ م بعث الماجور جورج ب. بروكس بتقرير إلى حكومة بومباى حول الملاحة فى الخليج العربى تحدث فيه عن شيوخ الكويت.. ومما قاله له: «.. وهم يعترفون بسيادة الأتراك كما يحصل الشيخ ويقصد «جابر العبد لله الصباح» أيضا على خلع «زى» التشريفة من الحكومة العثمانية كل عام»(١).

---

١ - التاريخ السياسى للكويت فى عهد مبارك ص ١١.



شكل جزيرة العرب

وأيضا فى عام ١٨٢٩ ذكر أن جابر بن عبد الله الصباح قد اعترف بخضوعه للأتراك وأنه يدفع كل سنة جزية سنوية قدرها ٤٠ كيسا من الأرز و٤٠٠ سباطه من التمور وأنه يتلقى كل سنة خلعة تكريما له»(١).

وفى عام ١٨٣١م كان استيلاء محمد على باشا على أملاك الوهابين فى الجزيرة العربية بشقيها الشرقى والغربى. إضافة إلى استيلاء قواته على الأراضى السورية كلها بقيادة ابنه إبراهيم باشا.. بل وكذلك أجزاء كبيرة من آسيا الصغرى سنة ١٨٤٠م.

من المعروف أن التشكيلات الإدارية فى العراق نهضت على ثلاثة ولايات هى ولاية بغداد وولاية الموصل وولاية البصرة.. وقد أبقى مدحت باشا (١٨٦٩: ١٨٧١م) هذه التشكيلات معمولا بها بموجب نظامه المؤرخ فى ٢٩ شوال ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠م). وبقى سارى المفعول حتى نهاية العهد العثمانى.. وقد أدخل على نظام مدحت باشا تعديلات قبل الحرب العالمية الأولى بموجب القانونين الصادرين فى ١٩١٢ و١٩١٣م. وبموجبهما أصبحت ولاية البصرة تضم الوية البصرة، والمنتفك؛ والعمارة ويتبعها ثلاثة عشر قضاء إضافة إلى النواحى والقرى.. وكان لواء البصرة يعتمد على أقضية البصرة؛ والقرنة والفاو؛ والكويت(٢).

وفى عام ١٩١١ انعمت الحكومة العثمانية على مبارك بالوسام المجيدى من الدرجة الأولى.. وفى ٢٥ صفر سنة ١٣٣٠ هـ. وصل الوفد الذى يحمل الوسام إلى الكويت برئاسة العلامة الأستاذ / عبد الملك الشواف مفتى البصرة(٣).

وهكذا تثبت الوقائع التاريخية دون لبس أن قضاء الكويت كان دائما تحت لواء البصرة - المدينة الأم.

من الواضح أن حركات المد والجزر لم تكن فى صالح السياسة البريطانية بالنسبة لمنطقة الخليج بصفة عامة سياسية أو اقتصادية.. ومن السذاجة القول باستقلال الكويت

---

(١) الكويت فى دليل الخليج ٦٠/١

(٢) بلدية البصرة ص٣٩

(٣) تاريخ الكويت.. لعبد العزيز الرشيد- الجزء الثانى من القسم الأول ص١٦ أيضاً تاريخ الكويت السياسى ٨٧/٢

عن الدولة العثمانية فى تلك الفترة.. بصرف النظر عن أن حكم تلك المنطقة كان لآل الصباح.

فقد كان حكام المناطق فى تلك الامبراطورية يخضعون إسماً وفعلاً للقسطنطينية فى أغلب الحالات.. ولم يكن آل الصباح من القوة والنفوذ حتى يستقلوا عن الأستانة كما يتفلسف بعض الباحثين.. الباحثين عن الشهرة والمال.

من المنطق أن يؤثر فتح قناة السويس على أهمية ذلك الميناء التجارى الهام فى المنطقة.. ومع ذلك فقد نشط إتجاه لدى مجلس إدارة شركة الهند الشرقية لأحياء طريق الخليج فى عام ١٨٣٩.. وكان جل الاهتمام بالبصرة.. ثم نشطت المنطقة فى عام ١٨٦٢ مع استعمال التلغراف لنقل البريد عن طريق البصرة.. «وللمرة العاشرة».. وإلى بغداد ومنها إلى بيروت. ومن الطبيعى أن تتطور الخدمات البريدية تدريجيا حتى صارت اسبوعية منذ عام ١٨٧٤م.. وهكذا عاد طريق الخليج - أو طريق البصرة - إن شئنا الصدق والحقيقة إلى نشاطه كممر للمواصلات بين الهند واوربا سنة ١٨٦٢ - وكان المنافس لميناء البصرة فى ذلك الحين ميناء بوشهر مركز الوكالة الإنجليزية الهام آنذاك .

كانت مشكلة الحدود بين العراق وإيران مشكلة قديمة ظهرت بين الدولة الفارسية والدولة العثمانية المهيمنة.. بدأت فى شهر مايو ١٨٤٧م أى ما يقرب من ١٤٠ عاما عندما تم توقيع المعاهدة المسماه باتفاقية «أرضوم» والتى تنازلت فيها الدولة العثمانية عن مدينة «المحمرة» والتى سميت فيما بعد باسم «خورمشهر».. كما تنازلت عن جزيرة صغيرة تعرف باسم جزيرة «حضر» والتى سميت «عبدان» وكذلك عن الأراضى الواقعة شرق شط العرب والمسماه «عربستان» وكانت كل المناطق تتبع العراق الذى كان تحت حكم الدولة العثمانية.. وفى المقابل تنازلت إيران عن بعض الأراضى «السليمانية» للدولة العثمانية.

وهكذا.. لم يكن حتى ذلك الوقت أى وجود مستقل لدولة الكويت وكان مدخل العراق للخليج لا يمثل مشكلة من أى نوع.

كانت نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين هى الفترة الحاسمة والتى شهدت قمة النجاح الاستعمارى الأوربى لتركة الرجل المريض.

فى ديسمبر ١٨٩٧م صدر فرمان من استنانبول بتعيين الشيخ مبارك «قائمقام» الكويت رغم معارضة القنصل البريطانى وقام صراع على السلطة بين مبارك وأخويه محمد وجراح بالتضامن مع الشيخ يوسف بن عبد الله.. وكان لابد للشيخ مبارك من توطيد علاقته ببريطانيا تمكينا لنفسه وتوطيدا لمركزه.. ومن ثم فقد طلب الشيخ مبارك حماية بريطانيا وعقد معهم عدة اتفاقيات تختص بحمايته مقابل عدة تنازلات إقليمية وسياسية..

وفى سنة ١٩٠٤ وافق مبارك أيضا على تعيين الإنجليز معتمداً سياسيا لهم فى الكويت.. وكانت الأمور آنذاك تنذر بتوتر سياسى بين مشيخة الكويت وأمير حائل من جهة... وبينها وبين ولاية البصرة فى أم قصر وصفوان وجزيرة بوبيان.

وفى عام ١٩١٤م قامت الحرب العالمية الأولى وانتهت بتوزيع تركة الرجل المريض بين المنتصرين.. فقد انهزمت ألمانيا وتركيا.. وكان النصر حليف فرنسا وبريطانيا.. وهكذا تقاسمت الاخيرتان أملاك الدولة العثمانية فى ولايات الشام والعراق.. ونشأت ولأول مرة فى تلك المنطقة تحديداً العراق وكان تحت الانتداب البريطانى.. وسوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسى.. وفلسطين والأردن تحت الانتداب البريطانى..

فأين كانت الكويت المستقلة آنذاك؟!.. بل كانت ضمن محافظة البصرة فى العراق دون شك.

كان حكم تلك المناطق يسير على النهج العربى المشيخى.. ومن ثم فقد حكم منطقة الكويت من سنة ١٩١٥ إلى ١٩٦٥ أربعة من آل الصباح تحت الوصاية الإنجليزية..

أولهم جابر بن مبارك وامتد حكمه عاما وشهرين.. ثم سالم بن مبارك من ١٩١٧ : ١٩٢١م.

وكان سالم بن مبارك قوى الشكيمة متمسكاً بدينه وتعاليمه الحنيفة.. وكان يميل إلى جانب العثمانيين فانتهج سياسة أغضبت الإنجليز.

ثم تولى الشيخ أحمد الجابر حكم الكويت فى عام ١٩٢١ وعمره خمس وثلاثون عاما فى فترة شهدت توتراً شديداً بين السعودية والعراق ومنطقة الكويت ضرورة.

كانت مشكلة الحدود والسلطة بين شيوخ تلك المناطق هى الشغل الشاغل لترتيب الأوضاع بالنسبة للإنجليز[1].. وهنا وجد الإنجليز فى طبيعة الحكم فى تلك المنطقة الهامة والتابعة للبصرة الحل الأمثل فى الفصل بين العراق والذى نصبوا فيه ملكا هاشميا هو فيصل بن الملك حسين ملك الحجاز.. وبين سلطان نجد القوى عبد العزيز آل سعود.. وهكذا نبعت فكرة حدود الخليج وتقسيمه من البعقرية الشيطانية البريطانية والتى استهدفت أساساً خلق مواقف متباينة من شأنها تقديم أسباب تدعوا لعودتها إذا جد الجد. وتجعل الأمور فى اضطراب دائم فى تلك المنطقة.

وهكذا.. ومنذ حوالى سبعون عاما فقط جلس المندوب السامى البريطانى فى العراق وأمسك بيده قلما وحدد على خريطة أمامه الحدود بين السعودية والعراق.. وفصل بينهما بدولة جديدة على العرب وعلى العالم..

وهكذا تمتطع السير «ببرس كوكس» فحدد ورسم وفصل بين العرب.. وبقى عقد مؤتمر يجمع بين زعماء تلك المناطق.. وكان مؤتمر العقير.

حضر الملك عبد العزيز آل سعود مع مندوبى العراق.. وحاكم منطقة الكويت.. وقام السير البريطانى بدور المفاوض والحكم وصانع الخرائط!!!.. وقامت الخلافات.. وحسمها المندوب السامى.

أهم ما يعنينا من كل ذلك التاريخ أن الانجليز والذين كانوا قد ابتدوا فى التنقيب عن البترول فى تلك المنطقة منذ سنة ١٩١١م وجدوا فى تقسيم الخليج الفرصة المثلى للفرقة بين أهله من جهة.. وللاستحواذ على الخليج لخدمة تصدير البترول من أخرى.. ولاستمرار النزاع بين تلك الدول مما يجبرها على الاستعانة الدائمة بالانجليز.

---

(١) وقفت بريطانيا وبقوة أمام أى مشروع يقرب من أبناء الشعب الواحد فى العراق والكويت ويجعلهم على أتصال دائم حيث رفض مشروع أيصال الماء من شط العرب إلى الكويت.. ومشروع.. سكة حديد إلى الكويت.. وأنشاء ميناء عراقى فى مدينة الكويت.. وظلت هذه المشاريع تصطدم بالمماطلة والرفض البريطانى منذ عام ١٩٢٣م حتى أوائل الستينات.

ومن ثم فلم يترك هذا التقسيم للعراق منفذاً على الخليج إلا منفذ غريب.. بسيط جداً.. يصعب تطويره واستعماله.. كما يسهل قفله واحتلاله دون جهد..

أغلب الظن أن ذلك الظلم البين إنما جاء على حساب العراق البلد الأم القوى لأمر يتمشى مع سياسة الإنجليز المعروفة فرق تسد.

فأين منفذ البصرة على الخليج بعد ذلك التخطيط الجهنمى؟!

وأين دورها كميناء بحرى أساسى على الخليج كما يثبت ذلك الإشارة التاريخية لذلك الفصل؟!.

كان استقلال الكويت سنة ١٩٦٢م.. ووقتها أعلن عبد الكريم قاسم أن للعراق حق فى بعض أراضى الكويت.. وهدد.. فعادت القوات الإنجليزية إلى الكويت ثم انسحبت بعد أربعة أيام فقط بعد أن حلت محلها قوات الجامعة العربية.

غير أن العراق لم ينته ومنذ ذلك الحين فى السعى السياسى للحصول على منفذ على الخليج وطالب مراراً بجزيرتى واربا وبوبيان.

قد يندهش القارىء عن أسباب ذلك العرض الموجز بالنسبة لانفجار الخليج الأخير.. لكن الدهشة تزول عندما يتأكد لنا أن هذا التاريخ يمثل ركنا فى النفسية لعرب تلك المنطقة.. والتى تؤثر على نظرتهم لأية مشكلة خاصة بذلك التاريخ ولتلك المنطقة.

ولاشك أن نظرة العرب المتباينة لذلك التاريخ أثر على نظرتهم وانطباعهم تجاه مشكلة الخليج الأخيرة.. حتى فى الوعى وقطعا فى اللاوعى كذلك.

(٤) حرب - العراق - إيران

قد يكون من اللازم الإشارة إلى أن المواقف تجاه الدول وحتى الأفراد إنما هو نتيجة لتاريخ وثقافة واجتماع ودين واقتصاد وعوامل أخرى متعددة تتجمع وتتفاعل فى اللاوعى وتتمثل فى عاطفة قد تتحكم فى نظرة الدول الأساسية لبعضها البعض.. وثقة الأفراد والمجتمعات ونظرتهم لأمثالهم.. وهكذا..

وعلم السياسة فى نظرة فلسفية ما هو إلا علم وضع ليحدد آسس العلاقات بين تلك المجتمعات والبلدان متخطية ذلك الحاجز النفسى والذى قد يشكل فى بعض الأحيان حجر عثرة فى طريق الحياة السياسية.

من وجهة النظر التحليلية العلمية لانجد شكا فى ارتباط انفجار الخليج بحرب الخليج الأولى بين العراق وايران.. فلاشك فى أن تداعيات الحرب الأولى هى دوافع الحرب الثانية.

منذ عشرات السنين ودرجة تفاعل المشرق العربى مع إيران تتزايد بدرجة متصاعدة مركبة حتى افرزت فى النهاية حركة الخمينى وفلسفته ومن ثم حربه مع العراق والتى استمرت لأكثر من ثمانية أعوام.

أهم ما يجب الإشارة إليه أن المجتمع الفارسى متجانس من ناحية العقيدة إلى حد بعيد.. فأغلب سكانه من الشيعة.. ومع أن هناك نسبة لا بأس بها من أهل السنة غير أن الضغط الشيعى أفقدها الأثر حتى على حياتها وعلى حقوقها.. والفرس يتميزيون بعقدة متمكنة لا شعورية وكره لكل ما هو عربى... خاصة إن كان سنياً.. والأمر يمكن ارجاعه - نفسيا - إلى علو كعب الفرس منذ آماد بعيده على نظيره العربى.. فقد كانت حضارة الفرس ودولتهم الشاسعة تمتد لما يقرب من ألف وخمسمائة عام قبل أن تسقط تحت حجافل المسلمين فى أوائل أيام الفاروق عمر.. ثم أن تفاعل الفرس مع الإسلام كان تفاعلا ايجابيا ولاشك.. فتاريخ إيران الإسلامى يوضح أن الفرس كان لهم علو الكعب حتى من الأيام الأولى للدولة العباسية وإلى عهود تلت ذلك - كما أن اعتناق الفرس المذهب الشيعى إنما كان فى جانب من جوانبه صورة من صور الانتفاضة الغير مباشرة على العرب الذين ملكوا العالم آنذاك.

من المنطق أن يرسخ الزمن فكرة ونظرة الفرس الشيعة تجاه المنطقة العربية السنية.. وهم كل العالم العربى تقريبا - والشىء المؤسف حقا أن تلك النقطة الأساسية مفقودة فى المغرب العربى تماما.. فالمغرب بعيد نسبيا عن ذلك التاريخ كله وجذوره.. هذا مع أن منطقة المشرق العربى تمور وتتشكل منذ زمن تبعاً لتلك الجذور الدينية والتاريخية.. هذا المدخل أساسى فى حقيقته لفهم التاريخ الحقيقى لمنطقة المشرق العربى..

كان من الواجب تسييس تلك النفرة الشيعية تجاه جاراتها العربية السنية.

ومر ذلك على فترات تاريخية.. وظهر أثر ذلك كله فى الفترات التى علت فيها آيات الله ورجالات الدين الشيعة.. فدائما صحوة الشيعة وآيات الله تسير فى خط متواز مع انتعاش الدولة.. فبعد اكتشاف البترول فى إيران وبكميات كبيرة جداً وأثر ذلك على غنى الدولة انعكس ذلك كله على رجالات الدين من الناحية الاقتصادية والسياسية بالضرورة وذلك لما يمتاز به نظام الشيعة فى مسألة الزكاة والخمس وغيرها.. الأمر الذى أدى إلى غنى واستقلالية رجال الدين عن جهاز الدولة.. ومن ثم بداية الصراع بين القوتين.. والذى تأرجح دائما بين ثورة وفورة إلى خمود وكمون.. حتى كانت صحوة الخمسينيات عندما نجح مصدق فى طرد الشاة من إيران.. غير أن الشاه عاد ومعه أمريكا إلى الحكم فى تلك المنطقة البالغة الغنى الحساسه.

استمرت نهضة البلاد بازدياد البترول واكتشافه فى تلك الأراضى حتى كانت فترة الستينيات وظهور جيل جديد من اعلام الشيعة منهم آية الله خمينى.

امتاز آية الله خمينى بشخصية قيادية جعلته يقفز بين رجالات الشيعة الأوائل نظراً لكتاباته وخطبه النارية واندفاعه وعاطفيته.. كل ذلك مع شخصية قيادية افتقدها الشعب الإيرانى لفترة طويلة.. وعليه فقد بادر الشاه بنفى آية الله خمينى إلى تركيا.

لم يكن الخمينى وحده هو من عارض الشاه.. بل إنه لم يكن أعظم رجالات الشيعة على وقته لكن الرجل كان شجاعا سليطاً.. هجومياً قاسياً.. الأمر الذى أهله لزعامة حركة المعارضة الدينية لسياسة الشاه.. الأمريكية الخالصة.

كانت العراق تشهد كل تلك التيارات والمتغيرات بكل حذر فهى أول من يعى خطورة تلك المتغيرات ويفهم طبيعة الأمواج العاصفة التى تكاد أن تعصف بكرسى

الشاهنشاهية.. وهى أول من تعلم أنها الهدف التالى المستهدف - لاعتبرات عدة عديدة - من ذلك الجار الشيعى... أهمها طبيعة شعب العراق المذهبية نفسه.

كانت الأحداث تشير فيما تشير إلى مستويات القوى المتحفزة فى المنطقة.

فى عام ١٩٧٠م قامت إيران الشاه باحتلال الجزر العربية الثلاث أبو موسى.. وطنب الكبرى.. والصغرى.. وتدهورت العلاقات بين إيران والعراق.. الدولة العربية الوحيدة المؤهلة للتصدى لذلك الخطر الجاسم..

ومع ذلك لم تقع اشتباكات.. فمن كان يجرؤ من العرب على التصدى لشاه إيران؟!.

كان العراق قد أخذ فى جمع معارضى الشاه وتكوين جبهة معارضة لاطماع إيران فى تلك المنطقة الحساسة.. وعليه فقد ترك الخمينى تركيا إلى العراق.. ويقى الخمينى فى العراق ما يقارب من خمسة عشر عاما.. يأكل من قمحها.. ويشرب من مائها.. واتخذ الرجل من النجف الإشرف مقراً له.. واجتمع حوله من المريدين نفراً غير قليل.. فأكرمهم العراق حتى أن العراق قامت بتخصيص قناة خاصة للاذاعة الفارسية للخمينى.

وكان يشرف على البث منها رجل من أنصار الخمينى يدعى محمود دعائى.

كانت تلك التطورات رد فعل مباشر لمساعدات الشاه للسيد الملا البرزانى زعيم الأكراد الانفصاليين فى الشمال العراقى.. وكذا للحرب الاعلامية الايرانية ضد العراق.

رغم ذلك كله قام الخمينى خلال تلك الفترة بتأليف كتابه المشهور «الحكومة الإسلامية» أو ولاية الفقية.. وهو فى العراق!!!.. أظهر فيه نظرته وفلسفته للحكم المثالى الإسلامى على أنه وفقط من خلال تسلط الشيعة على مناطق المشرق العربى والتى يحكمها منذ استقلالها أهل السنة فى العراق والسعودية وإمارات الخليج وغيرها من مناطق المشرق العربى.

..لاقت نظرية ولاية الفقيه قبولا فى إيران وغيرها.. ومن الطبيعى أن تجد لها معارضين أيضا.. وانتشر الكتاب.. ولم يكن يحلم الخمينى أن ذلك الكتاب سيكون

ذات يوم فى شهرة كتاب «كفاحى» لادولف هتلر. ومع ذلك لم يمنعه العراق.. أو يغتال صاحبه.

وذات مرة غادر الخمينى جنوب العراق إلى الكويت.. فلم تسمح له السلطات هناك بإدخاله إلى أراضيها.. وبقى الخمينى حائراً لا يدرى أين يذهب وماذا يفعل؟!.. وعندما علم العراقيون بذلك وافقوا على عودته إلى العراق.. إلى النجف والعيش فيها شريطة المثول واحترام القوانين العراقية والتى افتقدها الخمينى نتيجة اعتماده على شيعة جنوب العراق.. لكن الخمينى لم ينته مع ذلك كله.. فاضطر العراق لتوجيه الخمينى ومحاولة تحديده.. فغادرها الرجل إلى فرنسا. وهنا نشم رائحة الغربا ء لأول مرة فى تيارات إسلامية وإن كانت متنافسة.

قامت فرنسا بتوفير الحماية الكاملة للخمينى.. وأمدته بكافة الوسائل اللازمة لمسيرته وخطة ضد الشاه.. عدوه اللدود.. وفى فرنسا واصل الخمينى مسيرته.. بل وصل إلى ذروة عمله وتأثيره.. واستطاع بعمله السرى وخطبه النارية فى أشرطة كاست أن يغزو كل بيت فى إيران.. كما ساعدته عوامل عدة داخلية وسياسية حتى تزلزل عرش الشاه من تحته.. فهرب الشاه بجلده من امبراطوريته.. وتركها للحاكم المأمول والذى كان مازال فى فرنسا!!!

من لا يعرف عن خصوصيات منطقة الشرق كان يظن أن الأمور حسنة وجميلة وتسير حسب ما يأمله المسلم العادى.. حسن النية.. وهذا ما حدث.

كانت نظرة المسلمين إلى الخمينى آنذاك نظرتهم لأسطورة وظاهرة لا مثيل لها.. فالرجل معمم بعباءة الإسلام.. ويرفع راية الدين.. ويدعو له فى جو مشبع بالاحباط والانهيار.

غير أن مفهوم الحوادث لمن يلمسون تلك الخصوصيات كانت بمعنى آخر تماماً.. حتى وإن تغلفت فى الفترات الأولى بلباس السياسة أو التقية بمفهوم الدين.

فى الأيام الأولى لثورة الخمينى أعلن آية الله أن تلك الثورة إسلامية لا مذهبية.. وهى لصالح المستضعفين ولأجل تحرير الأمة الإسلامية عامة وفلسطين خاصة.. وهامت الشعوب الإسلامية بالخمينى.

إن أكبر خطأ وقع فيه الجميع آنذاك أن هذه الشواهد والتصرفات والمتغيرات لم تكن موضوع دراسة متعمقة وفاهمة أو تقييم جدى وما عدا دول المشرق العربى والعراق خاصة فقد سقط الجميع فى تقييم تلك المتغيرات.

نفس الأمر فى أزمة الخليج الراهنة.

فالمنطقة كما ذكرنا لها خصوصياتها.. والعراق الذى آوى الخمينى لنحو خمسة عشر عاما أولى الأطراف بمعرفة وتقييم حركة الخمينى.. وفهمه.

عاد الخمينى إلى إيران وهو الرجل الأقوى.. والحاكم الاوحد.. وكان الخمينى يعلم أن مراكز ومؤسسات الدولة القوية على عهد الشاه تحمل فى وجودها عامل تهديد لحركته فقام بتحريقها وتمزيقها شر ممزق معتمداً فى ذلك على شعبيته الجارفة عند عامة الشعب.. وانهارت الى حد كبير أركان الدولة مما كان له أبعد الأثر فى حقيقة الأمر لمسيرة الحرب الأولى فى الخليج.. ولما كان الأمر على حاله يحمل نوعا من الخطر فقد ظهر الخمينى على صورته الحقيقية فى تلك الحقبة.

كان رد فعل العراق تجاه الأحداث متحفظا إلى أبعد حد وأقصى مدى مع تأهب وتحفز على المستويين السياسى والعسكرى.. ورغم ذلك كله بعث الرئيس العراقى أحمد حسن البكر برقية تهنئة للخمينى بمناسبة انتصاره وإقرار الشعب الإيرانى المسلم لنظام الجمهورية الإسلامية.

كان رد الخمينى مخيباً للآمال.. بل تضمن تهديداً ضمنيا ووعيداً بلاغياً وكلاما جارحاً وخطابا غليظا لحاكم العراق ولزعماء المسلمين عامة وخاصة.. والذين يسلكون منهجاً غير منهاج الخمينى.. وكان ختام رسالته: «والسلام على من اتبع الهدى».

وجاء صدام إلى الحكم.. وابدى الرجل مع كل هذا الاستفزاز والتحرش الدبلوماسى استعداده لفتح صفحة جديدة من العلاقات مع إيران.. وابدى صدام نيته واستعداده لدعم ثورة إيران متى ثبت حسن نيتها وأهدافها تجاه جاراتها من البلدان العربية السبعة المجاورة.

كانت كل تلك التطورات بعد فترة وجيزة من خروج مصر من حلبة الصراع العربى الإسرائيلى بعد اتفاقية كامب ديفيد.. وكان الموقف الذى اتخذه العرب من مصر لذلك.

كان لارتفاع سعر البترول المتزامن مع حرب أكتوبر ١٩٧٣ أثره المباشر فى ثراء الدول البترولية بدرجة ملحوظة.. حتى أن ودائع دوله مثل العراق آنذاك كانت حوالى ٧٠ مليار دولار « ٧٠ ألف مليون دولار».. وفاقت ودائع الكويت والسعودية العزاق بكثير.. غير أن الاستراتيجية العراقية لم تتجه للدعه والرخاء الاجتماعى كما حدث لغيرها بل انتهجت طريقا املاه عليها واجبها وفرضته الظروف الجغرافية والعقائدية.

تتابعت تصرفات الخمينى وكانت عملية إلى أقصى حد وأبعد مدى.. فاستقبل أمام الشيعة ابنا الملا مصطفى البرزانى قائد الاكراد فى الشمال العراقى وأمر بتزويدهما بالأسلحة والعتاد لضرب العراق واثارة القلاقل والاضطرابات فى شمال العراق.. وقام الامام بتعيين مصطفى طمران مسئول منظمة أمل الشيعية وزيراً للدفاع فى إيران.. والرجل معروف ومشهور بعدائه وتعصبه العقائدى ضد أهل السنة فى العراق.. ثم أمد الخمينى جلال الطالبانى بالمال والسلاح لإثارة القلاقل داخل بغداد..

وقابل العراق كل هذه التطورات بحذر وترقب.. غير أن الأمر سرعان ما اشتعل عندما قام الخمينى بالتهيئة النفسية لمخططاته عندما صرح فى خطاب تلفزى فقال أنه «.. سوف يحتل بغداد فى غضون أربع ساعات».

.. وقد لا يقيم الأمر على حقيقته إلا من علم رأى الإمام عند أهل الشيعة.. فهى مشيئة الهية لا ترد!!.. وهى السبيل القويم والصراط المستقيم!!..

.. وعليه فسرعان ما أعقب ذلك تصريح تلفزى لبنى صدر قال فيه: «إنه لا يستطيع أن يوقف زحف الجيش الإيرانى على العراق واحتلاله بغداد إذا ما أراد الجيش الإيرانى ذلك.»

وهكذا اندلعت الحرب العراقية الإيرانية.. الحتمية.. واستمرت لأكثر من ثمانية أعوام كاملة.

أهم ما يعنينا فى مقامنا توضيح طبيعة تلك الحرب.

بعد أيام من اندلاع الحرب اجتمع الكنيست الاسرائيلى وبحث هذه الحرب فى عده ساعات.. فقط لاغير.. أصدر بعدها الكنيست قراراً يعبر فيه عن ارتياحه لقيام هذه الحرب.. وأكد أن هذه الحرب ما قامت إلا لتستمر.. وصدق الكنيست.

أما على الجانب الغربى من الأمة العربية فكان هناك الدهشة والتعجب.. فلم تكن تلك الدول تعى - على الأقل على الجانب الشعبى» معنى المتغيرات والعواصف التى تهز المشرق الغربى.

أما على الجانب الشرقى من الأمة الإسلامية فكان الموقف على النقيض.. فقد وقفت السعودية والكويت والإمارات وغيرها فى خندق واحد مع العراق.. ضد إيران.. فهذه الأطراف أول من لمس خطورة البعثة الخمينية الشيعية.. والعاصفة إن اجتاحت العراق فسوف تجتاح غيرها قطعاً.. والأماكن المقدسة فى المملكة العربية السعودية كانت وعلى الدوام الهدف النهائى والمرمى الثابت لحركات الشيعة..

فى حج عام ١٤٠٨ هـ. اندلعت معارك شعبية دامية بين الحجاج الشيعة وبين الحجاج من أهل السنة مؤيدين بالقوات السعودية.. وراح ضحية هذه الحوادث المئات من مختلف الجنسيات.. كان ذلك الحادث الدامى جانبا من التفاعل العدائى بين البعثة الخمينية لأهل السنة عامة.. والسعودية بصفة خاصة.

وقبلها بعام كانت المملكة السعودية قد اكتشفت أطنانا من المواد شديدة الانفجار مع المئات من الحجاج الإيرانيين داخل جيوب سرية فى حقائب الحج الإيرانية.. ولم تشأ السعودية آنذاك فى تصعيد الموقف حرصاً على عدم ازعجاج حجاج بيت الله الحرام.. وأمر خادم الحرمين الشريفين بحفظ التحقيق.

ومع ذلك كله لم تنته حوادث الحج حتى حج العام الماضى.

تلك الحوادث لا تعدو إلا إشارة لحقيقة الكوامن الشيعية تجاه الحرمين.

جميع الحوادث المتفرقة كانت تشير إلى أن معركة العراق مع الخمينية الإيرانية إنما هى معركة المشرق المسلم كله.. الأمر الذى يفسر وقوف عرب المشرق مع العراق فى خندقه.. بأموالهم.

كان العراق قد بدأ منذ سنوات الحرب الأولى فى انتهاج استراتيجية تقوم على بناء ترسانة من الأسلحة فقام بمشروعات عديدة للأبحاث وللتصنيع الحربى وذلك كرد فعل مسئول تجاه المتغيرات الجارفة فى منطقة المشرق.. وكانت رغبة العراق فى امتلاك

نوع من الأسلحة الرادعة حلماً قارب على التحقق. فقامت العراق بشراء مفاعل نووى من فرنسا.. حطمته إسرائيل فى غارة جوية.. ولم يتوقف العراق حتى وهو يواجه عدوا شرساً فى معركة عقائدية دامية حتى ظهرت الدبابات والطائرات والصواريخ العراقية الصنع.

كان من الطبيعى أن يستهلك ذلك الاتجاه العسكرى كل مدخرات العراق.. وكانت مساعدات الدول العربية البترولية عاملا مساعداً دون شك.. رغم أن ذلك كله كان على حساب البنية الأساسية العراقية.. وتطلعها إلى المستقبل وتطورها المنطقى الذى تستحقه.. غير أن الأمركان أمر اولويات.. كان تطور المعارك بين العراق وإيران منطقيا وحتميا حتى أنه قد استخدمت الصواريخ بكثافة شديدة وضربت إيران المدن العراقية وبغداد.. وفى أحد تلك الغارات سقط صاروخ على أرض الكويت.. فسارع العراق بالرد وكأنها أرضه ووطنه..

ثم كانت معركة الفاو.

كانت طبيعية معركة البصرة والفاو بصمة من بصمات تقسيم المنطقة والتى خطها بيده وقلمه الأحمر السيد بيرس كوكس عند تحديده للحدود بين السعودية والعراق وخلقه بلداً جديداً فاصلا بينهما.. فقد ضاعت أهمية البصرة كميناء عراقى أساسى ووحيد للعراق على الخليج ولم تعد تمثل له هذه المنطقة سوى خور بسيط دقيق يسهل ضربه واغلاقه.. كما أن هذه المناطق أصبحت قريبة للغاية من الأراضى الإيرانية.

أستغل آيات الله ذلك كله فقاموا بقصف البصرة بالمدفعية الثقيلة ١٧٩ مرة فأستشهد ٧٧٦ شخصا وجرح ٢٤٩١ آخرين.. كما قاموا بقصف مدن أخرى حدودية ٣٤٨ مرة.. ثم كان اجتياح الفاو بعد أن تهدمت البصرة بشكل كبير.

كانت معركة الجنوب هى المعركة الأخيرة.. فسقوط الفاو كان يعنى فى لغة الاستراتيجية قطع المنفذ الوحيد البسيط للعراق على الخليج.. وقطع خطوط اتصالاته وتموينه من منطقة هامة.. وهددت إيران بالزحف نحو بغداد من الجنوب المحتل... الأمر الذى اضطر العراق لاخراج معظم ما فى جعبته وقام بحرب بطولية رائعة دمر فيها الايرانيين.. وحرر الجنوب. واسقط فى يد الخمينى.. وأعلن وهو يمسك دموعه أنه

يقبل بوقف لاطلاق النار على حدود القتال الحالية.. وكان العراق يحتل مساحة من الأراضى العربية الأصل وتقدر بمئات الكيلومترات.

رغم أن الأمر كان مجرد وقفاً لاطلاق النار فقد تبسم العرب فى المشرق الغنى.. وانفرجت الغمة.. وصفق الجميع لبطل القادسية.

كانت جميع الدول العربية تقف وراء العراق قلباً وقالباً فى المشرق - الأمر الذى يشير إلى أن السعودية والكويت والدول الخليجية كانت تعى تماما أن الحرب حربها.. والمصير مصيرها.. ومن ثم كان موقفها التأييد الكامل للأخ الأكبر العراق مع بعض التحفظ لقطر والإمارات والتى حاولتا جاهدتين على الصعيد الدبلوماسى أن تكونا همزة وصل بين نظام آيات الله فى طهران وبين صدام فى بغداد.. وكانت الأردن مع العراق بكامل جوارحها.. ما عدا سورية!!

بل إن سورية فى الحقيقة كانت حلفا مع إيران ضد العراق.. لا يزال قائما.. ولا تزال بصمته على أرض لبنان ملموسة.. ولا يمكن تفهم هذا الموقف من بلد لها تاريخها وثقلها مثل سوريا إلا بتجليل الإتجاه العقائدى لمن يملكون السلطة فى سورية.. البلد السنية.. فهم من العلويين.. من أكثر وأشد أحزاب الشيعة تعصبا وجنوحاً.. وتكفى الإشارة لما حدث للاخوان المسلمين فى حماة.

دخلت منطقة الخليج بعد ذلك مرحلة اللاسلم واللاحرب واستمرت على هذا الحال لأكثر من عام ونصف.. وحتى بعد وفاة الخمينى لم يجرؤ هاشمى رافسنجانى على انتهاج أى موقف إيجابى قد يعد كسراً لمبادىء الخمينى..

فقد وافق الرجل على ايقاف الحرب.. ولم يوافق على السلم.

كان السلام إذاً هشاً رقيقاً ويمكن أن يندلع القتال فى أى وقت.. ولم تنجح جهود العراق لاحلال السلام مع انتصاره بشكل ينزع الصراع من جذوره وهكذا سارت جهود السلام فى حلقة مفرغة.

أما على الصعيد العالمى فقد كانت نظرة أقطاب العالم وتقيمهم لهذا الصراع صورة من صور السياسة الاقتصادية العالمية.. فقد نجحوا بجهودهم على مختلف

الأصعدة فى تفجير صراع بين شعبين.. كُل يدعى الحق الكامل.. وليس لأحد منهم الاستعداد لسماع حجة الطرف الآخر.. كما أن لإثارة النزعة العقائدية بصمتها دون شك على أى صراع.. فحينئذ لا تهم الخسائر ولا قيمة للأموال.

كانت سياسة الولايات المتحدة قائمة على سياسة إدارة الأزمة.. أى أن الولايات المتحدة لا تتخذ خطوات سياسية أساسية أو مبادرات فى المنطقة إلا عندما تشتعل المواقف بما يضرها هى.

أما الاتحاد السوفيتى ونظراً لدقة موقفه الاقتصادى فقد اقتنع أن دوره لا يمكن إلا أن يكون مكملا للدور الأمريكى.. وفى نطاق التفاهم بينهما.. وحيث أن الولايات المتحدة ليست فى عجلة من موقفها تجاه حل ذلك الصراع فلا ضير ولا تثريب فى الانتظار السوفيتى.

وهكذا تشكلت السياسة الدولية لاستمرار الصراع واستنزاف قدرات وأموال الطرفين المتصارعين - وهى رهيبة - ونجحت تلك السياسة لاقصى حد.. فقد افتقرت الدولتان المتحاربتان.. وضاعت أموالهما.

* * *

كانت تطورات حرب الخليج فى ١٩٨٧م تشير بما لايدع مجالاً لأى شك أن دولة الكويت العربية بالذات قد أصبحت طرفا مباشراً لما فرضته ظروف الحرب.. وكل هذا - أيضا - نتاج لرسم الحدود للسيد كوكس.. فالأمر الذى لاشك فيه أن ظلم العراق ومنعه من الوصول إلى الخليج كان ثمنه أن تقاربت حدود إيران - الكويت.

كان ذلك ونتائجه المحتملة مجال بحث واستفسار من أمير الكويت لاشقائه قادة ورؤساء العرب فى اجتماع القمة العربية فى عام ١٩٨٧م. فبعد سقوط الفاو أصبحت الكويت - رض أو لم يرض - طرفا من أطراف المواجهة الحادة الملتهبة فى الخليج.

كانت الأمانة السياسية العملية والمنهجية تقر آنذاك أن الخطر الإيرانى ليس وقفاً على العراق - وهناك اتفق القادة على أنه ليس غير العرب من يستطيع بكل الإخلاص

حماية مصالحهم وأن أى قوة أجنبية سوف تستدعى للمشاركة سوف تدير سبل الحماية واسلوبها بالشكل الذى يحقق مصالح تلك القوى فى المقام الأول.

أما من المنظور الاقتصادى والتقييمى لحرب الخليج فإن هناك ما يستدعى وقفة حساب مع النفس والشقيق.. تستوجبه نظرة تأمل فى الواقع العربى وحقيقته ومضمونه ونحن على آفاق التسعينات..

إن ما يثير الهواجس عند التحليل العلمى المحايد ما يجزم أن العقل العربى يتصرف بشكل ينبىء عن حالة من الانفصام أو الشيزوفرينا فى مواجهة مشاكله.. فكما يرفع من الناحية السياسية مضمون وشعار الوحدة العربية ووحدة المصير.. إلى آخره.. فإنه يسقط من الناحية الاقتصادية تبعات ذلك.. ويدفعه لانتهاج مواقف مغايرة ومهددة للمصير العربى ذاته.

من المتفق عليه أن دول المنطقة العربية أمامها الكثير كى تعبره فى طريقها للنهضة والقوة.. فهى ما تزال فى دوامة من المشاكل والصراعات تثقلها بأعباء الديون المتراكمة وتستنزف بالتالى قوتها وثرواتها.. وفى الجزء الخاص بالعالم الثالث من تقرير الأمم المتحدة حقائق مفزعة.. وواقع رهيب عجيب.

(١) فقد زادت الدول النامية الفقيرة فى انفاقها العسكرى منذ عام ١٩٦٠م وحتى نهاية الثمانينات بمقدار ٨٠٠٪.

(٢) وازدادت ديون العالم الثالث فى الفترة من ١٩٧٤ : ١٩٨٩م بمقدار ٥٨٠ مليار دولار.. منها ٢٥٠ مليار دولار قيمة ما استوردنه هذه الدول من أسلحة من الدول الصناعية الكبرى.

(٣) كما أن انفاق العالم على التسليح يبلغ ٨٠٠ مليار دولار سنوياً.. وهو ما يعادل تقريبا كل ديون العالم الثالث..

ما يمكن استيعابه من كل تلك الحقائق أن دول العالم الثالث هى «الزبون» الدائم لصناعة الأسلحة فى الدول الصناعية الغربية وأيضا فى الاتحاد السوفيتى - وجل هم هذه الدول هو الدخول فى سباق التسلح لمواجهة ما يفرض عليها - أو تفرضه هى - من مؤامرات ونزاعات حدودية واقليمية.

ومن ناحية أخرى فإن الدول الصناعية السبع الكبرى هى المستفيدة من بؤر الصراع فى الشرق الأوسط أو غيرها.. الأمر الذى يجعل من دول هذه المناطق أعضاء فى دائرة الديون والجوع والتخلف.. وهذا الأمر ذاته هدف أساسى من سياسات الدول الصناعية الاقتصادية.. ومساعدات الدول الغنية فى الشمال لدول الجنوب الفقيرة إنما هى بميزان حساس دقيق لا يجب أن يخل على الاطلاق بأهداف السياسة الاقتصادية العالمية.. وعليه فلن تهتم هذه الدول - ولم تهتم - بتسوية النزاعات الإقليمية إلا فى المناطق التى تشكل خطراً على مصالحها الاستراتيجية.

وهكذا.. فإن عصارة السياسة العالمية الاقتصادية للدول الكبرى هو امتلاك كل شىء واستنزاف ثروات العالم الثالث الطبيعية.. خاصة البترول[1]. من خلال منظور ومفهوم تلك الاستراتيجية العالمية كانت نظرة الدول لصراع الخليج الأول.

ومن ثم يمكن تفسير لماذا طالت حرب إيران - العراق لأكثر من ثمانية أعوام؟ غير أنه.. واظهارا للحق فرغم وضوح تلك السياسة على المستوى السياسى فيبدو أن أهم أسباب نجاحها بين زبائنها هو أنه هناك دائما من له مصلحة ذاتية فى إنجاحها.

دخلت مصر حروب متتالية مريرة مع إسرائيل.. حرب ٤٨، ٥٦، ٦٧، ١٩٧٣م.. وأنهارت بالتالى اقتصادياتها..

كانت تلك الحروب - أيضا - حروب الأمة العربية كلها وليست حروبا لمصر ذاتها.. وتزامن كل هذا مع ارتفاع مذهل فى أسعار البترول خاصة مع الحروب الأخيرة.. الأمر الذى انعش اقتصاديات الدول البترولية لأقصى حد.. ومع ذلك كله لم يتواكب ذلك التغير الاقتصادى بمساعدات متوازنة لدول المواجهة حتى تستعيد اقتصادياتها المتدهورة.. حدث ذلك لمصر.. ولسوريا.. ولم يتبق من الدول العربية الرائدة سوى العراق.

---

(١) يقول السفير الأمريكى الاسبق فى السعودية جيمس اكينز فى مقالة له نشرته جريدة الواشنطن بوست فى ١٢/٩/١٩٩٠م.. يقول عن بترول العرب «هناك خطة يمكن تصورها أكثر وهى تدويل النفط العربى وبالتالى تصحيح أحد اخطاء القدر الذى لايمكن تفسيره والمتمثل فى وضع هذه الموارد القيمة فى مكان لايستحقها..»

العراق القوى الفتى والذى صقلته حرب الخليج الأولى ولأكثر من ثمانية أعوام كان هو الآخر هدفا لتحجيمه كما تم تحجيم اشقائه من قبل. غير أن الأمر يزداد على النفس صعوبة وشدة عندما تكون الوسيلة لذلك من أشقاء خندق الأمس.!!

فى ذلك الوقت تزايدت معونة أمريكا لاسرائيل بدرجة كبيرة.. حتى أنها عقدت معها معاهدة تعاون استراتيجى!!!.

واضح من تحليل تلك السياسة الاستراتيجية الاقتصادية العالمية تجاه مناطق الشرق أنها تعتمد فى إقرارها وتنفيذها على نظام مشايخ وامارات الخليج.

هؤلاء المشايخ تقدر ودائعهم فى بنوك أمريكا والغرب بعشرات المئات من المليارات من الدولارات.. تقوم عليهم نهضة تلك الدول الإوربية الأمريكية.. وعليه فلا أمل - حتى - فى حرية سحبها.. بل لها حدودها القانونية المشروطة والتى لا تؤثر على اقتصاديات الغرب.

دخل العراق تلك الدائرة المغلقة حتى مع انتصاره، فقد انتهت حرب الخليج بوقف لاطلاق النار وعلى العراق مديونات تقدر بأكثر من مائة مليار دولار حسب تقديرات المسئولين.!! وكان معظم تلك المديونات للبلدان البترولية العربية السعودية - الكويت - والامارات.. وبعد أن فقدت رصيدها الاستراتيجى والذى كانت تعد به من أغنى دول العالم.. الأمر الذى أدى إلى انهيار عملة العراق بشكل كبير.

بينما كانت تلك المتغيرات تتوالى كانت دول الخليج النفطية - والتى شاركت العراق خندقه فى حربه - تتحرك على المستوى الاقتصادى بشكل وحساب لا يخدم سوى النظرة الإمبريالية الاقتصادية للأحداث.

درس تطبيقى ممتاز فى السياسة الاقتصادية يجب أن نعيه جيداً.. حتى أن الحسابات أشارت إلى أن العراق ونتيجة مباشرة لتلك السياسة باع بتروله الخام لسنوات عديدة قادمه..

تلك نتيجة حرب العراق لمدة ثمانية أعوام.

فى تلك الفترة ارتفعت ودائع شيوخ البترول لعشرات المليارات فى دول الغرب.. وأمريكا.

(٥) بداية الزلزال:

تعتبر فترة ما بعد الحرب من أهم فترات الصراع أهمية.. فإن جاز قبول فترة الصراع ذاتها بين صعود وهبوط تبعاً لظروف ذلك الصراع وملابساته فإن فترة ذلك الصراع إنما يجب أن تخدم نتيجة ذلك الصراع.. ويستلزم ذلك ثبوت تلك النتائج.. ودوام تلك الأهداف قدر المستطاع.. فكل صراع له هدفه.. وعدم تأمين هذا الهدف لا يعنى سوى فشل الصراع.. ورغم انتصار العراق فى معركته الحتمية مع نظام آيات الله فى إيران على المستوى الاستراتيجى فإن المعركة لم تكن قد انتهت رسمياً.. كل ما هناك اتفاق لوقف إطلاق النار. لإعادة الحسابات وتجهيز الجيوش.. فطبيعة الصراع العقائدى والذى يختفى تحت صراع الحدود بين العراق وإيران يحتم استمرار الصراع ولآماد طويلة.. وإن اتخذ أشكالاً متعددة تبعاً للظروف.

فى تلك المرحلة من الصراع كان من المحتم مراجعة الحسابات والمواقف.

تشير التقارير إلى أن الحرب العراقية الإيرانية كلفت العراق ١١٠ مليار دولار كما كلفت إيران ٩٠ مليار دولار.. كذلك فقد انفق العراق ١٠٢ بليون دولار على شراء وتصنيع آلته الحربية.

وأعلن معهد الدراسات الاستراتيجية الفرنسية أن الحرب تسببت فى مقتل ٦٠٠ جندى فى المتوسط اليومى.. كما سقط أكثر من مليون جريح..

انتهت الحرب وديون العراق تبلغ أكثر من مائة مليار دولار معظمها لدى الدول العربية البترولية.. ومن المنطقى أن يشهد الدينار العراقى تدهوراً خطيراً.

وفى مساء وقف اطلاق النار بين الجانبين كانت مديونات العراق لدى بعض المصارف والهيئات المالية العالمية كبيرة.. حوالى ٢٠ مليار دولار لليابان.. وبلغ الدين العسكرى والمدنى لفرنسا ٦ مليارات دولار.

ولايطاليا كان مبلغ الدين ٢,٤ مليار دولار.. ولالمانيا الغربية ١,٨ مليار.

أما بالنسبة لـ «اكزيم بنك» فى الولايات المتحدة الأمريكية فقد رتب قرضا للعراق بمبلغ قدره ٥٣٧ مليون دولار.

يتضح من حسابات كل تلك الأرقام أن حجم تكلفة تلك الحرب الضروس بلغت حوالى ٤٠٠ مليار دولار.. وهو رقم مذهل بكل تأكيد.. ويحتاج لتفسير.. غير أن هذا التفسير هيد لو حللنا سياسة صدام تجاه الحرب فقد سارت هذه السياسة فى عدة اتجاهات متوازية.. فتكاليف آلة الحرب باهظة ومن جهة أخرى رمى العراق إلى تصنيع تلك الآلات وإقامة تلك الصناعات وما يستلزمها من مراكز أبحاث الأمر الذى كان مكلفا بكل تأكيد.. بل وباهظاً لكنها على المدى الطويل مربحة وهامة جداً خاصة بالنسبة لمنطقة مثل المشرق العربى والتى تتميز بالاضطرابات وبطبيعة مذهبية تجعل استمرار تلك الاضطرابات شىء لا مفر منه ولابد من تقبله.. وتكفى نظرة بسيطة لمشكلة فلسطين.. ومشكلة السنة والشيعة فى المشرق العربى لندرك مدى تعقد طبيعة تلك المشكلات.

الحقيقة التى يلمسها الزائر للعراق أن كل تلك التكلفة كانت على حساب تنمية المجتمع العراقى ذاته.. وعلى أساس بنيته الأساسية.. فالزائر لبغداد - قبل الحرب - لم يكن ليلمح اسرافاً من أى شكل فى الأبنية أو الطرقات أو غيرها من الخدمات الأساسية.. هذا فى حين أن تلك البنية الأساسية كانت على أعلى مستوى فى كل من السعودية والكويت والإمارات حتى ناطحت تلك البلاد فى طفرتها ونموها الدول الأوربية بل وتفوقت على بعضها.

كان ذلك التباين الواضح صورة من صور التباين الفلسفى للطفرة البترولية والتى حدثت بالمنطقة.. والتى أخذها العراق من مبدأ الاحساس بالمسئولية وحساب الاولويات التاريخية.. فى حين كانت عند أطراف أخرى مؤشراً واضحاً لأثر المال فى النفوس.

فى الندوة التى أقامها مركز البحوث والدراسات السياسية والاقتصاد لمناقشته التقرير الاستراتيجى العربى لسنة ١٩٨٩م فى ١٧: ١٨ نوفمبر ١٩٩٠ فى تلك الندوة ذكر أ .د. نعيم الشربينى أن نتيجة دراساته وبحوثه فى مسألة ودائع البترول فى بنوك الغرب وأمريكا وجد أنها تتراوح بين ٤٣٠ : ٤٥٠ مليار دولار مع تصاعد سنوى كبير.. هذا عدا ودائع الأفراد والشركات وتقدر هى الأخرى بمئات المليارات!!!

في الجانب الآخر نلحظ أن العراق الذى خرج مع حربه مع إيران بتلك النتيجة المشرفة نجد أنه على المستوى الاقتصادى أصبح مدانا بما قدره ١٠٠ مليار دولار معظمها للدول العربية البترولية.. الأمر الذى أدى إلى هبوط قيمة الدينار العراقى لنحو $\frac{١}{٢٠}$ من قيمته قبل حربه مع إيران.. هذا بالإضافة إلى حوالى ٤٠ مليار قروض أخرى.

من الناحية السياسية أمكن تسييس مصر والتحكم فى دورها القيادى للأمة العربية بديون أقل من ذلك بكثير .. بـ ٥٠ مليار دولار فقط تقريبا.. والنظرة الأولى لتلك الحقائق أعطيت مؤشراً بأن من الممكن السيطرة على العراق وتوجيهها بعد تلك الكارثة الاقتصادية.. بل ولا قيمة لمخزون البترول العراقى فى حالته إلا لخدمة أصحاب الديون..

الحقيقة التى يجب تذكرها على الدوام أن المعركة مع إيران والتى كانت سبب كل ذلك الخراب هى معركة المشرق العربى كله.. ومن المنطق أنه فى مقابل ذلك التنافر الاقتصادى الرهيب أن يلجأ العراق لأصحاب الخندق الواحد من أمس.. فى محاولة منه لإسقاط تلك الديون العربية.. وهذا أقل من حق العراق بعد كل ما قدمه.. بل أقل بكثير.

هذا المطلب يستلزم أن يكون رسمياً حتى يمكن استعادة قيمة الدينار العراقى على المستوى العالمى.. خاصة أن ذلك المطلب لا يغير كثيرا ولا يضر بحاله دول الخليج الاقتصادية فى كثير أو قليل.

أما من الناحية العملية فإن المفهوم والمنطق كانا يؤكدان أن العراق لن يدفع تلك الديون بشكل أو بآخر.

وفى نهاية شهر يوليو ١٩٩٠م. بدأت تظهر على الأفق بوادر أزمة خليجية..

فقد اتهم الرئيس العراقى صدام حسين دولتى الكويت والإمارات العربية بضرب أسعار البترول عن طريق تجاوز الحصص المقررة لهما فى الإنتاج بمعرفة منظمة الاوبك.. وبدت بوادر انفجار غير محسوب وتوتر غير متوقع.

المنطق يقر دون شك أن من يريد العافية فى تلك المنطقة الحساسة أن يتعامل مع المسألة الاقتصادية مع عدم اغفال أبعادها السياسية والاجتماعية.. فأطراف التوازن عديدة.. والتوازن ذاته دقيق..

وعليه فإن تقسيم الدول العربية فى تلك المنطقة إلى خانة عرب فى منتهى الغنى.. وخانات أخرى فقيرة أصبح أمراً يحمل فى طياته كل أسباب الانفجار.. فالفقر قوة طرد كبيرة تدفع إلى عدم الاستقرار وعدم قدرة دول كثيرة على الوفاء بمتطلبات التنمية.

وكان الأمر عند العراق مركباً ومعقداً.. فالعراق ليست من الأساس دولة فقيرة.. بل ذاقت طعم الغنى وكان دخلها من البترول أكثر من دخلى الكويت والامارات.. ومعركة إيران والتى تسببت فى حالة العراق الاقتصادية هى حرب دول البترول العربية أولاً واخيراً.. فأى ظلم أفدح من هذا؟! وأى تباين كان على دول الخليج أن يراعوه!!.

غير أن السياسة العالمية كما يبدو كانت ترمى إلى تحجيم العراق.. القوى عسكريا.. الضعيف اقتصادياً.. وهو ما يستلزم كسر تطلعات العراق التنموية..

فهل هذا جزاء العراق.. البطل.. بعد كل ما قدمه؟!.

المدهش أن هذه التداعيات جاءت بعد مضى أسبوع واحد على صدور بيان جده بين السعودية والعراق والكويت والإمارات وقطر.. واتفاق هذه الدول على خفض نسبة الإنتاج البترولى بما يضمن تصحيح سعر برميل البترول بما يضمن عودته إلى ١٨ دولار للبرميل.. ووافقت فيه الدول على حصص إنتاجها.

والعجيب أن الكويت - الدولة الثرية المرفهة - كانت قد أعلنت أنها تسعى لزيادة حصتها من إنتاج البترول بهدف خفض العجز فى ميزانيتها العامة بعد أن وصل إلى حوالى ٥ مليارات دولار فى عام ١٩٩٠ / ١٩٩١م.

ومع ضعف تلك الحجج الكويتية مقارنة بحالة العراق فإن زيادة حصة الكويت سوف تتسبب بشكل مباشر فى انخفاض سعر برميل البترول.. هذا مع أن جميع دول

البترول كانت ترى أن سعر البرميل والذى وصل إلى ١٤ دولار قبل بيان جده سعر ظالم لتلك الدولة المنتيجة.. فتكلفة إنتاج البرميل تصل إلى حوالى ٩ دولارات.. حتى أن كثيرا من تلك الدول أعربت عن قلقها لافتقارهم صيغة فاعلة يتم بموجبها تحديد حصص الإنتاج لكل طرف بما يتفق مع رغبات ومصالح بقية الأطراف.

كانت التقارير تشير إلى أن أسعار البترول قد انخفضت كثيرا منذ عام ١٩٨٨٢م.. ومن العبث أن نأخذ بوجهة نظر من يدعى أن ذلك سببه أن الدول الصناعية بدأت بترشيد الطاقة والبحث عن بديل للبترول.. ومن العبث أيضا تبرير زيادة الدول البترولية الكبرى لإنتاجها كان من أجل مصلحة الدول المصدرة.. ولاستقرار السوق.

الحقيقة ضمن تلك المتعارضات تكمن فى أن البترول سلعة اقتصادية.. غير أن العلاقات الخاصة جدا بين الدول الكبرى وبين دول البترول العربية تقوم على أساس الارتباط العضوى.. فأنظمة الحكم فى بلاد البترول العربية أنظمة عشائرية تضمنها الدول الكبرى.. وفى المقابل تتحكم تلك الدول إداريا فى الإنتاج ونسبته وأسعاره.. وكذلك فى استثمار الفائض من ميزانية تلك الدول.. تلك العلاقة العضوية الحيوية هى التى تتحكم وتحكم سوق البترول.. وسعره.. ولا يستفيد منه غير المستفيدين وفقط.

أما عن قيمة العلاقات والاتفاقات الدولية.. فلا قيمة لها عند تلك الأطراف فالأمر فى النهاية عرض وطلب..

وطالما ضمنت الدول الكبرى العرض فقد تحكمت فى السعر الذى لا تدفعه.. فهو فى النهاية إلى خزينتها مرة أخرى.

لعل المنطق فى تلك المرحلة كان يحتم دون شك مراعاة حالة العراق الاقتصادية.. ومنطقية إشارته لديونه نتيجة الحرب مع إيران.. ونظرته لحصص البترول.. وإحساسه بالغبن ومحاولة تحجيمه بعد سنوات حربه المريرة..

هذا والجميع يقرأون تقرير مؤسسة راند «الأمريكية» والى قدرت قيمة الودائع العربية فى بنوك أمريكا بأنها حوالى ٧٠٠ مليار دولار!! وقدّرت الاستثمارات بمبلغ مقارب!!..

وتقرير مجلة «فورنشيون» الأمريكية عن أثرياء العالم والى حددت أن أصحاب البلايين والذين يتربعون على العرش يبلغون مائتين.. وأنهم يتحكمون فى سياسة واقتصاد وثقافة وطريقة حياة العالم الرأسمالى.. ومنهم ١٢ بليونيراً عربيا على رأسهم أمير الكويت وملك المغرب وملك السعودية ليس بينهم عراقى واحد حسب علمى..

أليس من المشين أن ينتهج الأغنياء العرب إلى الربح وضمان السلطة.. وعلى حساب أشقائهم العرب - والذين رفعوا الرماح دفاعا عنهم - الفقراء.

من المنطق.. وجوانب التناقض صارخ فى مواقف الأشقاء العرب أن يسترجع الطرف المغبون فى اللاشعور كل مظاهر الظلم الذى وقع عليه وأن يجتر معه كل تاريخه.. وكل غبنة وظلمة..

فى اجتماع وزراء الخارجية العرب والذى عقد فى تونس قبل أسابيع من انفجار الأزمة علناً قدم العراق وحدد نقاط الخلاف بينه وبين جاراتة البترولية فى خمسة نقاط أساسية وهى :

(١) موضوع الحدود المعلنة بين العراق - الكويت.. فقد اتهم العراق الكويت بإقامة منشآت عسكرية وبترولية فى غير أرضه.

وهكذا برز التاريخ بكل جذوره عند تلك الحالة النفسية والتى أفرزها التناقض الواضح لأطراف الخلاف.

(٢) موضوع حقل الرميلة البترولى.. وهذا الحقل يمتد بين العراق والكويت ومن حق البلدين أن ينتجا منه.. مثل هذا النوع من الحقول المشتركة معروف.. وأشهر نماذجه حقول بحر الشمال والتى يوجد جزء منها في باطن الأرض فى دولة.. وجزء آخر فى دولة آخرى.. وفى تلك الحالة فإنه يتم الاتفاق بين الدول على طريقة اقتسام الإنتاج.. والأجهزة العلمية هى التى تستطيع أن تحدد بدقة إنتاج كل دولة من ذلك الحقل.

اتهم العراق الكويت أنه قد قام خلال سنوات الحرب بإنتاج كميات كبيرة من البترول من هذا الحقل قدر العراق قيمة حصته منها بنحو ٢٤٠٠ مليون دولار.. ولم

تنفى الكويت بل كان ردها ما يفيد: - كيف يطالب العراق باستعادة قيمة هذا البترول.. وفى الوقت نفسه يحرم الكويت من استعادة ما قدمه إلى العراق فى صورة ديون؟!.

منطق الكويت يلقى بظلال من الشك حول صحته أولاً.. ووطنيته وقوميته ثانيا.. فهو يثبت الاتهام.. ولا ينفى إدعاء العراق.. ويظهر أن ما قدمه للعراق فى حربه باليمين قد استرده بالشمال.

وكأن حرب الخليج كانت حرب العراق وحده!! فهل نسى الكويت شعوره ناحية العراق عندما سقطت عليها الصواريخ.. وهددتها إيران؟!

(٣) موضوع الحصص من إنتاج النفط والتى أشرنا إليها.. والأمر الذى يثير الدهشة حقاً هو أن العراق نجح خلال أسبوع واحد من ذلك الاجتماع فى تحريك أسعار البترول فى السوق العالمية وقبل أن تجتمع وزراء الأوبك إلى أكثر من ١٨ دولاراً للبرميل بعد أن كان فى حدود ١٣ دولاراً فقط!!

(٤) موضوع الأموال التى قدمتها الكويت والسعودية إلى العراق خلال سنوات الحرب.. ففى مذكرة العراق نجده يتسائل: إذا كان العراق قد تحمل مسئولية الدفاع عن الأمن القومى العربى وعن السيادة العربية والكرامة القومية.. وعن ثروة الخليج ذاته بصورة مباشرة والتى كانت سوف تقع حتما فى أيدى الآخرين لو خسر العراق الحرب.. فهل يمكن اعتبار ما قدم إلى العراق من مساعدات ديناً عليه؟!.

المعنى الواضح لهذا التساؤل هو إحساس العراق بأن من حقه شطب كل دين عليه لأشقائه العرب وإسقاطه على أساس أن العراق قد تحمل الكثير.. بل والكثير جداً.. أولها مثلا ١٠٢ مليار دولار فى بند واحد فقط من بنود الحرب.. هو بند الأسلحة.

(٥) ثم كان اقتراح العراق بتنظيم خطة عربية على غرار مشروع مارشال الأمريكى بعد الحرب العالمية الثانية وذلك لتعويض العراق عما خسره فى تلك الحرب.. بعد أن قدم أضعاف هذا الدين من أمواله طيلة سنوات تلك الحرب الضروس وقدم أنهاراً من دماء زهرة شبابه فى الدفاع عن أراضى العروبة وكرامتها وعرضها وثرواتها.

الأمر رغم تركيبته المعقدة عند العراق ينحصر فى أن ما طالب به منطقى ومعقول فلا يجب أن تكون هناك دولة عربية غنية جداً وأخرى فقيرة جداً.. والأمر مركب فى حالة العراق... فقد كان غنيا وفقد ثروته كلها من أجل قضية العرب كلهم..

من ناحية أخرى فإن المتأمل لنقاط الخلاف هذه قد يرى أنها كلها ليست مستحيلة الحل.. غير أن أهم ما فى الأمر حقيقة هو معنى تلك المواتقف عند أصحابها.. وليست عند المحللين والكتاب.. والفلاسفة. وإلا فكيف يقدر هؤلاء المحللون الفاهمون أرواح ٢/١ مليون شاب من زهرة شباب العراق فى حربه عن البوابة الشرقية للوطن العربى؟!

وكيف يقدرون خسارة وآلام من عانى وتشوه وأصيب؟!

تلك معاناة أصحاب الحق.. فتقديرهم هو التقدير.. خاصة أن كان حلها فى المستطاع.. بأموال عند أصحاب البلايين.

تلك المسألة حساسة للغاية حيث أنها نفسية قبل كونها سياسية واقتصادية واجتماعية.

ألم يكن هذا هو نفس الموقف الذى حدا بأنور السادات لعقد اتفاقية كامب ديفيد.. و،قلب الموائد والمواقف على أصحابها.

* * *

قد يكون من العبث الذى لا طائل من ورائه أن يفرق الباحث فى حل مشكلة وآثارها وتعقيداتها مع إسقاط أسبابها وتحليلها.. هذا هو التشخيص لمن تناول تلك المشكلة من كتاب ومؤرخين.. الصغار منهم والكبار.. الأمر الذى ألقى كثيرا من الضباب حول الفهم والتقدير السليم.. ومن ثم إتخاذ المواقف تبعا لذلك.

من الأنصاف القول بأن دور مصر القيادى العربى والإسلامى والذى برز منذ الخمسينيات قد اصابته انتكاسة خطيرة فى صلح كامب زيفيد مع العدو الصهيونى الابدى.. غير أن أعجب ما فى الأمر حقا هو أن ذلك الموقف إنما نبع من ذلك البلد

الأمين والذى ترأس الدفاع عن قضية العروبة والإسلام والذى نما وترعرع فى صورة الرؤية المصرية للصراع العربى الإسرائيلى فى الستينيات والسبعينيات.

هذه الانتكاسة يمكن تفهمها وتقييمها فقط بدراسة جوانبها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية - وهى كلها جوانب فى غاية الأهمية..

فى ظنى أن الفكر والعمل السياسى المصرى والعربى لم يتمكن فى الثلاثين عاما الماضية من وضع استراتيجية عامة وشاملة لإدارة ذلك الصراع مع ذلك الحاجز الغريب اليهودى بين المشرق العربى وغربه.. والذى راح يستنزف القوى ويرهن الوجود العربى ذاته.. ثم لم يلبث أن أصبح يهدد الوجود العربى فى عقر داره من شرقه إلى غربة.. ويتحكم فيه بطريق غير مباشر سياسيا.. بل واقتصادياً.. ويوجهه كيفما شاء. لمصلحته ولمصلحة الدول العظمى.

فى غيبة تلك الاستراتيجية العامة تجاه ذلك الخطر الملموس فإن أعباء الصراع لم تتوزع بالعدل والأنصاف وعلى العرب عامة.. فقد عانت منه الدول المجاورة أكثر من غيرها.. وتحمل أعظمها الشعب الفلسطينى البطل كما تحملت مصر وسوريا أكبر الأعباء.. حتى زاد الكيل لما تميز به ذلك الصراع من عنف واستمرارية.. إضافة إلى أخطاء فى السياسة والقرارات العربية والمصرية وهو أمر مقبول..

غير أن ما خلق منعطف كامب ديفيد كان من ملابسات ومضاعفات عربية زادت من وطأته على النفس الإنسانية واثقلت من كاهله.. فكان ما كان.

خاضت مصر غمار خمسة حروب.. هذا إذا تذكرنا حربنا المجيدة وهى حرب الاستنزاف.. فى بعض هذه الحروب كانت مصر فى الساحة منفردة مثل حرب ١٩٥٦ وحرب الاستنزاف.. وفى الحروب الأخرى ٤٨، ١٩٧٢ كان معها جزء يسير بسيط من قوة الأمة العربية.

ولاشك فى أنه فى فترة تصدر مصر لقيادة العالم العربى استطاعت مصر أن تزيح الاستعمار الغربى عن كل الأراضى العربية.. واستطاعت أن تهيىء الظروف التى مكنت من تحرير موارد وثروات الأمة العربية.. ومع كل ذلك الجهد لم يكن هناك من قدر جهدها ووزن ما قدمته من تضحيات سياسية واقتصادية فى سبيل ذلك.

فى هزيمة ١٩٦٧م. كانت العثرة من الشدة حتى أنها زلزلت الأمة العربية وبفضل من الله وعزيمة الرجال خاضت مصر حرب الاستنزاف ومنها إلى حرب أكتوبر المجيدة ١٩٧٣م.

كان لكل تلك الأحداث أثرها المباشر فى غنى الدول المصدرة للبترول خاصة بعد حرب ١٩٧٣م.. وحتى قبلها.. وفى أثناء فترة الصراع كانت تلك الدول تساند الدول العربية اقتصاديا.. غير أنه بإنجاز عمل أكتوبر التقطت الأجهزة السياسية والاقتصادية فى مصر أنفاسها ونظرت فى أمرها فرأت الديون قد أثقلتها.. وعرفت مصر طعم الحاجة بعد أن كانت فى بحبوحة.. وفى المقابل ورغم مساعدات دول البترول لدول المواجهة فقد كانت اقتصاديات دول البترول فى تنامى مضطرد مذهل.. يرجع فى سببه إلى حد كبير لتلك الحروب التى خاضتها مصر!!.

وحاول الرئيس السادات أن يطلب من دول البترول المساعدات التى توازن ميزانيته المرهقة المثقلة.. وكان العطاء وفقط على حد ما يسمح به كرم الأثرياء العرب شيوخ البترول.. وطلعت جرائد الكويت آنذاك بمانشيتات «وجاء الشحاذ» إلى آخره.. ومن ثم كان قرار السادات المسرحى باستعداده للذهاب إلى القدس والصلح مع قادة إسرائيل وفتح صفحة جديدة - على ما كان يأمل - فى العلاقات بين الشعبين العربى واليهودى.. إلى آخره.

لعل أهم ما يجب أن نشير إليه ونحلله ونحاول فهمه هو أثر كل تلك القفزات المفاجئة على الشعب المصرى المؤمن.. فالأمر العجيب المدهش أن مبادرة السلام تلك وجدت قبولاً لم يتوقعه أى عاقل علم بعضا من روح الشعب المصرى وقوميته وعروبته وإسلامه.. وتفهمه الكامل أيضا لعدالة قضية الفلسطينين.. وحساسية قضية القدس.

كان رد فعل ذلك الشعب الأصيل حقيقة سياسية لم يتم تحليلها بالشكل المناسب ولم تجد من يفند أسبابها.. مع أنها تمثل محصلة العديد من العوامل والمؤثرات فى سلامة حركة الأمة العربية كلها..

فالصراع العربى - الإسرائيلى له أسبابه العقائدية والتاريخية الغائرة الجذور والتى لا يمكن أن تهزها أية ظروف عارضة مثل تلك التى مر بها شعب مصر وقيادته والتى أفرزت تلك «الحقيقة السياسية».

لم تحلل مجموعة الصمود والتصدى والتى رفعت شعار الرفض لقرارات السادات لحقيقة هى أول من يعلمها.. بل اسقطت تلك المجموعة أسباب ذلك المنعطف فلم تتفهم الحالة النفسية للشعب المصرى.. وكان لذلك أثره فى تمرير تلك الوقفة - البغيضة - فى كامب ديفيد. والتى عانى الجميع من آثارها فيما بعد.. خاصة الشعب الفلسطينى الوحيد.. والبطل.

ولن ننسى ابداً دور الاعلام آنذاك حيث تحولت الهستريا إلى غواية مضللة.. فمنذ اللحظة الأولى وشعارات السلام الجميلة.. والانتهاء من المعاناة أصبح شعاراً ولافته لأمل مرتجى عند رافعية. سوف ترتفع الأجور.. وتنخفض الأسعار.. ويبيض وجه الرغيف الأسود..

وسوف تحل أزمة الإسكان.. وتختفى مشاكل المواصلات.. وسوف نعبر عنق الزجاجة...و...و..

وبدأت صناعة بيع الوهم للشعب المطحون.. الأمر الذى غلف بسحابات الأحلام الغامضة والوعود المبهمة.. والمستقبل المجهول..

وهكذا ضاعت الحقائق العلمية.. مع ذلك الزيف السياسى.

كان محور التضارب والشعارات هو فى أمر واحد.. أثر التطورات الاقتصادية والاجتماعية على دول المواجهة الفعلية مقابل تلك الآثار على دول البترول الفنية مع سياستها الموجهة.

ومن ثم كانت الحالة النفسية للشعب المصرى وجماهيره المطحونة منطقية ومتوقعة.

فهل اختلف سيناريو كامب ديفيد.. عن سيناريو غزو العراق؟!.

* * *

المدهش فى الأمر حقاً هو أن السيناريو هو هو.. فقط مع تغير المواقف والأدوار بالتبادل.. فهل لذلك معنى؟!!!

والأعجب أن نفس الأطراف لم تعى الدرس كاملا مع أنها كانت طرفا أساسيا فيه.. فلم تفهم أثر الاحساس بالغبن فى مواقف الأخوة خاصة فى مجال المصير والمصلحة الواحدة.

ربما كان من الطبيعى أن تتعود أطراف المنطقة على الخلاف لما بينهم من تفاوت - وهذا أيضا شيء منطقى.. غير أن الأمر سرعان ما بشرت بوادره بأزمة حادة.. وهو الأمر الأخطر.. وبدأت البوادر على وسائل الاعلام فى البلدين فسرعان ما اشتعلت الحرب الإعلامية.. وأعلنت مصادر الكويت أن العراق قد حرك حشوده فى مواجهة الكويت.. وعلى الفور أعلنت واشنطن أن باستطاعة الكويت أن يستظل بالقوة الأمريكية.

أخذ الرئيس حسنى مبارك زمام المبادرة وبدأ على الفور رحلة الوساطة المنهكة والتى قام بها بين العراق والكويت واسلعودية.

ولن أنسى ما قاله الرئيس مبارك على شاشات التلفاز عندما صرح فى تلك الفترة بما معناه.. «أن للعراق حق فى بعض ما يدعيه».

كانت سرعة التحرك المصرى تحمل فى طياتها إحساسها بالخطر - فسرعان ما توالت الاجتماعات والتى عقدها الرئيس فى الاسكندرية مع الملك حسين.. ثم مع طارق عزيز نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية العراقى.. والذى حضر اجتماعا ثنائيا بين الرئيس مبارك والملك حسين.

فى هذا الإجتماع عرض الرئيس مبارك مشروعاً من نقاط أربع وهى:

(١) استبعاد التهديد بالقيام بأى عمل عسكرى من طرف ضد آخر.

(٢) وقف الحملات الإعلامية المتبادلة بين أطراف الخلاف.

(٣) استعداد الرئيس مبارك لوساطة مباشرة.

(٤) التمهيد لعقد اتفاق بين ممثلى العراق والكويت لحل تلك الأزمة.

كان الإحساس بالخطر عند الرئيس مبارك إشارة لمعرفته لأثر الغبن ومعناه.. فالأمر بظروفه ليس بعيداً عن الذهن المصرى.

فى غضون الأيام الأخيرة من شهر يوليو ١٩٩٠م أكدت التقارير عن تحركات عسكرية عراقية على مناطق الحدود مع الكويت.. واذاعت محطات التليفزيون الأمريكية عدداً من التقارير المصورة والتى نشرتها الدول الغربية عن تحركات عسكرية عراقية.

وفى تلك الأثناء أعلنت الحكومة الأمريكية عن إجراءات مناورات عسكرية مشتركة مع دولة الإمارات العربية فى منطقة الخليج العربى.

وفى نفس الوقت تناولت وكالات الأبناء العالمية معلومات عن إرسال قطع بحرية ومعدات عسكرية إلى منطقة الخليج وقالت وزارة الدفاع الإمريكية تبريرا لذلك أنها من أجل إجراء مناورات مشتركة مع دولة الإمارات.

كانت هناك إذاً بوادر أزمة حقيقية بين البلدين الشقيقين.

سارع الرئيس مبارك والملك فهد بإجراء عدد من الاتصالات السريعة مع أطراف الأزمة.. وسرعان ما أعلنت وكالات الأنباء خبراً عن زيارة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس دولة الإمارات العربية إلى القاهرة.

كان ما يبدو على السطح حرص جميع الأطراف على تجاوز الأزمة.

وفى صباح الثلاثاء ٣١ يوليو ١٩٩٠ بدأت المباحثات الرسمية بين الرئيس حسنى مبارك والشيخ زايد بن سلطان واستغرقت المباحثات ثلاثة أيام.. تناولت تلك المباحثات الأزمة العراقية الكويتية والجهود التى بذلها الرئيس مبارك والملك فهد لاحتواء الأزمة.. كما تناولت الدور العربى فى المرحلة المقبلة!!!.

ووسائل الدعم العربى.. ثم الإعداد لمؤتمر قمة عربى عاجل يعقد بالقاهرة. فى صباح نفس اليوم استقبلت جده الوفدين العراقى والكويتى لبحث أوجه الخلاف بين الجانبين والتى جاءت نتيجة لمساعى الرئيسى حسنى والملك فهد..

كانت الأحداث تتوالى بسرعة.. والأنفاس تتسارع.. وضربات القلب تعلو وتقوى..

فى جده وفى مساء الثلاثاء بدأ الاجتماع المغلق بين وفدى العراق والكويت برئاسة عزة إبراهيم نائب رئيس مجلس قيادة الثورة العراقية - والشيخ العبد الله ولى عهد الكويت.. وقد حضر الاجتماع وافتتطحه الملك فهد وأعرب عن أمله فى تسوية الخلافات.. ثم لم يحضر الاجتماعات!!.

وفى القاهرة فى الأربعاء الموافق أول أغسطس ١٩٩٠م افتتح الرئيس مبارك المؤتمر الإسلامى التاسع عشر لوزراء خارجية الدول الإسلامية والذى يعقد لأول مرة بالقاهرة منذ إنشاء منظمة المؤتمر الإسلامى وتوالت تصريحات السادة وزراء الخارجية عن التضامن والتعاون.. إلى آخره.

فى نفس الوقت كان الرئيس مبارك يواصل مع ضيفه سمو الشيخ زايد مباحثتيهما بالأسكندرية وظل الرئيسان على اتصال مستمر لمعظم العواصم العربية لاتخاذ ما يلزم نحو الأمة.

وفجأة حدث الانفجار.

* * *

مؤتمر جده :

كان هذا المؤتمر مفصل الحوادث.. فالأمور على سرعتها وتواليها كانت تشير إلى نوع من الخطو يهدد الجميع.. كان الاحساس عاما.. خاصة للباحث الدارس لتصرفات رؤساء الدول العربية.. والتى تعكس بشكل أو بآخر خفايا السياسة وأسرارها.. انهار ذلك المؤتمر.. وسرعان ما طفا على السطح سؤال عن المستفاد من تعقيدات المواقف فى ذلك المؤتمر وانهياره؟!

العراق هدفه واضح.. وحقه ظاهر.. والتنازل عن ذلك الحق كان أول الطريق لتحجيمه وتشكيله وتسييسه.. هذا بعد كل ما قدم من أرواح وأموال.. والأمر محوره الأساسى ينحصر فى مال هو حق للعراق.

بعد أن أنهارت اقتصادياته وازدادت ديونه.. ومنفذ على الخليج طالما طالب به منذ استقلاله فهذا حقه التاريخى والذى سلبه منه الإنجليز فقط لجعل تلك النقطة محور صراع كى يتيح لتلك القوات الأجنبية التدخل فى تلك المنطقة..

هل يعقل أن العراق صاحب المنفذ البحرى البصرة التاريخى كان يصدر بتروله عن طريق أنابيب تمر عبر تركيا - وعبر السعودية.. وأخرى قديمة عبر سوريا لا منفذ له على الخليج؟!.

هذه المطالب لم تكن تعنى الكثير بالنسبة للكويت.. والكويت أول من يعلم أن العراق لن يدفع لها مديوناتها عن حربه من أجلها ومن أجل عرب المشرق كلهم..

أما مطلب العراق باستئجار جزيرة بوبيان فهو لصالح الأطراف كلها حيث ستفى بآمال العراق من جهة ومن أخرى فإنها تجعل حماية العراق للكويت امراً مقضياً.. استراتيجيا واقتصاديا.

من مستلزمات السياسة أن تعلم الأطراف الحالة النفسية للأطراف الأخرى.. ومطالب العراق بعد الحرب مع أهميتها أقل دون شك مما يستحقه بعد ما قدمه من أجلنا جميعا..

غير أن الأمر فى حقيقته لم يكن وقفا على الأطراف العربية فى أزمة عربية فالواضح أن هناك جهات أخرى كانت مصلحتها فى اشتعال الموقف..

وانفجار المنطقة.. والتحركات الأمريكية السريعة أشرنا إليها.. وموقف إنجلترا على الصعيد السياسى تجاه العراق كان واضحاً ظاهراً بعد نهاية حرب الخليج الأولى.. هذه الحقيقة تلقى أضواء على حقيقة استقلالية بعض هذه الدول العربية.

بعد توقف الحرب العراقية الإيرانية والتى أهدت الاقتصاد العالمى شرقه وغربه مئات المليارات من الدولارات كان لابد من استنزاف أكبر.. فثروة المنطقة مازالت كبيرة.. والاحتياجات الطارئة للمتغيرات الدولية فى شرق أوروبا تستدعى أموالا أكثر.. كما أنه ولابد من انتهاز الفرصة المناسبة لإجهاض القوة العراقية المتنامية والتى أصبحت تبشر بتحديد حجم التطلعات الإسرائيلية فى المنطقة.. بعد تحجيم الدور المصرى.. ومن ثم كان لابد من انهيار المحادثات العربية - العربية..

خاصة بعد أن بلغت ميزان العجز الأمريكى لعام ١٩٩٠م ما يزيد عن خمسة آلاف مليون دولار وأصبحت أمريكا أكثر دولة مديونة فى العالم[١].

ما تزال أسرار ذلك اللقاء فى جدة غير كاملة.. مع أن المصادر الدبلوماسية الغربية كشفت أن سبب انهيار تلك المحادثات تتمثل فى مطالبة العراق باستئجار جزيرة بوبيان لمدة ٩٩ عاما.. وقد رفضت الكويت ذلك رفضا قاطعاً.

ومن مصادر أخرى فقد طالب العراق بالتنازل رسميا عن مديوناته للعراق حرصاً على قيمة الدينار العراقى الذى انهار من جراء حربه الأولى.. فرفضت الكويت الموافقة الرسمية على ذلك مع استعدادها لعدم المطالبة بتلك الديون!!!!

لترسيخ التباين بين الطرفين الشقيقين وصفت وكالة اليونانيند برس أن المشكلة بين الدولتين تكمن فى أن الكويت تشعر أن «المسدس العراقى» مصوب نحو رأسها.. وأن هذا الاحساس قد خلق جواً من التوتر!!!

---

(١) وأيضاً طبقاً لتقرير أخير من السفارة الأمريكية بالقاهرة فإن عجز الميزانية التجارية الخارجية قد بلغ عام (٨٨- ٨٩) ٧٥٣٣ مليون دولار.

الأمر إذا خارج عن نطاق الحسابات والمنطق.. ويكمن أساساً فى السياسات والأنفس.

السبب الرئيسى الذى جعل الكويت ينتهج هذا المنهج المتصلب تجاه العراق البطل.. الفقير يكمن أولاً وأخيراً فى اطمئنان الكويت الراسخ أن مسألة أمنها هو أمر استراتيجى بحت.. متفق عليه.. وهو دون شك ثمن تنفيذ وتمرير الاستراتيجية الأمريكية فى المنطقة.. وليس بخاف على الأذهان والواقع - حتى يومنا - موقف الكويت فى تنفيذ سياسة صندوق النقد الدولى تجاه مديونات المنطقة.. خاصة تجاه مصر.

حيث أن الأوراق جميعها - أساساً - بيد الاستراتيجية الأمريكية فمن حقها أن تخرج الأحداث بالشكل الذى يخدم أهدافها أولاً وأخيراً.

وليس من المدهش أن نقرر أن أمريكا لو رأت أن تجهض رأى العراق فى غزو العراق من الأساس لعملت على ذلك واستطاعت فى أسابيع قليلة.

كان السيناريو يتطلب تهيئة الجو النفسى للاخراج الأمريكى.

فى الأيام الأخيرة من شهر يوليو ١٩٩٠م اذاعت وكالات الأنباء العالمية أن الولايات المتحدة تدرس بجدية إضافة دولة العراق إلى قائمة الدول الإرهابية.. كما طلب ريتشارد بلوتشر المتحدث باسم وزارة الخارجية الأمريكية بوضع رقابة محكمة على صادرات التكنولوجيا الأمريكية إلى عدد من الدول ومن بينها العراق.. وفى نفس الوقت وافق مجلس الشيوخ الأمريكى على تعديل مشروع يقضى بخظر القروض الحكومية ومبيعات الأسلحة والتكنولوجيا المتطورة والحساسة إلى دولة العراق.!!

من ناحية أخرى تناولت وكالات الأنباء العالمية ما صرح به متحدث رسمى باسم البيت الأبيض الأمريكى بأن البيت الأبيض يدرس بجدية بالغة سبل الرد على العراق بعد تزايد التوتر فى منطقة الخليج العربى.

أما وزير العلوم الإسرائيلى فقد هدد بالرد على العراق وتهديدات الرئيس العراقى صدام حسين مشيراً إلى تملك العراق للأسلحة الكيماوية.

أما أوروبا ومخابرات أمريكا فقد نشطت فى تعقب الجهود العراقية العسكرية وتعالت الإدعاءات البريطانية بأن العراق يصنع القنبلة الذرية تارة.. وتارة أخرى بأنه يصنع مدفعاً ضخماً مداه آلاف الأميال..!!

وفى أحيان أخرى قادر على إطلاق الأقمار الصناعية!!!

هكذا تناقلت وكالات الأنباء... وفجأة.

فهل كان كل ذلك غائبا عن أقمار التجسس العالمية... وحتى عن رصد التحركات العراقية العسكرية طوال الأزمة حتى نفاجأ نحن العرب - أصحاب الأمر كله - بالحوادث!!!.

حقيقة الأمر أن السيناريو كان يتحرك تبعا لهوى الغرب وأمريكا.. وأيضا تحت رصدهما.. بل وتوجيههما لقوى النزاع.

كان الكويت يتخذ من المواقف ما يراه معتمداً على الغرب الحبيب.. مخزن الودائع البترولية.. وحامية حمى العربان.!!.

وكان الموقف العراقى فى منتهى الحرج والضيق.. فالتراجع والفشل السياسى يعنى التحجيم والتشكيل تبعا لأهواء تلك القوى.. ولا قيمة حينئذ لقوة العراق العسكرية الضخمة مع انهيار اقتصادياته بعد حربه الضروس دفاعا عن الخليج العربى.. كما أن تحجيم العراق لا يعنى فى الحسابات الاستراتيجية الفعلية سوى هزيمته الحقيقية كدولة رائدة فى المنطقة.. كما يعنى ضياع كل أمواله وأرواح شبابه من أجل لا شىء.. بل من أجل الهزيمة معناً وروحاً.. من ناحية أخرى فإن حق العراق عن طريق الكويت يحمل فى طياته أخطاراً مؤكدة منها التصادم المباشر مع أعتى القوى العالمية أمريكا والغرب كله - فهو يمثل - كما يعلم طالب الابتدائية - اعتداء على شريان الحياة الاقتصادية لتلك القوى العالمية..

تلك القوى هى التى سوف تكسب فى كل الأحوال إذاً.. ستكسب فى حالة سكوت العراق.. وفى حالة تحركه.

استراتيجية عالية المستوى - دقيقة التخطيط.. معقدة الجوانب.. ومع ذلك فهى مضمونة للجانب الأمريكى.

أدوات ومنفذى تلك الاستراتيجية البغيضة يجب كشفهم.. فمن هم؟!

هؤلاء هم فى الحقيقة أعداء الأمة العربية المنكوبة.. وهؤلاء هم مزلزلى أركانها..

وكان على الرئيس صدام أن يختار..

نفس الموقف ونفس السياسة أعدتها الاستراتيجية الأمريكية بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣م وبعد انتصار العرب أيضا.. ضيق الأغنياء على المحاربين الفقراء.. فاختار السادات أسهل الطرق.. وباع قضية العرب.. رداً على خيانة الأغنياء.. فلم يجد حتى ثمنا من أمريكا.. وتم تحجيم الدور المصرى فى المنطقة.. ودخلت القضية الفلسطينية فى متاهات.. وخسر العرب جميعاً.

غير أن الوضع في أزمة الخليج كان أشد وأكثر صعوبة دون شك.. فقد فوجىء العالم قبلها وبأشهر قليلة بمتغيرات دولية فى منتهى الأهمية أدت إلى انهيار الأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى روسيا وأوروبا الشرقية - ووصل الأمر حتى أن الاقتصاد الغربى قد فرض على الاتحاد السوفيتى ماشاء من شروط سياسة.. وتوالت التغيرات الاجتماعية الحتمية لكل ذلك.. وكان واضحاً بمعنى الحسابات خسارة العراق المؤيدين أساسيين فى مسيرته.

تناول الحقيقة دائما صعب وخطير ومخيف.. وتلك مسئولية القيادة ولابد من حتمية التوجه وضرورة الاختيار.

واختار البطل الطريق الصعب.

(٦) غزو الكويت - الخيار الحتمى

إذا كان حقيقة لكل حادث حديث.. فإن انفجار الخليج الأخير كان من النوع الذى يفرض ويوجب الحديث عن مواقع وفواصل الصراع الاستراتيجى فى منطقتنا العربية - وتفضح فى نفس الوقت مواقف الأخوة تجاه بعضهم البعض.

وعلى سبيل الحصر فإن مواقع الصراع الاستراتيجى فى منطقتنا العربية هى: قناة السويس.. خليج عدن.. مضيق هرمز.. الخليج العربى.. خليج العقبة.

فى عام ١٩٥٦ أممت مصر قناة السويس.. فقامت على الفور حرب العدوان الثلاثى فى نفس العام وتفاعلت العوامل حتى استقر لمصر فى النهاية حقها التاريخى فى قناة السويس.

وعندما أعلن الرئيس جمال عبد الناصر قراره باغلاق خليج العقبة فى أزمة ١٩٦٧م قامت إسرائيل بالحرب رغما عن تراجع عبد الناصر عن قراراته العسكرية فى منطقة سيناء.. فقد اعتبرت إسرائيل قرار الرئيس جمال بمثابة اعلان الحرب عليها.. ولم يمكن كسب قضية ١٩٦٧ سياسياً من أجل تلك السقطة.. ولم يمكن حل نتائج ١٩٦٧ إلا بحرب ١٩٧٣ المجيدة.

وفى حرب العراق - إيران هددت إيران وقامت بتلغيم الخليج العربى فقام الأسطول الأمريكى بتطهير الخليج بعد جهد جهيد.. ثم رفع اعلامه على ناقلات البترول الكويتية حماية لها وتمهيداً لأمنها.

وفى أزمة الخليج الأخيرة انتشرت شائعات عن قيام العراق بنشر صواريخه على أرض السودان تهديداً للسد العالى.. فقال الرئيس مبارك رداً على سؤال بذلك الشأن ما مضمونه: أنه لا يعرف الهزار وسوف يقوم بتحطيم تلك الصواريخ ساعة نشرها.

ذكرنا تلك الأمثلة إثباتا وتأكيداً أن الحرب فى معناها قد تبدأ دون اطلاق طلقة على أرض الواقع.. كما فى صورة عمل مخل بالتوازن الاستراتيجى بين الدول المتنافسة.. كذلك كان موقف الدول الخليجية من العراق وحقوقه بعد حربه المريرة دفاعاً عن الجناح الشرقى أو البوابة الشرقية للأمة العربية كما سماها أهل الصحافة.

الجميع يعلم أثقال الحروب وكوادرها.. مهما اختلفت أهدافها أو تفوعت أماكنها.. فلابد من فواصل ومتغيرات حدودية وإقليمية مع أهداف اقتصادية واستراتيجية محددة.. وإلا لما كانت للحروب معنى أو هدف.

حروب إسرائيل المتتالية مع جيرانها العرب توضح كذلك.. والأمر كذلك ينطبق على معظم الحروب دون شك.. وفى حالة حرب الخليج فمن المؤكد ظهور حقبة زمنية جديدة فوق خريطة عربية جديدة تتوازن عليها وتتوافق المصالح الاقتصادية لأطراف الأزمة مع نتيجة تلك الحرب.

ومع الحقيقة الثابتة فى أن شعوب الوطن العربى جميعا أخوة رغم حملات التشكيك والأعلام بين البلاد المتنافسة.. فحب المصرى للسعودى لا يقل عن حبه للعراقى والجزائرى.. هذا دون أدنى شك.. فإن تشخيص حالة الانفصال والاختلاف العربى يجب تقييمها وتحليلها لمعرفة أسبابها ومن ثم مجابهتها ومناولتها المناولة الصحيحة.. هى دون شك فى الأنظمة المتباينة.. وتلك كارثة الكوارث..

فقد رأت بعض هذه الأنظمة - عن مصلحة ذاتية - بوضع البيض كله فى سلة حلفاء أغراب.. واعتمادهم الكلى على تأييدهم.. ومن ثم لم يعد المجال بعيداً عن أهداف وأغراض هؤلاء الأغراب الطامعين.

والأهداف الأساسية لهؤلاء الأطراف الغرباء لا يبعد عن بقاء الساحة العربية سوقا للسلع الاستهلاكية الأجنبية.. اقتصادية وحربية... مع محاولات استنزاف المنطقة وخيراتها البترول مثلا.

إن توالى الأزمات على المنطقة بين أخوة فى الدين واللغة والأصل تظهر وكأن تلك الاستراتيجية العالمية يراد لها الاستمرار على مدى عمر المخزون العربى من البترول.. وآخر فلس للعرب فى بنوك أمريكا والغرب.. فمن المحرك لكل تلك الأحداث.؟!

وحيث أن السياسة دائما مزدوجة الجنسية فكم كنت أتمنى أن يتساءل حكام المشرق عن من سوف يدافع عن شرفهم وعروشهم بعد موقفهم من العراق؟!

.. وهكذا تتداخل الأهداف وتتعارض النيات.

مع وضوح كل تلك الوقائع والحقيقة.. فإن الحق والعدل يقران بأن حكم المحللين والمؤرخين للأحداث شيء. وقرار القيادة والمسئولية شيء آخر تماماً.. فلم يتعايش هؤلاء المحللون مع الأحداث ولم يتحملوا المسئولية كما تحملها أصحابها.. ولم يوزنونها بميزان أصحاب الأمر والمصلحة.

كل من يريد العدل يجب عليه أن يضع نفسه فى مكان ومسئولية هؤلاء الرؤساء وأن يقدر التقدير الصحيح لتلك الضغوط التى تعرضوا لها.. مع تقدير ظروفهم الخاصة والعامة.. ثم يصل لقرار لن يصل بعد ذلك كله للصحة إلا لو علم بحقيقة الأسرار السياسية والاقتصادية والعسكرية لصاحب الأمر - هنا يمكن أن نقول أن تلك الأحكام قد جانب الحقيقة أو قاربتها.

فى حالة العراق كان الرئيس العراقى فى مواجهة امتحان كل نتائجه سوداء - بل وليس الأمر بيده.. فبعد أن صرف تلك البلايين فى حربه ضد الدعوة الخمينية وأقام قوة عسكرية وصناعية حربية تكون له ذخراً وقوة يعتمد عليها.. وبعد أن فقد نصف مليون شهيد ونصف مليون جريح على مدى أكثر من ثمانية أعوام.. كان كل ذلك على حساب شعبه أول ما كانت.. ولم يذق الشعب العراقى الغنى طعم الغنى.. فاتورة عجيبة تحملها المخلصون وحدهم.. ومن غيرهم؟! بعد ذلك كله وجد الرجل نفسه أمام مفترق للطرق.. كلها شائكة.. وكلها مع ذلك تتفق على النيل منه وتحجيمه وتخديمه.. وعندما طالب بحقه تعقدت الأمور.. فلو تقبل الضغوط الاقتصادية من جانب دول البترول.. العربية!!.. فإن تحجيمه وتشكيله أمر محتوم..

ولو قام بحرب الكويت فإن رد الفعل العالمى والعربى أمر مؤكد كذلك. إن حرب العزبى لأخيه العربى أمر غير مقبول سياسيا واخلاقياً.. لكن ألا يعتبر موقف هذه الدول البترولية من العراق بمثابة إعلان للحرب ضده؟!

والسؤال لأهل السياسة والاستراتيجية.

قامت أمريكا بغزو (بنما) ونيكاراجوا.. وجرينادا وكوبا.. وقامت بريطانيا بغزو الفوكلاند - وقام الاتحاد السوفيتى بغزو افغانستان.. وفيتنام بغزو كمبوديا.. كما

غزت إسرائيل الدول العربية الثلاث المجاورة لها.. كل تلك الحروب قامت لأسباب أقل وضوحاً من تلك فى حالة العراق مع الكويت.. وفى كل تلك الأحوال لم يجرؤ أحد على جرح أمريكا وانجلترا وحتى إسرائيل.

من جهة أخرى فإن حرب العراق للكويت يحمل فى طياته أخطاراً عالمية مؤكدة.. ليس العراق المديون المنهك اقتصاديا بقادر عليها.. فالواضح خاصة بعد التطورات السياسية العالمية الأخيرة أن السياسة الأمريكية بنت استراتيجيتها على أمر بسيط هو حقها فى أن يمتد نفوذها فى أنحاء العالم دون منافس أو معارض.. كما أن الخليج بالذات حساس لأمريكا والغرب عامة.. وغزو العراق للكويت يمثل اختباراً لتلك الزعامة الوحيدة المنفردة.. وممن؟.. من العراق المثقل بالديون المرهق الكاهل.

نفس المفهوم البريطانى والذى يرجع إلى الستينيات حين أعلن الانجليز أن هناك فراغا فى الخليج لابد أن يملىء.. ولا جدال أن نفوذ أمريكا وملئه لذلك الفراغ عن طريق تأييدها ونفوذها على الحكومات الموالية للغرب هو الذى أوصل الأمور إلى ذلك المفترق المحتوم.

ومع ذلك فإن احتمال الحرب مع أمريكا وحساباته وتخيلاته شيء مخيف ونتائجه غير مضمونة.

وكان لابد من اختيار للحركة.. تلك حتمية التاريخ..

حسب صدام حساباته وقام يوم الخميس الثانى من أغسطس ١٩٩٠ بغزو الكويت فى حرب سريعة خاطفة لم تستمر إلا لسويعات قليلة.. فالرجل لم يكن يملك غير ذلك سوى المذلة والتحجيم.. وبمن؟.. ولمن؟؟ وسرعان ما تهاون كالفراش قصر الأمير.. والمبانى الهامة ووزارة الاعلام ومبنى الاذاعة والتليفزيون.. وسرعان ما تم اغلاق مطار الكويت الحربى - كان الهجوم فجراً.. وفى الساعة الثامنة صباحاً تم الاستيلاء على الكويت.

وابتدأت الحسابات للحرب العراقية.. والتى دفع لها العراق دفعاً.

* * *

ليست الحرب نزهة دون حساب لردود الأفعال الإقليمية والعربية الأمر الذى يحسب بدقة بالغة.. مع مراعاة الهدف المنشود على الدوام.

بداية يطفو على الأحداث سؤال هام هو هل كانت أمريكا وبأقمارها التجسسية التى تجوب الفضاء وبجهاز استخبارها القوى فى غفلة عما يدور ولم تضع فى حساباتها دوران الأحداث على هذا النحو؟!

بالقطع كانت أمريكا تعلم بتحركات العراق.. وكانت حساباتها تبعا للمنطق.. تضع احتمالات لحدوث غزو الكويت.. لكن تلك الحسابات اسقطت ذلك الاحتمال.. وراهنت على خضوع العراق وتسيبه.. وساعد على ذلك التغيرات العالمية التى سبقت الأحداث وسياسة البيروسترويكا والتى أعلنتها روسيا.. وبذلك فقد العراق الظهر القوى الذى كانت تعتمد عليه.. ولم يبق على السطح غير أمريكا ذاتها.. فمن يجرؤ على منازلتها؟!.

يزيد من قوة ذلك الاحتمال دون شك الأعوام الثمانية من الحرب الضروس.

- والتى لم تنته بصورة رسمية- بين العراق وايران.

والدراسات الاقتصادية كانت تشير إلى الشك فى قدرة العراق على التحرك الدولى لأمد طويل فى صراع عالمى.. مع المراهنة على الحالة النفسية للجيوش العراقية والتى أرهقتها سنوات الحرب الضروس.

لكل تلك الأسباب ولغيرها فقد فوجئت أمريكا بتحرك العراق وغزوه الكويت.. ويؤيد ذلك أيضا رد الفعل العصبى الجانح الأمريكى لما تلى غزو العراق من أحداث.. غير أن ذلك لا يعنى عدم وجود استعدادات أمريكية طارئة لما حدث كله.. خاصة أن عملية الغزو من ناحية القدرة مؤكدة.. وبأقل التكلفة.. فالمنطقة واحدة.. والكويت

كانت جزءا من محافظة البصرة فلا مشاكل فنية أو عسكرية تتعلق بخطوط الامداد وتحرك القوات وسرعة رصد الأهداف.. إلى آخره.(١)

يفرض تسلسل الحوادث سؤال هام يوضح مواقف ونيات الأطراف المتنافرة وهو هل كان فى نية الطرف العراقى الوصول إلى منابع البترول فى الامارات؟!.. تلك الحجة التى رفعتها السعودية وأمريكا لتبرير التجميع الدولى الأمريكى ضد العراق.(٢)

ونستطيع أن نؤكد أن ذلك الاحتمال لم يطرأ على القيادة العراقية وذلك لأسباب عديدة تحول دون تنفيذه.. عسكرية.. وسياسية.. واقتصادية.. وحتى استراتيجية.. منها على سبيل المثال:

(١) غزو العراق للامارات يحتم من الناحية العسكرية انتهاك حرمة الأراضى السعودية.. بل ويحتم على العراق كذلك احتلال منطقة البترول الهامة فى المنطقة الشرقية للسعودية.. الأمر الذى سوف ينطبع نفسيا علي جميع المسلمين سلبيا.. كما أن لدى المملكة العربية السعودية من العتاد الحربى ما يفوق جميع الدول العربية مجتمعة هذا إذا وضعنا فى الحسبان انفاقها العسكرى والذى يكاد يتوازى

---

(١) عقد الرئيس الأمريكى فى الأيام الأولى من غزو الكويت مؤتمرا صحفيا أعلن فيه توقيعه أمراً تنفيذياً يقضى بتجميد الممتلكات العراقية فى أمريكا ويحظر معها أية معاملات تجارية.. وأيضا قراراً بتجميد ممتلكات الكويت بحجة ضمانها. وقال رداً على سؤال فيما يعتقده من أن السعودية والإمارات مهدده.. قال: أعتقد أن العربية السعودية شديدة القلق ويودى أن أصغى إلى كبار مسئولينا هنا ومدير إستخباراتنا وغيرهم فيما يتعلق بالمدلولات العالمية لهذا العمل الغير مشروع. وقال فى سؤال: وهل فوجئت؟! قال: لم افاجأ تماما لأن لدينا استخبارات حسنة وقد اشعرتنى استخباراتنا بالقلق لبعض الوقت هنا بصدد الأجراء الذى قد يتخذ.

(٢) يقول جيمس اكينز السفير الأمريكى الاسبق فى المملكة العربية السعودية فى مقال نشر فى جريدة الواشنطن بوست بتاريخ ١٩٩٠/٩/١٢م: «إننى لست المراقب الوحيد الذى يعرف وعلى اقتناع أن صدام حسين لم يكن ينوى مهاجة المملكة العربية السعودية فى أوائل شهر أغسطس ١٩٩٠م لأن ذلك يعد تصرفا غير معقول وصدام حسين ليس رجلا غير معقول»

وشهد شاهد منهم..

مع جميع ما تنفقه الدول العربية بعد أن نضيف إليها إسرائيل أيضا.. وهكذا فلن تكون العملية مجرد لقمة سائغة أمام أى طموح عراقى.. وأيضا لا يجب علينا أن نتغافل عن احتمالات مساعدة الولايات المتحدة آنذاك لأقصى حد ولأبعد مدى. الأمر الذى يعد رادعاً كافياً. على المستوى السياسى تأكد كل ذلك.. فقد بعث الرئيس صدام حسين برسالة إلى الرئيس الأمريكى جورج بوش يؤكد فيه أن العراق لا تفكر فى غزو السعودية.. وذلك فى الأيام الأولى للغزو :

وكان رد الرئيس الأمريكى بتصريح صرح فيه بأنه : لا يمكنه الاعتماد على تصريحات الرئيس العراقى صدام حسين.

(٢) غزو العراق للامارات سوف ينتج عنه صعوبات جمة للقيادة العراقية تتمثل فى طول خطوط الامدادات لعدة مئات من الكليو مترات والتى تجعل من السهل ضرب تلك الخطوط بأية قوات محلية أو أجنبية.. فالمسافة بين الكويت وأبو ظبى عاصمة الامارات تقدر بحوالى ١٢٠٠كم بالطريق البرى أى تزيد عن المسافة بين القاهرة وأسوان كثيرا.. فالأمر الذى لاشك فيه أن هناك صعوبات عديدة جمة سوف تنشأ للغزو عبر تلك المساحات الشاسعة.. لجيش مديون.

(٣) سوف ينشأ عن ذلك الوضع صعوبات قيادية تجعل حسابات الخسارة والكسبان بين بين.. والأمر سوف يكون خطراً وبالغ الحرج للقيادة المركزية فى العراق وقيادة المعركة فى الامارات.. يفصل بينهما مئات الكيلو مترات.، فالتشويش والتجسس وقطع الاتصالات وضرب خطوط الامداد والتموين أمر يسهل على الأمريكان أصحاب الخبرة والتكنولوجيا.. وسوف يجعل أمر القوات الرئيسية على أرض المعركة بالغ الحرج.

(٤) على النقيض أن تكون أرض المعركة على بعد عشرات الكليو مترات من العراق أمر يسهل كثيرا من أساسيات المعركة ولوازمها.. ويختلف الأمر ويتعقد فى حاله وضع الامارات كهدف نهائى للقوات العراقية.

(٥) لا يجب علينا أن نغفل عن الوضع الاقتصادى اللازم للمعركة وآثارها وما يترتب عليها.. الوضع بالنسبة للكويت لم يسبب قلقلا على الاطلاق بل سوف يتحسن عند ضم الكويت.. والأمر على العكس تماما إذا كانت الامارات هى الهدف النهائى.. ففى الحالة الثانية يستلزم الأمر أموالاً كثيرة للنفقة على الجيوش وأعبائها.. من قبل دولة مثقلة بالديون الخرافية.

(٦) قد لا يستلزم الأمر بالنسبة للكويت تحركا عسكريا عراقيا أساسيا يخل بالتوازن الاستراتيجى بين العراق وإيران على جبهة عريضة واسعة فقد كان هناك ما يقرب من ٣٠ فرقة عسكرية كاملة من اكفأ القوات العراقية.. وجودها أمر ضرورى وحيوى لسلامة العراق.. وفى حالة سحبها لغزو الإمارات فإن من حق إيران الحرب.. فالوضع بين الدولتين كان وقفا لاطلاق النار.. ولم يتم صلح نهائى آنذاك.

(٧) رد الفعل العالمى مؤكد فى الحالتين.. وعلى درجة مختلفة.

ففى حالة الكويت ليس على القوى العالمية إلا أن تحسب حساباتها لاحتمال المواجهة مع العراق الذى سوف يزداد قوة بتروليا وعسكريا حيث يشرف على الخليج.. أما فى الحالة الثانية فإن المواجهة المباشرة أمر أكثر احتمالاً بل مؤكدا مع تأثر قوة العراق ماليا وعسكريا بشكل كبير.. وعليه فمن الاسلم - عراقيا.. ألا يدخل مستنقع الإمارات.

(٨) رد الفعل العربى والإسلامى أمر قابل للمحاورة والتفهم وحقوق العراق فى الكويت قابلة قطعا للقبول والتصديق.. فجذورها ثابتة.. وخلق الكويت يرجع للستينات فقط لاغير.. أما فى حالة انتهاك حرمة السعودية فالأمر مختلف تماما.. والثقل كله سوف يصبح سعوديا بكل تأكيد مع مخاطر وصعوبات ذلك الاحتمال.

(٩) ثم ألا تكفى الكويت لتحقيق الهدف الاستراتيجى العراقى؟!.. بالقطع هى تكفى وتزيد.. ومن ثم فعلام المخاطرة مع كوارثها المحسوسة الملموسة..

تكفى هذه الحسابات الأولية لإقناع أية قيادة.. وأية سياسة وأى اعلام أن العراق لم يفكر اطلاقا فى غزو السعودية ولا الإمارات.

ومع ذلك كان ذلك الإدعاء هو الأساس الذى رفعته أمريكا.. بل والعالم كله لحماية السعودية وآبار الخليج.. والدول الإسلامية لحماية الأراضى المقدسة.. وصاحب ذلك كله حملة دعائية شكلت النظرة النفسية للإحداث تجاه أهداف محركيها ونظرتهم للأمور.. مع أن أدنى جهد تحليلى وعقلى يستطيع أن يجزم بضعف الحجة.. ووهن الإدعاء الذى رفعه العالم ضد صدام حسين فى الأيام الأولى من الصراع.. على أن هذا ميزة القوة.. تستطيع تشكيل الأحداث لخدمة أهدافها على مختلف الظروف.

مما يجزم بقوة ذلك المنطق أن أحداً من المحللين لم يتناوله.. مع أنه من أساسيات أى بحث أو تحليل لتلك الأزمة المعقدة.

لإسقاط كل تلك الحقائق الواضحة كان الاعلام جاهزاً ومستعداً.. ومن ثم فقد ذكر مسعود ناصر الصباح سفير الكويت فى واشنطن أن قادة العراق والأردن واليمن ومنظمة التحرير الفلسطينية تآمروا على تقسيم شبه الجزيرة العربية قبل احتلال العراق للكويت!!!

وأكد ذلك الادعاء تقرير بريطانى اذيع فى لندن!!! تحدث عن مؤامرة تقسيم السعودية.. واوضح السفير الكويتى أنه وفقا لهذه الخطة التى تم الكشف عن بعض تفاصيلها فإن منظمة التحرير الفلسطينية كانت متضمنة قاعدة دائمة لها حيث يوجد ٣٠٠ ألف فلسطينى فى الكويت كما أن العراق كان سيستولى على الآبار البترولية بشرق السعودية.. والأردن يحتل مكة والمدينة!!. واليمن بقية المناطق!!!

وذكر السفير الكويتى أن الملك حسين عاهل الأردن طلب إلى مجلس الوزراء بتلقيبه بالشريف قبل اسبوع من الغزو العراقى للكويت.. وهو ما يعنى أنه من سلالة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأنه عليه أن يطالب بمكة والمدينة.

وأضاف الصباح :- إن الولايات المتحدة علمت بالمؤامرة وأن التحرك الأمريكى السريع هو الذى أوقف الغزو العراقى للسعودية.

ولا تعليق.. على الأكاذيب.

مع أن الحقيقة دائما.. لها ثمنها..

كان موقف العراق الحقيقى يستلزم السماح للأطراف المناهضة عربيا ودولياً بالتجمع مع ضبط النفس لأقصى حد وعدم توجيه إية ضربة وقائية لهم.. وإلا فإنه سوف يلمس المحظور وهي السعودية ضرورة.. وهكذا.. فى الأسبوع الأول من الأزمة سرعان ما حشدت أمريكا وحلفائها اساطيلهم وطائراتهم على تعدد أنواعها وأصنافها.. ونقل القوات البرية بعد ذلك - دون اعتراض - وهكذا اثبت العراق أنه يلتزم موقف الدفاع فى معركته الأساسية.

ولا يمنع ذلك ولا ينفيه أن يهدد العراق فى تلك الأيام الحادة من الأزمة بآلاف من الرهائن من مختلف الجنسيات.. وبقدرته على إصابة الأهداف البترولية ومنابع النفط ومنصات الشحن ومعامل التكرير بقواعد الصواريخ ومقذوفات الطائرات وغيرها.. كما لوح العراق أن الأمر قد يتعدى الى الحرب الكيميائية.. ثم يكفى تلغيم منابع النفط فى الكويت والتى توقف ضخها حيث أنها تمثل الهدف الاستراتيجي الثابت لأمريكا وغيرها.. الأمر الذى يؤكد موقف العراق الدفاعي.

من جهة أخرى فقد جمع العراق قوة مدرعة كبيرة فى الكويت.. الأمر الذى حتم على الأطراف الأخرى تجميع قوى هائلة كانت ولابد على حساب عامل الزمن فطالت فترة الصراع البارد لشهور عدة.. كان العراق يأمل فى إحداث انشقاق بين صفوف الخلفاء.. ورغم أن هذا الاحتمال ضعيف فيبقى الأمل العراقى فى تشابك الاحتمالات وتعقد المواقف واحترام الأمر الواقع مما يحتم الوصول إلى حل وسط يتيح نوعاً من العلاقات الخاصة بين العراق والكويت مثلا ومنفذا على الخليج للعراق.. مع نوع من التعويض المالى يستحقه العراق دون شك.

كانت الحسابات الواضحة لجميع الأطراف تؤكد أنه مع تلك الأزمة فإن العراق القوى عامل مهم فى الاتزان الإقليمى لتلك المنطقة المضطربة من العالم.. كما أن كسر العراق عسكريا سوف يجعلها هدفا سهلا لإيران والتى لم ولن تسقط هذا الهدف منذ

أكثر من ألف عام.. وراجعوا التاريخ.. فالوضع العقائدى والاجتماعى العراقى يسمح بذلك الأمر الذى يشكل فى مضمونه تهديداً مباشراً للسعودية - الهدف النهائى لحركة الشيعة.

من ناحية أخرى فإن العراق والذى يمتاز بحدود طويلة يشترك معه ٦ دول من بينها أربعة دول عربية ترتبط معها بعلاقات دبلوماسية عدا إيران وسوريا.. بعد الأزمة تحول هذا الموقف حتى أصبحت العراق محاطة بخمس دول معادية تشترك مع العراق فى أكثر من ٩٥٪ من حدودها.

لم يبق مع العراق سوى الأردن المتحفظ والمؤيد للعراق والذى تحمل عواقب هذا التحفظ بكل شجاعة وأخوة وإيمان سوف يسجله التاريخ.

كانت جميع الحسابات المنطقية تؤكد آنذاك أن الحل الأمثل لتلك المشكلة يجب أن يكون سياسيا.. مع المحافظة قدر الإمكان على مقومات العراق لاستمرارية دورة الأساسى فى المنطقة.. مع محاولة تحجيم تطلعات قيادات الوطنية.

كل تلك الحسابات المعقدة المتشابكة إنما تعبر فى حقيقة الأمر عن عرب المنطقة وعرب المشكلة.. غير أن الطرف الخليجى فى النزاع رمى بكل الأوراق فى يد الأمريكان ومن ثم فرغم المنطق والعلم والأساسيات نسى الجميع فى غمرة الشعور أن القرار سوف يكون أمريكيا خالصاً.. ولن يعبر إلا عن وجهة نظر ومناولة الأمريكان.. وزاد الطين بلة عوامل أخرى منها :

أ - أن أمريكا خاصة بعد التغيرات الدولية أصبحت ترى أنها المسئولة عن تأمين منابع البترول فى المشرق العربى.. وهو هدف استراتيجى غير قابل للتفاوض.

ب - نظرة أمريكا الخاصة لنمو العراق وبعثة العسكرى الواضح وخطر ذلك على ربيبته اسرائيل.. وعلى منابع النفط.

جـ - أمست الأزمة بتطوراتها تمس هيبة الولايات المتحدة وهى مسألة نفسية حساسة تمس الجانب الأمريكى فى الصميم خاصة بعد الهيمنة السياسية على مستوى العالم.

د - كانت تلك الأزمة على خطورتها تمثل أملاً لأمريكا فى استنزاف ثروات أهلها المتراكمة فى بنوكها.. خاصة أن أمريكا كانت قد أصبحت من عداد أكثر دول العالم مديونية - كما أشرنا.. فالحل يجب أن يخدم هذا الهدف أساساً.

وهكذا فبينما كانت الأزمة بين أطراف عربية.. إسلامية - أخوة نستطيع أن نفهم تطلعاتهم وأهدافهم كانت القيادة بيد طرف له هدفه الخفى الغامض.. والمتعدد.

(٧) رد الفعل العالمى:

نظم الحكم الواعية لابد وأن تنفعل بأحداث العالم وتتفاعل معه.. فما بالنا بنظم الحكم فى الدول القيادية فى هذا العالم.. على أن الباحث عليه أن لا يأخذ الأمور على علاتها.. ولا يتعامل مع الأمور بظواهرها.. فالسياسة عند الدول الكبرى لها عادة أكثر من زاوية.. مسموح لنا أن نرى منها شيئا.. ومحظور علينا بداهة أن نطلع على أشياء..

تلك الأسرار يجب أن تكون الأساس ومحل البحث الحقيقى الجاد.. والجهد المخلص.

يبدو من سيناريو الأحداث أن مخرجيها حاولوا الإيهام أن الغزو العراقى قد أخذ أمريكا والاتحاد السوفيتى على حين غرة.. وهذا الأمر يتعارض تماما مع أبسط الحقائق العسكرية المتفق عليها.. وقبلها مع العقل و المنطق.

ومع ذلك فقد صرح سفير المملكة العربية بواشنطون الأمير بندر بن سلطان فى مؤتمر صحفى عقده فى العاصمة الأمريكية ببعض الأسرار التى جرت فى الأيام الأولى من الأزمة.. فقد ذكر أن السلطات الأمريكية قد أخطرته هو والسفير الكويتى فى واشنطون قبل اسبوع من الغزو بأن هناك حشوداً عسكرية عراقية على الحدود الكويتية.

كان تحليل السفير الكويتى بعد اتصاله بالمسئولين فى بلاده: إن هذه اعذاراً أمريكية كى يبرروا بها مطالبهم فى إرسال قوات وإقامة قواعد عسكرية أمريكية فى المنطقة.

وقبل الغزو بثلاثة أيام أخطرت الولايات المتحدة كلا من السعودية والكويت أن التشكيلات العراقية المحتشدة على طول الحدود الكويتية قد تحولت إلى تشكيل قتال.. بمعنى آخر فقد اتخذت هذه القوات «وضع هجوم».

وكان الجواب الكويتي هو نفسه.

ليس في تلك الأقوال ما يثير الدهشة.. فلدى الولايات المتحدة ثلاثة أجهزة للمخابرات وهى وكالة المخابرات المركزية CIA ومخابرات البنتاجون «وزارة الدفاع».. ومخابرات وزارة الخارجية.

إضافة إلى تلك الأجهزة القوية هناك أحدث ما انتجته التكنولوجيا العالمية والأجهزة الإليكترونية والتى يمكن بها معرفة أية تحركات على سطح الأرض.. فالأقمار الصناعية الضخمة تصور من الفضاء ما يراد تصويره من أنحاء الكرة الأرضية.. ومزودة بآلات تصوير فريدة يمكنها التقاط أدق وأوضح الصور بسهول تامة.. وإلى الحد الذى يجعلها تلتقط صور أشياء لا يتجاوز حجمها بضعة سنتيمترات حتى فى الظلام الدامس.. هذا بالإضافة إلى طائرات الاستطلاع الاستراتيجية والتى تطير على ارتفاعات شاهقة وبسرعة تصل إلى ثلاثة أضعاف سرعة الصوت ومزودة بآلات تصوير متناهية الدقة إلى الحد الذى يجعلها قادرة على تصوير آثار الدبابات على الرمال!!.. هذا بالإضافة إلى طائرات الانذار المبكر «اواكس».. وهى موجودة بالسعودية.. كما أن جميع الاتصالات السلكية واللاسلكية بين التشكيلات والوحدات العراقية ليست ببعيدة عن أجهزة وشبكة التصنت الأمريكية والتى تغطى منطقة الشرق الأوسط بأكملها.. لكل هذا.. ولغيره.. واستناداً إلى المباحثات السياسية فى فترة ما قبل الغزو مباشرة فإنه من المؤكد أن واشنطن كانت على ثقة من تقارير المخابرات الموثوق بها.. وهذه أيام كافية لاتخاذ ما يناسب من مواقف.

وهنا يطرأ على السطح السؤال: ما معنى تصرف أمريكا تجاه الأزمة فى وقتها العصيب؟!

ملابسات الحوادث تؤكد بما لا يدع مجالاً لشك أن الولايات المتحدة رمت إلى هدفين أساسيين في تلك الفترة :

(١) إعلان الأطراف المعنية السعودية والكويتية بالأمر ولكن بطريقة لا تساعد على التحفز ومواجهة الموقف.. وذلك لأمر يخدم هدف أمريكا الأساس.

(٢) عدم اتخاذ أية إجراءات عملية لردع العراق.. الأمر الذى يشير إلى أن مصلحة أمريكا كان فى تطور تلك الكارثة.. ومن ثم فى استغلالها لذلك الموقف لتحقيق أحلامها.. الاقتصادية أساساً.. والتى لا يمكن فصلها عن الناحيتين السياسية والعسكرية.

تتضح السياسة الأمريكية أكثر من تحركاتها المباشرة أثر قيام الغزو العراقى.. فقد تولت الإدارة الأمريكية تحذير السعودية بأن المدرعات العراقية تتقدم صوب الحدود السعودية وهدفها الاستيلاء على مناطق البترول الغنية شرق السعودية وفى المنطقة المحايدة.. ولم تكن هناك أية نوايا لذلك التحرك لأسباب عديدة ذكرناها.. وعليه فقد تركت أمريكا السعودية لفترة من القلق.. وكان الضغط بعد أيام قليلة حيث زار وزير الدفاع الأمريكى المملكة العربية السعودية وكان من السهل فى تلك الظروف أقناع الحكام السعوديين بالسماح لنشر قوات أمريكية فى السعودية..

كان غزو الكويت فى الثانى من أغسطس ١٩٩٠م.

وكان وصول الطلائع الأمريكية الأولى فى الثامن من أغسطس من ناحية كان لدى القوات العراقية إذا الوقت والامكانات لتحقيق هذا الهدف إن صح.

ومن ناحية أخرى فإن الهدف الذى دعا الولايات المتحدة أن تنحو هذا النحو وتخسر عدة أيام لتتدخل فى منطقة من أهم المناطق الاستراتيجية هو رغبتها فى تغليف تدخلها بالمظلة الشرعية.. مع تأكدها لموقف العراق من ذلك التحرك.. هذا فى حين أن الرئيس بوش قام بعقد مؤتمر صحفى عالمى فى البيت الأبيض أدان فيه الغزو.. ودعا فيه إلى انسحاب القوات الغازية.. ثم قام على وجه السرعة بتجميد الممتلكات العراقية والكويتية.. ولم يضع وقتاً.!!.

لم تمر ساعات معدودة على طلب المساعدة الذي قدمته السعودية حتى كانت طلائع الفرقة ٨٢ المنقولة جواً بالإضافة إلى وحدات رئيسية من السلاح الجوى الأمريكى تهبط قاعدة الظهران الجوية وتبدأ على الفور فى إقامة أكبر وأقوى جسر جوى عرفه التاريخ!! وبداية تشكيل أضخم حشد «برى وبحرى وجوى» فى تاريخ الولايات المتحدة منذ حرب فيتنام.

بعد أسبوعين فقط وصف قائد عمليات النقل الجوى الأمريكى أن تلك العملية والتى تم بها نقل القوات الأمريكية إلى شرق السعودية «حوالى ١٣,٠٠٠كم».

فى ذلك الوقت وبتلك الكثافة يعتبر معجزة عسكرية.

هذا النجاح الساحق يحتم وفقا للأصول العسكرية والمفاهيم العلمية أن تلك القوات كانت على استعداد مسبق وبفترة كافية بالأعداد والاستعداد.. وقبل اسبوع كامل على الأقل من الغزو.

ثم يكتمل السيناريو على الطريقة الأمريكية.. فيقوم «ريتشارد «تشينى» وزير الدفاع الأمريكى بزيارة بلدان الخليج وينجح دون جهد وفى ساعات فى اقناع الشيخ زايد بن سلطان رئيس دولة الإمارات على إرسال قوات أمريكية برية وجوية إلى دولة الإمارات.. وتتابعت الاتفاقيات مع باقى إمارات المشرق العربى.. البترولية على الرغم من عدم وجود حدود مشتركة بين تلك الإمارات وبين الكويت!!

ثم لم يلبث أن يكمتل السيناريو.. ويتحسن الأداء ويتوالى تدفق ووصول قوات عسكرية برية وبحرية وجوية من دول شتى بلغت ٢٨ دولة معظمها أوربية خاصة فرنسا وبريطانيا - بخلاف استراليا وكندا.. وغيرها.. إضافة إلى قوات من ثلاث دول عربية هى مصر - وسوريا.. والمغرب.

أما على الساحة السياسية فكان تحرك الولايات المتحدة سريعا ورسميا من خلال الأمم المتحدة ومجلس الأمن حتى نجح فى استصدار أكثر من خمسة قرارات بالاجماع وبمعدل مذهل سريع لمحاصرة العراق سياسيا.. مع بناء غطاء دولى قانونى لتحركها العسكرى المنظور.. مع محاولة حشد أكبر دعم سياسى لهذا التحرك خاصة من البلدان العربية والإسلامية.

إن كانت الأهداف الأمريكية الحقيقة من جراء إخراج الحوادث على هذا النحو قد غابت عن قيادات العالم العربى المستسلم.. فإنها لم تغب للحظة عن القوى العالمية الأخرى والتى تنشد لنفسها مكانا على الساحة العربية.. مثل الاتحاد السوفيتى والصين.. وعليه فكما كانت الولايات المتحدة حريصة على صبغ القوات المتواجدة فى الخليج رغم كثافتها بصيغة القوات المتعددة الجنسية.. فإن الصين والاتحاد السوفيتى طالبا بتحويل صيغة تلك القوات من «متعددة الجنسية» إلى «دولية».. أى أن عملها تحت راية الأمم المتحدة سوف يسمح لمجلس الأمن سلطة اعلان وتحديد زمن انتهاء مهمتها والأمر بسحبها.

وعليه فقد سارعت أمريكا بزيادة قواتها إلى درجة كبيرة وإعلان أن القانون الأمريكى يتيح للكونجرس قرار الحرب.. وذلك تبعا لخدمة أهداف أمريكا العليا..

ولو على حساب أية حسابات سياسية أو اجتماعية خاصة بعد التغيرات العالمية الأخيرة.

وهكذا صرح ريتشارد تشينى أن واشنطن لن تحتاج إلي تفويض من الأمم المتحدة إذا قررت توجيه ضربة للعراق.

وسط هذا الانفجار الوشيك كان لابد من ظواهر تكشف النيات الحقيقية ولابد من فاتورة محترمة من دول البترول لخدمة وتمويل الحشد العسكرى الهائل..

توجه جيمس بيكر - بناء على تعليمات الرئيس بوش - وعلى رأس وفد أمريكى إلى منطقة الخليج وتم الاتفاق بصورة مبدئية مع السعودية والكويت ودولة الإمارات على مساهمتهم بمبلغ يتجاوز ١٥ مليار دولار.. بصفة مبدئية وحتى نهاية عام ١٩٩٠م فقط!!.. وبسهولة ويسر وافقت الدول العربية البترولية طالما كان الطرف امريكياً.. وليس عربيا!!! وقبل قيام أى اشتباكات!!

بعد أقل من شهرين من تلك التطورات نقلت وكالات الأنباء نقلا عن القدس أن جيمس بيكر «بذاته» عقد اجتماعاً مع زامير شوفال سفير إسرائيل الجديد لدى واشنطن.. وذكر راديو إسرائيل أن بيكر أبلغ شوفال أنه قد تم تذليل جميع الصعوبات

المتعلقة بضمانات القروض الأمريكية الخاصة ببناء مساكن للمهاجرين الجدد بإسرائيل.. وتبلغ تلك القروض مبلغ ٤٠٠ مليون دولار فى المرحلة الأولى[1]!!.

إن الحقيقة السياسية والاقتصادية الواجب إدراكها طوال الوقت أنه ليس على واشنطن أو غيرها أى إلتزام حقيقى بحل أى أزمة إلا لحماية مصالحها وتنفيذاً لخططها.. ولا يختلف إثنان على أن المستفيد الأول والأخير من تلك الأزمة كانت الولايات المتحدة وحلفائها.. وكان الخاسر الوحيد والأخير هم العرب جميعا.. وزاد الطين بلة أن جميع الأطراف ما لبثت أن ألقت بجميع أوراقها للطرف الأمريكى حتى يرى ما يرى.. ويقرر ما يقرر..

موقف الاتحاد السوفيتى :

من أغرب المفارقات أن الاتحاد السوفيتى والذى مافتىء يحلم بمنفذ له على منطقة الخليج أثناء الحرب الباردة فيخفق يجد نفسه مدعو إلى الخليج وبموافقة ودعوة الولايات المتحدة فى عصر الوفاق.. وبعد أن سلم السوفيت راية الزعامة لأمريكا.

منذ سنوات كانت الكويت أسبق دول المنطقة التى أقامت علاقات دبلوماسية مع الكرملين فى سنة ١٩٦٣م.. وخلال السنوات القليلة الماضية باع السوفيت أسلحة حديثة لدولة الإمارات العربية والتى أبدت بدورها استعدادها للاستثمارات فى مشروعات بالاتحاد السوفيتى.

وفى الثمانينات قامت دول عمان والبحرين والإمارات بإقامة علاقات دبلوماسية مع السوفيت وظلت السعودية مترددة حتى شرعت بدورها فى إقامة علاقات دبلوماسية بعد أكثر من خمسين عاما من القطيعة الدبلوماسية.

فى أزمة الخليج الأخيرة كانت نقطة التحول الهامة هو عرض أمريكى على الاتحاد السوفيتى لاشراكه فى القوة المتعددة الجنسيات.. لكن الاتحاد السوفيتى تحفظ

---

(١) نقلاً عن وكالة الأنباء.. القدس.. فى ٤/١١/١٩٩٠م.

على تكوين تلك القوات.. ورأى أن تكون الأمم المتحدة هي المنوطة بتكوين هذه القوة العسكرية.. هذا مع أن السوفيت كانوا يعترضون على الدوام في الاسهام في قوات الطوارىء الدولية.

من ناحية المبدأ كان موقف جوربا تشوف ضد ضم الكويت.. لكنه كان يمتاز بمرونة سياسية تستحق التقدير في موقفه من الأزمة.. كانت نظرة الرئيس السوفيتي تدعو لحل المشكلة سلمياً وبطريق التفاوض ولكن داخل مساحة الاتفاق بينه وبين بوش.. وعليه فلم يستبعد جوربا تشوف الحل العسكري كحل نهائي.. وقد تكون هذه المرونة سبيل من سبل الضغط النفسي على الرئيس العراقي لانتهاج الطريق السلمي لحل الأزمة.. وعليه فقد كان لزاماً عقد مؤتمر قمة.. فكانت قمة هلسنكي.

كانت قمة هلسنكي بالنسبة لأطرافها اختباراً حاداً لمدى العلاقة - الجديدة - بين العملاقين.. وكما هو متوقع ونتيجة لحسابات عديدة فقد نجح العملاقين في تخطي عقبة العراق حتى مع وجود اختلافات في الرأي.. وبوجه عام فقد توصل بوش وجوربا تشوف إلى حل وسط حول الخيار العسكري غطته صيغة مرنة مطاطة وهي أنه في حالة فشل الإجراءات المتخذة حتى الآن ضد العراق فإن الدولتين العظمتين ستعملان على إتخاذ إجراءات إضافية أخرى - من قبل الأمم المتحدة - لإرغام صدام حسني على سحب قواته من الكويت».

غير أن هذا الحل لم يستبعد الإجراء العسكري بل أشار إليه وأكده بعد أن حدده وهكذا أسقط كل حجة يمكن أن يستند إليها الطرف الروسي.. وبديهي أن ذلك يعتمد على فشل السبل السياسية.. وهو أمر هين علي الدولة الكبرى الأولى.. الأمريكية.. كان كل ذلك واضحاً ومحدداً في عبارة «استنفاذ الطرق السلمية.».

أهم ما أسفر عنه لقاء هلسنكي حقيقة أن جوربا تشوف أكد مسئولية الطرف الأمريكي المنفرد في تلك الأزمات وعليه فقد حاول إلزام أوربا كذلك تجاه بعض المشكلات الحادة الأخرى. فقد أكد وجود «ارتباط حقيقي بين المشكلة الفلسطينية والغزو العراقي للكويت» حيث أن عدم التوصل إلى حل لمشكلات الشرق الأوسط

برمتها لابد أن يكون له تأثير على خطورة النزاع فى الخليج.. غير أن بوش تمسك برفضه أى نوع من الربط بين المشكلتين.

ولم يعدم الزعيم الأمريكى من تبرير لموقفه ومعناه فادعى أن ذلك «من شأنه التخفيف من قرارات الأمم المتحدة ضد العراق».

وعلى صعيد آخر.. وعلى استيحاء.. اجتمع جوربا تشوف مع الزعيم الفرنسى فرانسوا ميتران ودعا الزعيمان إلى اجتماع عربى وقمة عربية للبحث عن حل لأزمة احتلال العراق الكويت.

كما أرسل الزعيم السوفيتى مبعوثه بريما كوف فى رحلة مكوكية لمحاولة تنشيط الاتجاه الدبلوماسى.. وفى ذلك الاجتماع وافق الرئيس صدام على الانسحاب من الكويت بشرط حماية القوات العراقية أثناء انسحابها.. لكن امريكا رفضت أى تعهد بذلك.

صرح بريما كوف عقب جولته «أنه يبدو أن صدام حسين يميل إلى حل سياسى.. لكنه فى نفس الوقت قرر أن محادثاته مع صدام لم تكلل بالنجاح!!!».

سافر سيفرنادزه وزير الخارجية السوفيتى للعراق.. وأجرى أيضا محادثات بهذا الشأن.. ثم صرح عقب عودته بأنه «ليس متفائلا بشأن احتمالات الحل السلمى.. وإن كان قد نفى أن مهمة بريما كوف هى آخر أمل فى السلام!!».

كان موقف الاتحاد السوفيتى يرى فى تطور الموقف الأمريكى ومحاولته أخذ الأور كلها بيده أن واشنطن قد أخذت تحت ضغط غلاة المحافظين الأمريكيين تسىء استخدام رخصة الوفاق الدولى من زاوية حجم ونوعية الوجود العسكرى فى المنطقة والضاغط على العراق مع الحصار الاقتصادى.. الأمر الذى يرمى كثير من الشكوك حول نية ورؤية الأمريكان الحقيقية لأهدافهم تجاه المنطقة.

كتبت البراندا السوفيتية فى ٢٥ أغسطس ١٩٩٠ مخاطبة الإدارة الأمريكية فتقول: «أنكم تتحدثون عن السلوك الحضارى وضرورة احترام الأعراف الدولية فى

مجال أزمة الخليج واحتلال العراق للكويت.. ونحن معكم تماما فى هذا الأمر.. لكن ما هو رد فعلكم على احتال إسرائيل للدولة الفلسطينية والتى اعترفت بها أكثرية أعضاء المجتمع الدولى.. انكم تدينون العراق.. وهذا حق لكنكم لا تدينون إسرائيل!!! لقد قتل فى الكويت عدة مئات من الناس وهى مأساة إنسانية إلا أنه قد قتل فى الانتفاضة الفلسطنية عدد أكبر بكثير.!!».

أما صحيفة الازفستيا لسان حال الحكومة السوفيتية فقد كتبت فى الرابع والعشرين من أغسطس ١٩٩٠ وبينما القوات الأمريكية تتدفق على السعودية فقالت : إن الاتحاد السوفيتى ليس مع الوجود الأمريكى العسكرى فى المنطقة لكنه يعترف بحق الولايات المتحدة الشرعى فى إرسال قواتها إلى هناك مادام ذلك يتم بطلب من العربية السعودية.. وعلى العراق أن يزيل الظروف التى أدت إلى مثل هذا الوضع.. وان ينهى احتلاله للكويت والتى تعتبرها موسكو دولة ذات سيادة!!.

من الملاحظ أن الاعلام السوفيتى كان اشارة واضحة تتضمن فشل مجهوداته السياسية فى دعوته للحل السلمى مع اظهار التصميم السوفيتى على استنفاذ كل سبل الحل اسلمى.. وهى محاولة مستميتة لاثبات نوع من الحضور الفعلى المؤثر للسوفيت فى المنطقة بصرف النظر عن المتغيرات الدولية.. تلك التى حددت هذا النوع من الحضور بشكل كبير ومؤثر.

أوروبا.. وأزمة الخليج :

تفهم وجهة النظر الأوربية هامة.. وتفهم موقفها أشد ضرورة وأهمية.. من ناحية المبدأ كان هناك اجماع من دول المجموعة الأوروبية الأثنى عشر على إدانة الاحتلال العراقى للكويت.. لكن هذا المبدأ يجب ألا يخفى عن المدقق وسط ركام التصريحات الدوافع الأوروبية التى دفعتها لهذا الموقف خاصة إذا أشرنا إلى نقاط التعارض الأوربى الأمريكى فى موقف الخليج.

فى الواقع فإن اوروبا تتأهب من الآن لتصبح القوة الاقتصادية العالمية الأولى من بداية عام ١٩٣٣م.. الأمر الذى شكل نظراتها فى بداية الأحداث فقد أدركت أوروبا أن التواجد الأمريكى المكثف إنما يستهدف مصلحتها فى المقام الأول.. وضرب قوتها الاقتصادية قبل أى شىء.

رغم موقف بريطانيا - الحليف الأليف لأمريكا - فى مؤازرة أمريكا دون تحفظ فإن أوربا أول من تعلم وتدرك أن قوتها الاقتصادية مرهونة بالنفط فالقوتان الأعظم - حتى الآن - وتملكان النفط اللازم لتفوقهما الاقتصادى والسياسى.. عكس اوروبا.. والتى تشترى من السوق العالمى معظم ما يلزمها من نفط.

فهل كان هناك معزى لتوجيه الأحداث وحجتها التى تهدد مصالح تلك القوة الاقتصادية العظمى المنتظرة؟!..

وهل هذا هو الهدف الأمريكى الأساسى؟!.

ومن جهة أخرى فإن الأولى لأوروبا - أيضا - ألا تقبل بأن يتحكم دولة رائدة مثل العراق فى أهم مصادر البترول واكثفها؟!!

حيث أن الظروف كانت متداخلة ومتشابكة ولم تكن تسمح بالدخول مع خلاف سافر مع حكومة واشنطن تلك التى استطاعت بحنكتها السياسية أن تضفى نوعاً من الشرعية لمواقفها فقد أصبح لزاماً على اوروبا أن تجد وسيلة ما تستطيع بها أن تحد من فعالية الموقف الأمريكى.. وحتى لا تجد نفسها بعد بضعة أشهر تحت رحمة أمريكا.. وعليه فقد سارعت فرنسا أولاً وبعدها دولاً أوروبية عديدة بإرسال قواتها إلى منطقة الخليج حتى لا تكون بعيدة عن الأحداث.. لكنها حرصت فى الوقت نفسه على ألا يكون تشكيل هذه القوات هجوميا خلافا لطابع القوات الأمريكية.. كما حاولت إثارة عدة مشاكل تخص قيادة القوات فبقيت حاملة الطائرات «كليمو تصو» فى مياه بحر العرب ولم تدخل الخليج أول الأمر وقال قائد القوات البحرية الفرنسية تبريراً لذلك :

«إن قدرة أية حاملة طائرات على المناورة داخل الخليج ستكون شبه منعدمة وهى بالتالى لن تكون فعالة إذا نشب أى قتال!!».

وعندما سأله الصحفيون الفرنسيون عن حاملتى الطائرات الأمريكية واللتين قد دخلتا إلى الخليج قال:

«لست أعتقد - من الناحية العسكرية - أن حاملتى الطائرتين الأمريكية تستطيعان المناورة داخل الخليج.. وأعتقد أن وجودهما هناك يستهدف إحداث أثر نفسى على العراق.. لا أكثر ولا أقل».

أما وزير الدفاع الفرنسى جان بيير شتينفمان فكان أكثر وضوحاً إذ رد قائلا على انتقادات الصحفيين والذين اتهموه بأنه لم يكن متحمساً لإرسال قوات فرنسية إلى العراق:

«إن مجلس الوزراء الفرنسى ليس بحاجة ليتقرر السياسة التى يحددها الرئيس بوش» بل صرح الرجل فى مجال آخر بقوله :

«نحن حريصون على علاقتنا بجميع الدول العربية. وإذا نشبت حرب فى الخليج فإن هذه العلاقات سوف تتأثر بذلك سلبياً».

وعلى العموم فإن فرنسا كانت تحبذ التوصل إلى تسوية عربية للأزمة الراهنة على أساسا الانسحاب العراقى من الكويت وإعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه مع إيجاد آلية تفاوضية لحل الخلافات العراقية الكويتية.. بالإضافة إلي سحب القوات الأجنبية من منطقة الخليج.

كان هذا الموقف العام بأسسه يتوافق من ناحية المبدأ مع المصالح الأوروبية الأساسية تجاه الأطماع الأمريكية فى المنطقة.

أما ألمانيا:.. فكانت لها هى الأخرى نظرتها للأمور لإدراكها بأنها على وجه الخصوص قد تكون أول من يعنيه أمريكا فى احتلالها لمنابع النفط.. خاصة بعد توحيدها.. وبعد أن أعدت نفسها لقيادة العملاق الأوربى الجديد..

خصمها الأول سيكون الولايات المتحدة لسنوات قادمة.. وعليه فقد تمسكت ألمانيا برفض إرسال قوات إلى الخليج بدعوى أن دستورها يمنع ذلك.. ولم توافق فى

بادىء الأمر إلا على تقديم معونة مالية لا تزيد على ملياري دولار رغم شدة الضغوط الأمريكية.

أما بريطانيا - الخليل الأمريكي - فقد تجاذبها تياران؛ الأول ينحصر في المصلحة الأوربية المشتركة كطرف أساسي في هذه الوحدة الأوربية.. والثاني كشريك أمريكي يرى في جانبه ذاتيته الاقليمية.. وكان من مظاهر هذا الصراع بين التيارين سقوط مارجريت تاتشر.. وكإشارة واضحة ناحية الإتجاه الأوربي المنتظر.

ولا يختلف موقف باقي الدول الأوربية وتطرقها للأمور عن ذلك.. فالصورة العامة أن أوروبا خشت بأي حال أن تنفرد الولايات المتحدة بفرض أي حل خاصة إذا كان عسكريا.. ولعل هذا التعارض قد استغلته أمريكا أفضل استغلال إذ زادت فيه من قواتها المسلحة إلي حد بعيد حتى يكون لها الثقل الدافع لخدمة أهدافها.

من ناحية اليابان فقد استثمر العملاق الاسيوى قدرته الاقتصادية بمهارة وحكمة لاظهار وتأكيد حاجة الولايات المتحدة إليها للمساهمة والمعاونة في تكلفة الانتشار العسكري بالخليج.. وعليه فقد وضح الهدف من وراء «البخل الياباني الواضح» مع موافقة اليابان على مطالب أمريكا بالأقوال.. وأقل الأعمال.. ولم تفلح الضغوط الأمريكية في الحصول من اليابان على مطالب أمريكا بالأقوال.. وأقل الأعمال.. ولم تفلح الضغوط الأمريكية في الحصول من اليابان على أكثر من مليار دولار في المراحل الأولى للأزمة.. تلك أيضا صورة من حسابات القوى العالمية الاقتصادية والعسكرية.. فليس هناك ما يدعو اليابان لتجنيد قدرتها الاقتصادية لمصلحة وخدمة الأهداف الاستراتيجية الأمريكية على حساب القوى العالمية الأخرى.. خاصة وقد قلت حساسيتها لأي أزمة بترولية لزيادة مخزونها وفائض ميزانها التجاري.. إلخ.

الموقف الأوربي - الياباني مغزاه سياسي إذاً أكثر منه اقتصادي في إطار تدعيم القوى العالمية لنفوذها في عملية بناء النظام العالمي الجديد.. وهذا الموقف بالضرورة ليس على استعداد لاعطاء الولايات المتحدة تفويضاً بحرية التصرف.

لعل صراع الأهداف الواضح يؤكد وبكل قوة أن سيناريو الحوادث وافتعالها في أزمة الخليج الأخيرة كان بتوجيه أمريكي محض.. عن طريق عملائه في المنطقة.

المحور الأساسى الذى جمع كل هذه الأطراف على تباينها هو محور السياسة عامة وخاصة.. وهو المصلحة الذاتية فى مناولة ذلك الصراع.. هذا المحور بالذات كان مفقوداً وضائعا وغائباً فى مواقف الدول العربية ذاتها.. أرض ذلك الصراع.. وصاحبه المصلحة الأولى فيه!!!

رغم أن العالم كله يشهد حقبة جديدة تنشغل فيها القوى السياسية والاقتصادية العالمية.. فإن هذه الخلافات فى استراتيجية الدول تم تناولها بمهارة سياسية.. بحيث لم تظهر بصماتها فى قرار مجلس الأمن أو منظمات الأمم المتحدة.. بل على العكس لقد ظهرت ظاهرة جديدة وهى أن قرارات مجلس الأمن أصبحت تظهر على هيئة اجماع فى بلورة ذلك النظام الدولى الجديد.. فالخلاف ليس فى الهدف - قدر كونه خلافا فى اقتسام المطامع العالمية فى المنطقة.

لعل حسابات هذا التحليل نفسه هى التى دفعت الطرف الأمريكى لتركيز وجوده كقوة اساسية موجهة كى تكون كلمتها هى الكلمة.. رغم أن كل مواقف الأزمة تدور تحت مظلة الأمم المتحدة!!.

فى المقابل نرى الأطراف العربية صاحبة النزاع وأرض الصراع ذاته تفتقد أى محور أساسى سياسياً كان أو حتى عقائديا أو تاريخيا.. وفى ظنى أنه لا يمكن حل تلك المعضلة إلا بمواجهتها ومواجهة عواملها الأساسية.

الموقف الإيرانى :

الحقيقة المؤلمة أنه لم تواجه دولة حقائق الموقف وأحداثها على فهم وبينة مثلما كان الموقف الإيرانى تجاه الأحداث السريعة المتشابكة المتعارضة..

رغم الإيمان الذى لا يتزعزع بخطورة الأهداف الإيرانية الاستراتيجية والتى لا تقل خطورة عن كل تلك الأحداث فإن ما أثار الاعجاب الممزوج بالاحترام هو موقف

إيران وتفاعلها مع الأحداث بوعى وتفهم أوضح جميع الحقائق من ناحية.. ومن أخرى أكد للجميع كونها طرفاً له وزنه فى الأحداث وشريكا أساسيا فيها.

لم تكن حرب إيران قد انتهت بشكل رسمى عند بداية أزمة الخليج.. ورغم غزو العراق للكويت فلم تتعجل إيران اشعال الحرب وانتهاز الفرصة.. بل وقفت تنتظر.. والمنطق يُقر أن الأغلبية قد توقعوا أن ينتهزها الايرانيون فرصة العمر للنيل من عدوهم الأساسى فيبادروا بترحيبهم بالغزو الأمريكى.. فذكريات الحرب مريرة ومازالت ماثلة اليمة.. والحرب ذاتها لم تنته.. إلا أن الموقف الإيرانى كان على غير المتوقع.. وغير مطابق نهائيا لمجريات الحوادث.

إن المواقف الأساسية السياسية لا يجب بحال أن ترسمها المشاعر والعواطف بل يجب أن يتحكم فى مسارها ما يمكن أن نسميه بالمصالح القومية.. وهذا هو الأمر ذاته الذى يجب أن يثير القلق بل والرعب خاصة بعد ما أشرنا سريعا إلى نظرة الشيعة الإيرانية تجاه منطقة المشرق العربى كافة.

من ناحية المصالح القومية - فإن الوجود الاستراتيجى فى تلك المنطقة يخلق عوائق إضافية وقوية أمام الأطماع الإيرانية المتفق عليها.. ومن ناحية أخرى فإن انضمام إيران للحلف الأمريكى ضد العقبة العراقية سوف يقابل بعوائق عقائدية عديدة خاصة مع رفع الدولة لشعار المذهب الشيعى - الأمر الذى قد يعريها أمام الشعب الإيرانى ذاته. من ذلك المنطلق فاجأت ايران العالم كله وأعلنت على لسان زعيمها الروحى وقوفها فى خندق واحد مع العراق. مع عدو الأمس.. ضد الأطماع الأمريكية فى المنطقة - بل وهدد الزعيم الروحى الإيرانى بالجهاد المقدس ضد الوجود الأجنبى فى المنطقة.. إلخ.

من الطبيعى أن تحاول القيادة الأمريكية امتحان تمسك إيران بهذا الموقف فقامت بنوع من الرشوة عن طريق الرئيس السورى الصديق الودود - العلوى - للقيادة الإيرانية.. لكن الرئيس رافسنجانى اتهم الرئيس السورى والذى زار إيران لأول مرة منذ حربها مع العراق أن: «إيران ترى الخطر الأعظم فى الوجود الأجنبى فى الخليج.. وليس الوجود العراقى فى الكويت أدانت الأخير».

ثم أن إيران أعلنت - بغبطة: «أن مجيء القوات الأجنبية إلى المنطقة قد عقد الأمور فلا يمكن للعراق أن ينسحب بدون انسحاب القوات الأجنبية إذ من ذا الذى يضمن للعراق فى حالة إنسحابه من الكويت ألا تطلب حكومتها قوات أجنبية على أراضيها.. أو أن يضع الغرب شروطاً جديدة لانسحاب قواته كتحجيم لقوة الجيش العراقى.. أو تجريده من أسلحته الكيماوية أو الصاروخية أو منشآته النووية.. أو عزل الرئيس العراقى نفسه!!».

إذاً.. فالحل كما أبلغ الرئيس الإيرانى نظيره السورى ينحصر فى انسحاب العراق من الكويت فى إطار حل ترتضيه دول المنطقة ويزيل الخلاف بين العراق والكويت.. لكن كيف وإيران تلمس حقائق الموقف برمتها ؟!.

ثم أعلنت إيران رفضها :

(١) أى شكل من أشكال التعاون السياسى أو العسكرى مع القوات الأجنبية ضد العراق.

(٢) إرسال قوات إيرانية رمزية إلى السعودية.

(٣) إفشاء أى أسرار عن العراق تكون قد توافرت لها من خلال حربها معه.

..هذا الموقف الإيرانى لم يأت من فراغ.. فالأمر المؤكد أن خطر إيران على المنطقة لا يقل بحال عن خطر القوات الأمريكية.. بل يزيد لو احترمنا الوضع العقائدى والتنافر السنى الشيعى والذى طفا على سطح الأحداث وانفجر مع بزوغ أمام الشيعة روح الله الخمينى.. بل ولو احترمنا فقط التقسيم المذهبى لسكان تلك المنطقة من العالم العربى.

هذا الموقف ذاته يلقى كثيرا من الضوء على الحقائق والتى غلفت بشعارات سياسية جوفاء سوف تفضحها المواقف دون شك فى المستقبل المتطور.

المدهش أن بعض علماء السنة انساقوا حتى كفر بعضهم قادة العراق الذين ناهضوا المد الشيعى فى المنطقة!! وكأن من حق هؤلاء - لكونهم علماء!!.. الحق فى ميزان الإيمان وقياسه ومن ثم الحكم.. فماذا ترك هؤلاء العلماء لصاحب الأمر كله إذا ؟!.

نسى هؤلاء الأجله أن الإيرانيين لم يرووا فى مصلحتهم إلا تداعى الأمر بين العراق وأعدائه.. الأمر الأوضح من الشمس فى رابعات النهار.

أن التحذير من موقف إيران رغم ذلك كله أمر لابد منه - ليس للعراق ولا للسعودية - فأهل المشرق العربى يعون ويلمسون ذلك.. ولكنه لغيرهم.

تلخيص الموقف الإيرانى أنه ينتظر رسوخ الأوضاع النهائية فى المنطقة لينطلق من جديد.. وعلى حساب عدوه اللدود العراق السنى.. مع هدف ثابت يتمركز فى غزو الجزيرة العربية ذاتها عقائديا أو سياسيا.. أو حتى عسكريا.. الأمر الذى يجعل من موقف السعودية تجاه العراق لغزاً حقيقياً يصعب تقييمه إلا لو احترمنا الظواهر السياسية الواضحة وهى رمى كل الأوراق للجانب الأمريكى ليرى ما يرى.. على أمل تثبيته للحكم والسلطان..

المبدأ الذى يفسر خبايا كل المواقف وتطوراتها.

(٨) رد الفعل العربى:

كان زلزال الخليج الحجر الذى حرك المياه الراكدة العربية.. فأظهرت العفن الراكد تحتها والتى كان العرب جميعا قد ركنوا إليها.. وتعايشوا معها.. وأظهرت حقائق طالما تغافلنا عنها واسقطناها عمداً حتى اعمتنا.

كان الموقف الرسمى سريعاً ومتسرعاً فسرعان ما نادى باتخاذ خطوات إيجابية بل وفورية!! بعد يوم واحد من الغزو.. وكانت مطالب مصر تنحصر فى :

(١) الانسحاب الكامل للقوات العراقية من جميع الأراضى الكويتية.

(٢) الكف عن محاولات تغيير نظام الحكم بالقوة.. وترك الشئون الداخلية للكويت لشعب الكويت فيقرر ما يراه لإرادته الحرة المستقلة.

(٣) ضرورة ارتباط البلدين الشقيقين بأسلوب الحوار لتسوية الخلافات القائمة. وفى ظهر يوم الجمعة الموافق ١٠ من أغسطس ١٩٩٠م عقد مجلس التعاون الخليجى دورة طارئة فى القاهرة برئاسة يوسف بن علوى بن عبد الله وزير الدولة للشئون الخارجية بسلطنة عمان وبحضور نظرائه من دولة الإمارات.. ودولة البحرين.. والمملكة العربية السعودية.. ودولة قطر.. والكويت.. وفى تلك الدورة أدان المجلس الغزو العراقى وطالب بالانسحاب الفورى والغير مشروط.. كما رفض أية آثار مترتبة على ذلك الغزو.

تزامن كل ذلك مع مشاورات سريعة على أعلى مستوى عربى.

ولكن.. ولكن فى يوم الأحد ١٢ أغسطس قرر الملك فهد تأجيل القمة العربية المصغرة والتى كان مؤملاً أن ينضم لها كل من الرئيس حسنى مبارك والملك فهد والرئيس صدام والملك حسين عاهل الأردن.. والرئيس اليمنى.. والشيخ جابر الأحمد الصباح..!!! ومر ذلك القرار تحت سرعة الأحداث وضغطها على الجميع.. فماذا كان يجرى آنذاك تحت المنضدة؟!!!

لم تكن الجامعة العربية بغائبة عن الأحداث.. فقد أعلن الشاذلى القليبى فى حديث إذاعى لراديو فرانس انترناشيونال أن قرار العراق بسحب قواته من الكويت

بشروط يعتبر بداية حسنة وسوف تسهل عملية عقد قمة عربية.. وهو الأمر الذى يبعد شبح أى تدخل خارجى.

أما فى طرابلس فقد أعلن العقيد القذافى مشروع سلام ليبى فلسطينى يجنب العالم عواقب هذه المشكلة ويتضمن النقاط الآتية :

(١) تعلن الكويت قبولا لمبدأ دفع تعويضات للعراق.

(٢) يوافق العراق على إعادة تخطيط الحدود بين البلدين.

(٣) توافق الكويت على تأجير جزيرتى «واربة» و «بوبيان» للعراق.

(٤) يوافق العراق على استئجار الجزيرتين.

(٥) يوافق الطرفان على احلال قوات ليبية فلسطينية محل القوات العراقية.

(٦) البدء فى إجراء مفاوضات بين البلدين.

ولكن فى اليوم التالى.. وبينما المشاورات السياسية على أشدها وفى السعودية أعلنت وكالات الأنباء حالة الطوارىء والتعبئة العامة لقواتها المسلحة.. ودعا راديو السعودية الشباب لحمل السلاح.. كما تم اعلان التعبئة فى السلاح الجوى السعودى!!!.

منذ يوم الثلاثاء الموافق ٧ من أغسطس ١٩٩٠ كانت القاهرة مسرحاً نشطا للعديد من اللقاءات السياسية والتى أجراها الرئيس مبارك مع ولى عهد الكويت.. ومع ياسر عرفات.. كما أعلن الرئيس مبارك رفضه فكرة انعقاد قمة مصغرة فى جدة ما لم يتوافر لها المبادىء الأساسية والكفيلة بتحقيق نتائج مرجوة!! وطلب من الملك حسين أن يتفق مع الرئيس صدام على ضرورة الاتفاق على نقطتين أساسيتين قبل اجتماع القمة المصغرة.. أو أى قمة عربية!! وهما :

(١) ضرورة انسحاب القوات العراقية من الكويت دون قيد أو شرط مسبق ووفقا لجدول زمنى.

(٢) عدم المساس بالشرعية الكويتية وعودة الحكومة الشرعية.

وفى يوم الأربعاء ٨ من أغسطس دعا الرئيس مبارك لعقد قمة عربية طارئة خلال ٢٤ ساعة وأكد أن هذه هى الفرصة الوحيدة أمام العرب لأى حل سلمى للمنطقة.. وشدد الرئيس مبارك من خلال مؤتمر صحفى عالمى على تخوفه من تدفق القوات الأجنبية على المنطقة!!! وأعلن أن الأزمة ستكون مدمرة ومفزعة وأن الصورة سوداء والأمن القومى العربى فى خطر.. وفى ساعات تتابع وصول موافقات الدول العربية والتى استشعرت مسئولياتها.. وفى مساء اليوم نفسه بدأ وصول القادة العرب واستمر وصولهم يوم الخميس.. وفى حين انعقدت الآمال كانت القمة فى حقيقتها مرحلة كشفت الغطاء عن المتناقضات والتى حاول الجميع اخفائها والتغاضى عنها.. حتى أن الأمر بدأ كأنه كابوس مرعب اختلطت فيه الأوراق وتعارضت فيه المصالح حتى أصبح استيعاب حقيقة الأحداث ومواجهتها أمل بعيد المنال..

أعلنت أربعة عشر دول عربية موافقتها على الاشتراك فى مؤتمر القمة الطارىء وهى : السعودية - سوريا - الأردن - ليبيا - الجزائر - الكويت - تونس - الإمارات العربية - قطر - سلطنة عمان - اليمن - جيبوتى - لبنان - والبحرين.

وفى يوم الجمعة ١٠/٨/١٩٩٠م كان لقاء القمة الأسود.

رغم تتابع المواقف فى سرعة رهيبة لم تمكن أي مراقب حتى من النقاط أنفاسه فإن الرئيس الأمريكى بوش وجه خطابا يوم الخميس ١٩٩٠/٨/٩م للشعب الأمريكى!!! طالبه بمساندة قرار الحكومة الأمريكية بضرورة الإسراع بإرسال قواتها للدفاع عن السعودية!!!.. وقال: أن واشنطن ترفض بشدة الحكومة العميلة فى الكويت.. وترفض الاستيلاء على أراضى الغير بالقوة!! وأكد أن التحرك الأمريكى يهدف أساساً إلى الاستقرار والأمن والسلام فى المنطقة!!.. بل إن الأمر لم يقتصر على أمريكا حيث سارعت معظم الدول الأوربية فى نفس الوقت بإعلان رغبتها!!! فى المشاركة فى القوة المتعددة الجنسيات والتى سوف تشارك فى حل مشكلة الكويت!!!

فى محاولة لتبرير ذلك الموقف الأساسى صرح جورج بوش أنه لا يمكنه الاعتماد على تأكيدات صدام حسين بأنه: لن يغزو السعودية.. وأن تصرفات الرئيس صدام دليل على ذلك.

ثم أن شبكة N.B.C وشبكة CBS أعلنتا أن الرئيس الأمريكى قد أكد على أن العالم الآن متحد ومتفهم للموقف ولوقف العدوان العراقى.. وأكد أن العقوبات الشاملة والتى أقرها مجلس الأمن سيتم تطبيقها مهما كان الثمن.

.. من الواضح إذاً أن الأزمة كانت تتناول على محورين.. عربى وعالمى.

.. وبينما كانت معظم الدول على المحور العربى فى تعارض نظراً لاختلاف فهمها ونظرتها لأسرار المنطقة وخصوصياتها.. كان العالم الخارجى المخطط لكل ذلك متوحد النظرة.. ومستعداً للهدف.. خاصة بعد أن نجح سيناريو الأحداث الذى أعده - ولمعونة أصدقائه - فى المنطقة.

ذ لك هو التباين الذى يعنى كل شىء.. فبينما من العرب من يؤمن أن مشاكل المنطقة يجب أن تظل عربية يرى الآخرون حياتهم ومستقبلهم وثرائهم فى جعلها بيد أمريكية.. وعلى وجه الخصوص.

* * *

فى بداية أعمال القمة العربية الطارئة قال الرئيس مبارك فى كلمته: « .. إن المظلة العربية هى الحل الوحيد ولا حل للازمة إلا بانسحاب العراق من الكويت وعودة الحكومة الشرعية.. ولا يجوز فرض الوحدة بالقوة... قرار جامعة الدول العربية بداية تبنى عليها ونضيف إليها... نلتزم بأن جميع أقطار الخليج تحت مظلة الحماية العربية!!! ».

ولم يستمر المؤتمر سوى جلستين.. وفى نفس اليوم وقبل أن نبدأ الجلسة فى الساعة الخامسة والربع طلب الأمير الشيخ جابر الأحمد الصباح الخروج من الجلسة.. وطلب طائرته وغادر القاهرة!!!!

وشهدت الجلسة الثانية لقمة القاهرة الطارئة خلال حاد بين وفد العراق ووفد دول مجلس التعاون الخليجى.

ثم كان الخلاف شديداً حول المادة الخامسة من شروع القرار والتى تنص على : شجب التهديدات العراقية لدول الخليج العربى واستنكار الحشود العراقية على حدود المملكة العربية السعودية!!.

عموما فقد كانت أعصاب اعضاء جميع الوقود متوترة للغاية إلى حد التطاول!! وعدم النظام.. تحدث الفريق عمر حسن البشير رئيس مجلس قيادة الانقاذ السودانى عن الدول العربية والتى طلبت قوات أجنبية «ولم يذكر بالإسم هذه الدول».. وسرعان ما تدخل الملك فهد بن عبد العزيز وقال فى صراحة «تريحنا»: «إن السعودية طلبت المساعدة والمساندة وهذا حقها... وهناك التزام بعدم استخدام هذه القوة ضد أحد..!!».

ولا تعليق..

الأعجب أن ياسر عرفات ومن بعده رئيس الجمهورية اليمنية قدموا أوراقا بأسماء رؤساء دول اقترح عليهم السفر لبغداد لعقد محادثات مع صدام حسين ورفض الطلب..

ثم أن دول مجلس التعاون الخليجى تقدم بمشروع قرار.. وانضمت إليه مصر وسوريا والمغرب والصومال.. وكان المشروع يقضى على أنه :

أولا : - إن القمة العربية غير العادية والمنعقدة بالقاهرة.. وبعد الاطلاع على قرار مجلس جامعة الدول العربية والذى انعقد بالقاهرة يومى ٢ و ٣ من اغسطس ١٩٩٠م.

ثانيا : - وانطلاقا من أحكام ميثاق جامعة الدول العربية ومعاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادى بين الدول العربية.

ثالثا :- وانطلاقا من ميثاق الأمم المتحدة.. وبشكل خاص للفقرة الرابعة من المادة الثانية.. والمادتين ٢٥، ٥١.

رابعاً : - وإدراكاً للمسئولية التاريخية الجسيمة التى تلتها الظروف الصعبة الناتجة عن الاجتياح العراقى للكويت وانعكاساته الخطيرة على الوضع العربى والأمن تقرر ما يلى :

(١) تأييد قرار مجلس جامعة الدول العربية الصادر فى ٣ أغسطس ١٩٩٠م وتوصيات المؤتمر الإسلامى الصادر فى ٤ أغسطس ١٩٩٠.

(٢) تأكيد الالتزام بقرار مجلس الأمن رقم ٦٦٠ بتاريخ ١٩٩٠/٨/٢، ورقم ٦٦١ الصادر بتاريخ ١٩٩٠/٨/٦ ورقم ٦٦٢ الصادر بتاريخ ١٩٩٠/٨/٩ بوصفها تعبيراً عن الشرعية الدولية[١].

(٣) إدانة العدوان العراقى على دولة الكويت الشقيقة وعدم الاعتراف بقرار العراق بضم الكويت إليها ولا بأى نتائج أخرى مترتبة على غزو القوات العراقية للأراضى الكويتية ومطالبة العراق بسحب قواته فوراً وإعادتها إلى مواقعها السابقة من تاريخ ١٩٩٠/٨/١م.

(٤) تأكيد سيادة الكويت واستقلاله وسلامته الاقليمية باعتباره دولة عضواً فى جامعة الدول العربية والأمم المتحدة والتمسك بعودة نظام الحكم الشرعى الذى كان قائما فى الكويت قبل الغزو العراقى.

(٥) شجب التهديدات العراقية لدول الخليج العربية واستنكار حشد العراق لقواته المسلحة على حدود المملكة العربية السعودية وتأكيد التضامن العربى الكامل معها ومع دول الخليج العربى الأخرى.. وتأييد الإجراءات التى تتخذها السعودية ودول الخليج الأخرى!!! إعمالا لحق الدفاع الشرعى وفقا لأحكام المادة الثانية فى معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادى بين دول الجامعة العربية والمادة ٥١ فى ميثاق الأمم المتحدة وقرار مجلس الأمن ٦٦١ بتاريخ ١٩٩١/٨/٦م. على أن يتم وقف هذه الإجراءات فور الانسحاب الكامل للقوات العراقية وعودة السلطة الشرعية للكويت.

---

(١) فى أسبوع واحد من بدء احتلال العراق للكويت اتخذ مجلس الأمن ٣ قرارات حكمت فيها وأقرت بالحقوق على ظنها !! هذا مع أن أسرار تلك الأحداث كلها لم تكشف حتى الآن !!!

(٦) الاستجابة لطلب المملكة العربية السعودية ودول الخليج العربى بنقل قوات عربية[1] لمساندة القوات فيها دفاعاً عن أراضيها وسلامتها الإقليمية ضد أى عدوان خارجى.

(٧) تكليف القمة العربية الطارئة لأمين عام جامعة الدول العربية بمتابعة تنفيذ هذا القرار ورفع تقرير عنه خلال ١٥ يوماً إلى مجلس جامعة الدول العربية لإتخاذ ما يراه فى هذا الشأن.

ثم أنه قد تم التصويت على مشروع هذا القرار بأغلبية ١٢ صوتا لصالح المشروع كانت الدول المؤيدة للمشروع: - السعودية - الكويت - الإمارات العربية - قطر - البحرين - عمان - المغرب - الصومال - جيبوتى - لبنان - مصر - سوريا.

والدول التى رفضت المشروع : - العراق.. فلسطين.. ليبيا.

والدول التى تحفظت على المشروع : السودان.. الأردن.. موريتانيا.

والدول التى امتنعت عن التصويت : اليمن.. والجزائر.

والدولة التى تغيبت كانت : تونس.

رغم نجاح جناح دول البترول فى إقرار هذا المشروع إلا أن نتيجته كانت ملفتة وكشفت الضباب عن خلافات واتجاهات عديدة متباينة لم تكن ظاهرة على السطح قبل حرب الخليج.. ومن ثم كان ذلك الانقسام العميق والمتعدد الدرجات.

ربما كان من اليسير تفهم مواقف دول الخليج - أعضاء مجلس التعاون الخليجى والتى تضامنت مع حكومة الكويت فى إقرار المشروع.. فالإمارات العربية كانت مع الكويت فى المذكرة التى قدمها العراق لتوضيح موقفه من الكويت فى مجلس الوزراء للخارجية العرب فى ١٧ يوليو ١٩٩٠.

أما المملكة العربية السعودية فتصرفاتها تشعر المراقب بأنها جزعت حقيقة من النبأ الذى سربته المخابرات الأمريكية وأعلنه بوش بأن لوائين مدرعين عراقيين يتوجهها

(١) وهكذا لم يتضمن هذا القرار بالنص الأستعانة بالقوات الأجنبية والتى كانت على أرض السعودية فعلاً آنذاك.

جنوبا من الكويت وفى إتجاه المنطقة المحايدة!!.. والذى شككنا فى صحته ولم تثبته الأحداث.

أما سوريا فلها تاريخها وموقفها معروف مع العراق.. كانت سوريا فى خندق واحد مع إيران خلال حربها مع العرق ويرجع ذلك فى الأساس لأسباب عدة أهمها حكم العلويين وهم نوع متعصب من الشيعة.. يجد نفسه أقرب إلى الشيعة منه إلى أهل السنة هذا رغم أن معظم سكان سوريا من أهل السنة.. وموقف حكام سوريا من الأخوان المسلمين معروف.. وأسألوا حماة وأهلها.. وهذا يفسر أيضا موقفها من حرب لبنان وتأييدها المطلق لمنظمة أمل الشيعية بل أن توتر العلاقات السورية العراقية كان من أصعب الخلافات العربية قبيل غزو الكويت وكان الصراع العراقى - السورى على أرض لبنان يتمثل فى معاونة العراق للميشيل عون والذى استغلته سوريا مع القوى العالمية للإطاحة بالمشيل عون خلال فترة الغزو.

أما المغرب فتشترك مع نظام الحكم فى السعودية ودول الخليج فى كونها جميعاً نظم سلوكية وراثية.. كما أن هناك علاقات خاصة تربطها بالمملكة العربية السعودية.

أما الدول العربية الثلاث الأخرى والتى أيدت قرار دول مجلس الخليج وهى لبنان والصومال وچيبوتى فقد كانت مواقفها جميعا منسجمة وإلى حد بعيد مع أقرب حلفائها من العرب وهم سوريا بالنسبة للبنان.. ومصر والسعودية بالنسبة للصومال وچيبوتى.

أما مصر - فكان موقفها المعروف!!.

على الجانب الآخر.. فإن الدول العربية الأخرى.. ورغم أنها جميعا أدانت الغزو العراقى من حيث المبدأ لحساسيات دولية وتاريخية ونفسية إلا أنها عبرت عن نظرتها وموقفها للأزمة بطريقة عفوية كانت محصلة لظروف واعتبارات تاريخية واقتصادية واجتماعية عانت منها أمام سياسة دول الخليج المالية والاقتصادية العربية.. والعالمية.

فاليمن والسودان وموريتانيا والأردن يجمع بينهم جميعا أنهم من الدول الفقيرة بل والأكثر فقراً من الدول العربية.. وإن امتازت الأردن بالروابط الخاصة بينها وبين العراق.

إن من يحاول أن يربط مواقف هذه الدول الفقيرة الفريد بأسباب عديدة منها الإدعاء بوعد العراق تلك البلاد بالمساعدة عليه أولاً أن يجيب عن أيهم أغنى واضمن العراق المطحون المديون.. أم دول البترول العربية الثرية؟!. هذا إذا كانت المسألة مسألة شراء ذمم ومواقف وفقط.

أما دول المغرب العربي - عدا المغرب - فإن موقفها كان معبراً عن الرأى العام فيها والذى رأى فى التدخل الأجنبى الخطر الحقيقى على المشرق العربى. فقد عبرت التيارات السياسية والحزبية المتعددة فى تلك الدول عن تضامنها مع شعب العراق ضد كل الضغوط الأمريكية والدولية.. وتمسكوا فى المقابل بالبحث عن حلول عربية خالصة.

وبالنسبة للفلسطنيين كان لتصريحات صدام حسين المعادية لإسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية ورغبته فى الربط بين الأزمة الكويتية والفلسطينية وحلهما معاً صداً طيباً فى الأوساط السياسية الفلسطنية وبين الفلسطنيين فى الأراضى المحتلة والذين يحاربون حرباً حقيقية منذ أكثر من عامين.. ويسقط منهم الشهداء يومياً.. ولم يتحرك العالم.. أو حتى ينفعل العرب.. ولم يلمس هؤلاء المجاهدين جهداً حقيقاً فى النهج السلمى أو الاستسلامى للدول العربية.. وعليه فكان صدام بارقة أمل.. هذا رغم اعتماد المنظمة والشعب الفلسطينى مالياً على معونات دول الخليج العربى.

* * *

يمكن فى الحقيقة وصف أزمة الخليج بأنها الفيروس الذى أظهر عوارض المرض الكامن فى الجسد العربى الخامل.. وأظهر الأعراض واضحة جلية.. عمت الجسم كله.. من رأسه إلى قدمه.

عاش الجسد العربى سنوات يشكو من عدم المبالاة ومن عدم أى رد فعل للعديد من الحوادث والكوارث والأزمات والهزائم العسكرية.. رغم تنوع هذه الكوارث وتعددها فلم نلمس على المستوى العربى سوى اللامبلاة. وفى ظل هذا السبات كانت الأزمة

الأخيرة حافزاً غريبا فى هذا الجسد الخامل فاولدت حركة وموقف لكنها مريضة.. مختلة متعارضة.. وكأنها إشارة لخلل أساسى فى هذا الجسد الكبير.

من اللازم لتمام التشخيص وضع اليد على موطن الداء لكل ذلك.. ويتفق الجميع على أنه النظام النقدى المتفاوت بين البلاد العربية الشقيقة المتجاورة.. أو ما سببه النفط لبلاد النفط.. ذلك لأن النظام العربى - الإسلامى يحمل فى تلك الحالة بذور تناقض وتشابك فى النظرة القطرية عنها فى ما فوق القطرية.. فالجزائرى جزائرى لأنه يعيش على أرض الجزائر.. وهو فى نفس الوقت عربى مسلم يفرح لما يُسعد اليمنى.. ويتألم لما يوجع الإردنى.. وهكذا.. ميزة كبرى يتمتع بها أبناء العروبة فى وطنهم الكبير.. فقط إذا استغلت.

تحولت هذه الميزة بفعل السياسة العالمية إلى ما يهدد ذلك الوطن الكبير وذلك بخلق التفاوت الاقتصادى الواضح والمتعمد بين ابنائه فكانت تلك السياسية المالية لدول البترول والتى خلقت خللاً نفسياً زاد عمقاً وتأصلاً بارتباط هذه الثروات والدخول البترولية بالنكبات العربية[1].. فلم تعبر ريالات البترول حاجز القطرية بل ظلت حبيسة له.. وعمداً.. هذا مع أن هناك أسساً إسلامية وعربية تجبر أصحابه - هذا لو أردنا الإيمان والحق - فى عبور ذلك الحاجز إلى اللا قطرية العربية الإسلامية.. مثل الزكاة والركاز.. وغيرها. هذا حق الإسلام لا نقاش فيه ولا فضل.. ولا رأى ولا فلسفة.. فهو واجب إيمانى حتمى يقوم عليه الإسلام ذاته..

لعل ذلك الشعور اللاشعورى هو ما أظهر مواقف فى حقيقتها سليمة.. وفى ظاهرها عجيبة.. فالدول التى وقفت مع العراق صراحة أو ضمناً هى الدول الفقيرة المتضررة والتى كان المنطق يدفعها دفعاً إلى جانب دول البترول الغنية ومن يدعى أن موقف هذا الجانب كان نتيجة رشوة عراقية يجب عليه أن يعى إن لم يكن يعلم - أن من يبيع ذاته هو أدرى الناس بأن أى رشوة عراقية من ذلك البلد المطحون المديون بمائة

---

(١) يكفى الإستشهاد بالأزمة الأقتصادية لدول المواجهة بعد حرب ١٩٧٣ مع زيادة عائدات دول النفط بسبب هذه الحرب لأرقام فلكية ثم أمتناع دول البترول خاصة الكويت عن مساعدة مصر الأمر الذى دفع السادات دفعاً لعقد أتفاقية كامب ديفيد.

مليار دولار لا تساوى فى أى جانب من جوانبها - اقتصادية أو سياسية - رشوة الجانب البترولى الثرى والتى تزيد ودائعه ومدخراته واستثماراته عن ٦٠٠ مليار دولار..

هذا من جهة.. ومن أخرى فإن المواقف كانت تلقائية ومتباينة.

أما الدول التى وقفت بجانب دول البترول فإما دول معدومة كالصومال وجيبوتى - وإما دول تمتاز بخبرة سياسية كمصر وسوريا ولبنان.

إن مواجهة الحقيقة أقصى امتحان للإنسان فالفجوة بين الأغنياء والفقراء العرب والتى ظهرت واضحة فى مجريات حوادث الأزمة هى ما تمثل التهديد المباشر للمستقبل العربى كله.. الأمر الذى يجب مواجهته وتنظيمه عربيا وقطريا.. إسلاميا وذاتيا..

فأخطر ما فى الأمر أن هناك من يفكر فى نظام إقليمى جديد للأغنياء ويحميه النظام الدولى.. وتجرى بالضرورة فى فلكه.. على حساب عزل الأنظمة العربية الفقيرة عن ذلك الفلك!!..

سافر وزير خارجية العراق إلى روسيا وحاول استمالتها فلم ينجح.. وبعد يومين فقط كان وزير الخارجية السعودى يقابل الرئيس السوفيتى.. وتمخضت المقابلة عن معونة سعودية قدرها ٤ مليارات دولار!! فقط..!!!!.

هذا وفقراء المسلمين فى السودان والصومال يموتون جوعاً!!.

إن السؤال الذى يفرض نفسه هو هل هذا التناقض الإسلامى العربى فى الغنى والمال طريق الوحدة والقوة؟.. أم ثمن حماية الأنظمة العربية الحاكمة لدول البترول؟!(١).

إن مواقف الأطراف وتحركاتها تشير بكل تأكيد للإجابة المباشرة.. الواضحة. هذا الخلل أظهر نفسه بكل وضوح فى حرب الخليج الأولى بين العراق وإيران.. فبرغم أنها

(١) نستطيع أن نلخص علاقة مشايخ الخليج بالغرب فى هذه الجملة التى كتبتها الموسوعة الأمريكية كوليه CLLIER (الجزء ١٦ ص١٧٥) إن هذه الأنظمة الخليجية مدينة بسلطتها وسيادتها للشركات والحكومات الغربيه وبالتالى فهى ترى أى تهديد للشركات الغربية هو تهديد لها.

كانت معركة وجود وذات عربية وعقائدية أيديولوجية؛ ورغم أن النفط كان يمكن أن يكون عامل وحدة وقوة وتكامل بين منطقة عربية غنية.. وأخرى قوية بدليل انتصارها.. إلا أن نتيجة الحرب لم تكن فى حقيقتها إلا سيناريو مَعُد انتهى بالعراق - بعد أن قدم شهداءه وماله - إلى دولة مديونة لم يتبق إلا تشكيلها واحتوائها ولخدمة غيرها.. ذلك الجانب الثرى وفقط.. الأمر الذى لم يقبله العراق رغم خطورة كل البدائل المطروحة أمامه خاصة غزو الكويت.

لا يحق لنا بعد ضرب هذا المثال أن نثرثر ونتسائل عن صنيعة التوفيق الواجبة والتى كان فى قدرتها حمل النظام العربى كله من عثرته من خلال خطة تنمية عربية شاملة.. حيث أن سياسة دول النفط العربية اسقطت أساسية أن أمن منطقة البترول مرتبط أولاً وأخيراً بأمن وثبات النظام العربى المتكامل بل لعلها أقامت فى نفس الوقت ضمان وجودها على ضعف دول المجاورة العربية.

* * * *

كما تركت الأزمة بصماتها فى العالم العربى اقتصاديا.. فلابد من ترجمة ذلك استراتيجيا وعسكريا.. وعليه فقد كان أخطر التطورات اعلان بعض الدول العربية مساعداتها العسكرية لجانب ضد آخر.. وليس فى الأمر حقيقة أى تعقيد لو كان الأمر عربيا خالصاً.. غير أنه بإعلان أمريكا ومعظم دول أوربا إرسال قواتها إلى منطقة النزاع بناء على طلب السعودية فقد بدأ دور القوات العربية باهتا من ناحية.. ومن أخرى تعقد الوضع استراتيجيا لحتمية انضمامها هى الأخرى تحت قيادة مهيمنة.. هى القيادة الأمريكية طبعاً.

وهكذا فقد توجهت قوات مصرية إلى دولة الإمارات العربية.. كما وصلتها قوات أخرى من سوريا والمغرب. وتوجهت قوات أخرى إلى المملكة العربية السعودية من مصر وسوريا والمغرب مع عشرين دولة أخرى أو تزيد.. هذا فى حين لم تتحرك قوات درع الجزيرة والى تكونت أصلا للدفاع عن الدول الست الخليجية. لم تتجاوز هذه

القوات العربية عشرات الآلاف بينما وصل عدد القوات الأمريكية فقط إلى ما يقارب النصف مليون!!!.. والأمر الذى صبغ التحرك الأجنبى بالهيمنة والدور العربى بالضعف والهامشية.

عندما يتناول المحللون.. المخلصون! تلك النقطة يتناسون أن ذلك هو السيناريو الأمريكى البترولى للمنطقة.. فأمريكا قد خططت لهامشية الدور المصرى.. والسورى كذلك.. والمدهش أن يعلق بعضهم على تلك الحقائق المخزية بأن ذلك الأمر على شاكلته الأمل المرجو.. والغاية المستهدفة طالما «أن جميع الجيوش العربية لا تهز شعرة من شارب صدام حسين!!!».

واسقط الجمع والجميع الأسباب والغايات لتلك النتيجة.. وذلك التوازن المخل!! وعلى الفور وتجاه تلك الحقائق تعالت أصوات تنادى باقناع الدولة الأولى بأنها الأم والحامية والأكثر اخلاصاً فى تأمين النفط وثراوته!!.

بل لم يلبث الأمر أن خطط له الآخرون فقد طرحت فى الأفق مشاريع عدة منها:

(١) نظم اقليمية أوسع من الأساس العربى المفروض.. ونعنى بذلك نظماً تضم أقطاراً عربية وغير عربية متاخمة لها جغرافيا.. فظهر فى الأفق نظام خليجى يضم إيران إلى جانب دول الخليج العربية ومنها العراق أيضا.

(٢) نظم تجمعها أساساً مهام أمينة وتنموية مثل:

تجمع البحر الأحمر: والذى يضم مصر والسعودية والأردن واليمن والسودان واثيوبيا.

تجمع المشرق : ويضم العراق وسوريا والإردن ولبنان وتركيا.

تجمع شمال أفريقيا: ويضم مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا ودول جنوبا أوروبا.

تجمع الخليج : ويضم دول الخليج والعراق وايران.

(٣) بؤرة أمنية مصرية خليجية كنواة لنظام عربى أو اقليمى ينمو ويتطور تدريجيا مستنداً إلى قواعد سلوك ومؤسسات تصنعها هذه النواة ذاتها وتنحصر حاليا فى مصر - السعودية - سوريا.

أهم ما يمكن استخلاصه من مجرد طرح تلك المشاريع أن النفسية العربية مريضة.. والشخصية العربية ناقصة.. والمطروحات ذاتها تعكس الانهزامية الداخلية وبالتأكيد فإن أسباب كل ذلك يكمن أساساً فى القيادات السياسية لذلك الوطن العربى والتى شغلها أمنها الشخصى وفائدتها الذاتية عن هموم الوطن العربى الكبير وآمال ابنائه.. فالأمر الذى لاشك فيه أن القاعدة العربية العريضة تعكس فى إحساسها ورد فعلها تجاه الأحداث - رغم تعارضها - أخوة وحب وإيمان بوحدة المصير.. فرد الفعل يمكن أن نلمسه جميعا بين المواطنين.. وهو فى حد ذاته دليل على وحدة المصير وأخوة لها جذورها.. وتجمعها لغة واحدة.. ودين واحد يوحد ويجمع بين مفهومها ونظرتها للأحداث.

تمت ترجمة كل ذلك على المستوى السياسى فى قرار حكام الأقطار المعنية واتفاقهم ضمنا ومضمونا على الحل الأجنبى للمشكلة.. فى حين كان رد الفعل الشعبى على نطاق العالم العربى كله رفضا قاطعا لذلك المدخل من أساسه.. وسوف تظهر الأحداث فى المستقبل القريب إى الجانبين كان أدق بصيرة وأعمق فهماً. وأعلى نفساً.

- «الأمن القومى العربى كمفهوم مجرد يتعارض مع التعددية الشخصية للدول العربية. فالأمن القومى يرتبط بالدولة القومية ذات النظام السياسى الواحد والسيادة التامة غير المجزأة.. فالأمن القومى الأمريكى مثلا يتعلق بدولة تتكون من شعب ونظام وسيادة.. أما المفهوم بالنسبة للدول العربية فيختلف حيث أن الدول العربية لا تشكل دولة قومية واحدة.. بل يتشكل الوطن العربى من ٢٢ دولة عربية مختلفة المصالح.. متعددة التوجهات.. متشابكة العلاقات الدولية.

كان المفروض أن يتم الاتفاق حول مضمون ومعنى مفهوم الأمن القومى العربى من خلال جامعة الدول العربى غير أن الخلافات بين أعضاء الجامعة أكبر فعلا من

التوافق.. وهكذا انهار أهم مفهوم يتحتم على القيادات العربية تجاه البلاد العربية عامة.. وأهم ما فى الأمر وأمر ما فى هذه الحقيقة هو أن الأمن القومى للعالم العربى جزء لا يتجزأ.. بمعنى آخر فإنه لا يمكن لدولة أن تعيش بمعزل عن الدول العربية الأخرى.. وسط هذا التشرذم تحولت نقاط القوة فى العالم العربى والتى يتحتم الدفاع عنها لنقاط ضعف طمع فيها الطامعون - فعلى سبيل المثال :

- البترول : كسلعة استراتيجية عالمية لها آثارها على اقتصاديات العالم.. ومع أن درس ١٩٧٣م. مازال ماثلا فى الأذهان فإن تطويع هذه السلعة سياسيا من خلال التشرذم العربى كان حقيقة لها أثرها فى أحداث الخليج الأخيرة.

- سيطرة الدول العربية على المضايق الحيوية مثل مضيق هرمز.. ومضيق باب المندب وقناة السويس.. ومضيق جبل طارق وغيرها أمر استرتيجى هام.. غير أن الأحداث الشرق أوسطية التى عصفت ببلدان المنطقة مثلت تهديداً مباشراً لتلك المضايق بل وبلدان المنطقة كذلك.

وهكذا.. فى غياب مضمون الأمن القومى العام أضحت نقاط قوة العرب على أرض الواقع نقاط طمع نمت عند الغرب على حساب العرب.. وعليه فليس بمستغرب أن تشهد المنطقة العربية فى جيلنا هذا وما يتبعه نمو للقوى اللاعربية القريبة والمحيطة بالوطن العربى.. فالتهديد الإسرائيلى للأمن العربى يتخذ يوماً بعد يوم أبعاداً مخيفة.. أما أخطر ما لم يفطن إليه الشارع العربى فى المغرب العربى خاصة فهو التهديد الإيرانى الإيديولوجى.. مع أن مطامعه معروفة.. وجذوره مشهورة تمتد فى حقيقتها لأكثر من ألف عام - ثم كان التهديد المباشر للسودان حتى التخوف من تجزئته .. مع تنامى المطامع والخطر الاثيوبى فى القرن الأفريقى.

إن السؤال الذى يفرض نفسه هو هل سياسة إمراء البترول لها يد فى توجيه الأحداث إلى هذا النحو المؤسف مع غياب الأمن القومى والمصلحة العليا ؟!!

الإجابة صعبة بصورة عامة.. ومتشعبة وتمس كافة الأوجه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية لقيادات المنطقة وشعوبها.. وليس ذلك لنقصا فى

وطنيته وعروبة بعض زعماء العرب قدر ما تكمن حقيقة فى سيطرة الإمبريالية الأمريكية وتوجيه قدرات تلك المنطقة الاقتصادية وتوجهاتهم السياسية بما يخدم أهداف الدولة الأقوى فى هذا العالم.. لا لمصلحة المنطقة ولا الأمن القومى العربى.

هذا.. وإلا كان أبسط المنطق يحتم من الناحية الاقتصادية أصلا الاستثمار الزراعى لمليارات الخليج فى السودان وتنميته الأمر الذى يضمن أمن المنطقة غذائيا بصورة مؤكدة.. وأيضا الاستثمار الزراعى فى العراق والصناعى فى مصر والعراق.. وغيرها.

* * * *

من أشق الأمور على النفس مواجهة الحقيقة.. رغم أنها من أهم عوامل النجاح.. ورغم التغيرات العالمية الطارئة والجذرية فى النظام الدولى الجديد فإن الولايات المتحدة وهى تحاول تشكيله لما يخدم مصالحها لتمثيل وتنفيذ كل استراتيجيتها وأطماعها نحو المنطقة.. وبعجلة يحتمها الخطر الأوروبى المتوقع على زيادة العالم اقتصاديا ومن ثم عسكريا فى المستقبل المتطور.. وربما كان هذا المحور الأساسى هو ما يربط وبقوة بين المتغيرات العالمية وأزمة الخليج الأخيرة.. فالهموم والقضايا مشتركة ومتبادلة التأثير.

يبدو أن سرعة الأحداث العالمية حتمت أيضا سرعة الأحداث وتشابكها فى المنطقة العربية البترولية بدرجة أرهقت المنطق والعقل والعلم أيضا.. فحين اختارت الولايات المتحدة منطقة متفجرة لتجرى فوقها ما سمحت له توازنات القوى الجديدة العاملة.. ولتتحكم منها فى احدى أهم مصادر القوى الاقتصادية الاستراتيجية وهى البترول اسقطت من حسابها نقطة أساسية متأصلة فى النفسية العربية.. وهى الكرامة العربية الأصلية.. فحين تكون أطرافاً عربية أداة فى ضرب وتمزيق جيل كامل فى دولة عربية شقيقة فإن رد الفعل سيتأثر دون شك بتركيبة النفس العربية.. فجرح العدو وإن كان مؤلماً فإن جرح الأخ والصديق أشد إيلاما وأكثر قسوة.. إن ما سهى عن القيادة

الإمريكية أنه من الخطورة دفع الطرف المناهض إلى درجة الجنوح دفاعاً عن الذات والكرامة.. ويزداد الأمر تعقيداً حيث أن دور العراق فى معركة الخليج الأولى كان يجب أن يكافىء عليها من الأخوة العرب.

- المساندين لها آنذاك - لا أن يستغلوه لتحجيم وتسييس العراق!!.

تمثل ذلك عندما ذهبت الاستراتيجية الأمريكية - والعربية!!! إلى محاصرة العراق براً وبحراً وجواً فى محاولة لخنقه!!.. فقام العراق بعقد صلح مفاجىء مع العدو الازلى الأيرانى وضرب بتلك أغرب الإجراءات الدولية.. وهى على حسابات المنطقة آجلاً وبالضرورة.. وهذا المثال الأخير يؤكد ويقطع بأن لا توافق بالضرورة بين المصالح الاستراتيجية الأمريكية والعالمية والمصالح العربية الصديقة لأمريكا من جهة.. ومن أخرى بالنسبة للمنطقة العربية بشكل عام..

من تلك الحسابات لا يبدو أن هناك بصيصاً من الأمل فى أن تخرج الدول البترولية أكثر قوة ولا هيمنة على المقدرات والحسابات العربية.. وعلى حساب العراق الذى يحارب معركة وجوده وحياته.. فالعراق لن يتردد فى ضرب. آبار البترول ولو كانت عربية.. ثم بعد ذلك فليهنأ الجانب الثرى فانتصاره استراتيجيا وبحساب الأرباح والأهداف لا قيمة له..

إن المواقف بعد أن وصلت الذروة كشفت النفوس وعرت الخبايا.. وكم نتمنى أن تعلم دول البترول الثرية أن باقى العرب لا يحسدونهم.. ولا يطمعون فى ثرواتهم قدر ما يعون حقوقهم فى هذه الأموال إسلاميا.. وهو ما سنوضحه فى مكانه.. الأمر الذى يحتمه دين العرب الشامل الإسلامى.. ويوجبه العنصر الثالث من عوامل وأساسيات الإسلام.. وهو الزكاة.

المدهش فى الأمر أن هذا المال العربى يستعمل فى معركة العرب حالياً وبصورة أساسية.. مع جميع الأطراف العالمية إلا الجانب العربى.. الفقير.. المغلوب!!

إن ما سهى على مخرجى هذه السياسة المفضوحة أنه قد تأكد أن دول البترول العربية تستخدم أموال العرب الفقراء لمصلحة قوى العالم الكبرى.. وعلى حساب

الفقراء العرب الأمر الذى أدهش المحللين.. وكان هذا المفهوم تفسيراً لموقف فقراء العرب من أطراف الأزمة مما يؤكد تأصل الإحساس بالظلم إلى حد المجاهرة والشجاعة فى إتخاذ موقف مناهض بطريقة عفوية واضحة.

المثير للعجب مناداة البعض واقتناعهم بضرورة عودة الأمور إلى ما كانت عليه.. أما أكثر المتفائلين فتنادوا بأن ذلك فى إطار ترتيبات أمنية محددة.. واصلاحات دستورية معلنة.. واسقط الجميع أن حقوق العرب الفقراء فى هذه الأموال لن ينالها مستحقيها فى هذه الحالات حيث سيترتب فى مفهوم قيادات البترول وساستها أن منقذهم من ذلك الامتحان العسير كان على حساب الاعتماد على أمريكا!!.

الحقيقة العارية التى يجب على الجميع مواجهتها هو أن الأمور والسياسات قبل نزاع الخليج الأخير لم يحقق للكويت السلامة ولا الحماية.. واستطيع الجزم أن عودة تلك السياسات لن تحقق لنفس الحياة كذلك.. ولن تستطيع مواجهة الحقوق العربية للفقراء العرب فى دول معدمة.. يموت أهلها جوعاً.. فى السودان والصومال وغيرها.

من ناحية النظام الدولى فإنه أول من يدرى ويعى أن عودة الأمور إلى ما كانت عليه بنفس السياسات لن يخدم أهدافها فى المنطقة قدر ما يهددها.

ببساطة شديدة فإن التغيرات العالمية حتمت وسوف تجبر القوى العالمية على تغيير النظام العربى ذاته والبحث له عن صورة أخرى – مقبولة.

ويبقى العراق وحده يحمل فى ظل صراعاته الروح العربية المحملة بكل أثقالها

لك الله يا بغداد.. يا عاصمة السلام

(٩) الاعلام

من أساسيات العمل فى الأزمات والحروب الإعلام.. فالإعلام له دوره وتأثيره على الحرب ذاتها.. وتلك من بديهيات السياسة.

اهتم هتلر بالإعلام والدعاية إلى حد أن شهرة غوبلز اقترنت بشهرة هتلر وكما اشتهر هتلر بجيوشه الجرارة حديثة التسليح فإن غوبلز اشتهر باعلامة.. وتكفى إشارته إلى ذلك «أكذب.. أكذب.. حتى يصدقك الناس».

وكان لذلك أثره على مسار الحرب ونتيجتها.. كانت قوات الحلفاء فى شمال أفريقيا تصلها سمعة الجيوش الألمانية فتهتز قبل محاربتها.. وكان الأمر يمثل مشكلة أمام قيادة قوات الحلفاء لم يجدوا لها حلاً إلا بالاعلام المركز المضاد.. هذا مجرد مثال.

فى أزمة الخليج كان للإعلام دوره الخطير.. وبرز فى ذلك المجال وبصورة مميزة الاعلام المصرى القوى.

منذ بداية الصراع وبعد اجتماع القمة العربية الحاسمة فى ١٩٩٠/٨/١٠ اجتمع الرئيس مباشرة ومع انفضاض المجلس مع رؤساء ومديرى أجهزة الإعلام.. وأدانوا جميعا وعلى شاشات التلفاز عملية الغزو العراقى.. مع اسقاط أسبابه.

وفى شهر ديسمبر اجتمع وزراء اعلام الدول الإسلامية فى مصر.. ثم تم التركيز على اجتماع وزراء اعلام مصر - سوريا - السعودية فى صورة مركزة لدور الدول الثلاث الموحد فى الأزمة وما يمثلوه من ثقل على الساحة العربية.. كان ذلك الواقع إشارة موجزة لأهمية دور الإعلام عند القادة والمخططين.

الحقيقة الملموسة أنه قد برز الاعلام المصرى فى الساحة كسلاح خطير أثبتت قدرته وفعاليته مقارنة لمثيلاته العربية المعضدة والمناهضة. فحين لجأت الأجهزة العربية الأخرى فى إعلامها إلى الخطب الحماسية والتى غالبا ما تفتقد إلى المنطق والحجة وتستخدم الشتائم والسباب مما يفقدها تجاوب الجماهير.. فإن أجهزة الاعلام المصرية أدت بنجاح ساحق هدفها «المرسوم» - بشتى الطرق وكافة الوسائل ولم يستطع أن

يجاريها فى هذا المضمار أى اعلام آخر.. ليس أدل على ذلك من تأثر الجماهير المصرية ولأقصى حد بالاعلام المصرى فى الأزمة الخليجية الأخيرة يقول أحدهم مشيراً إلى ذلك كله: «.. أما نحن فنستطيع أن نختار عدة قوالب لزرع الفكرة حيث يمكننا أن نكتبها مقالاً أو قصيدة تنشر فى الصفحات الأدبية للصحف.. أو فيلما.. أو مسرحية.. أو أغنية.. أو ليلة محمدية.. وغيرها من الأساليب التى من شأنها جذب الجماهير إليها.. إننا استطعنا أن نجعل مسألة إرسال قوات مصرية إلى اليمن عملا عظيماً للزعيم عبد الناصر بعد أن كان منذ أيام قليلة غروراً غير مبرر من الزعيم الراحل.. ونستطيع أيضا أن نجعل الأبيض أسود. والأسود أبيض بنفس الكفاءة.. وفى جميع الحالات نستطيع أن نضمن قدراً لا بأس به من تجاوب الجماهير مع الفكرة!!».[1]

من الطبيعى أن نجاح الإعلام كما يعتمد على قوته فهو يعتمد أيضا على حقيقة اجتماعية مغادها أن تفاوت الثقافة بين أفراد المجتمع أمر حتمى وحقيقة واقعة والأمر كله يعتمد على مدى ونسبة التأثير على أفراد المجتمع ككل دونا عن تصنفيهم والطبيعى فى هذه الحالة أن المثقفين بين أفراد المجتمع سيكونون أقل الجماعات تأثراً بالاعلام حيث يتوفر لهم العلم والتحليل والمنطق.. وهذا ما حدث تماما فى أزمة الخليج الأخيرة.

لن نتناول دور وسائل الاعلام إلا من زاوية دورها فى تشكيل وتصوير صورة الصراع للمجتمع المصرى.. فرغم حرية الصحافة ونعمتها فى مصر فإنه منذ اللحظة الأولى لمسنا على الفور الكيل بمكيالين.. فجميع صور الاعلام مسخرة وبتركيز شديد لمساندة وجهة النظر السعودية الكويتية.. وفى المقابل كان هناك حجراً ظالماً على وجهة النظر العراقية.. حتى لو افترضنا بخطأه.

فى بداية الصراع سياسيا وقبل غزو العراق للكويت كان الرئيس مبارك قد اعلن أن للعراق حقاً فى بعض مطالبه.. وبعد الغزو لم نسمع كلمة عن أى من تلك المطالب أو تلك الحقوق!!

---

(١) السيد/ حامد العويض- فى ١٧/١٠/١٩٩٠م.

من المتفق عليه سياسيا واستراتيجياً أن الحروب قد تقع اسبابها دون اطلاق رصاصة أو تحرك عسكرى.. فلم تستطع مصر ولا الدول العربية جميعها ادانة اسرائيل سياسيا فى حرب ١٩٦٧م والسبب فى ذلك كان اعلان مصر إغلاق مضايق البحر الاحمر فى وجه اسرائيل مما اعتبر على المستوى السياسى بمثابة عمل من اعمال الحرب.. هذا رغما عن اعلان الرئيس الراحل جمال عبد الناصر نيته ورغبته فى حل الامر سلميا وبدء الانسحاب من سيناء!!!.

فهل كانت اسباب النزاع السياسى العراقى الخليجى على هذا المستوى؟! الاجابة على هذا السؤال اساسية فى تقييم هذا الصراع.. وحتى علاجه.. والرئيس مبارك أعلن رأيه قبل الغزو كما أشرنا.. اما بعد الغزو فكان الاسقاط!! لم تشر اية وسيلة من وسائل الاعلام عن تلك المسألة الاساسية أو النقطة المحورية وتم تركيز الأمر كله على الغزو فى حد ذاته.. وبالتالى ادانته.

قد يتنادى البعض بأن الغزو لايبرر.. والامور والمشاكل بين البلدين يجب حلها سلميا.. وهذا حق.. لكن الأحق أن نعلم اولا تلك الاسباب.. ونقيم اهدافها ونحدد اهميتها بالنسبة للعراق.. مع حساب ظروف العراق ونظرته الذاتية لكل تلك الامور.. وهل تمثل تلك الاسباب حربا سياسية تستدعى القتال والغزو؟!

يقيناً لو تم كل ذلك لتغير ميزان الفهم والتقدير تماماً.

بداية فإن النظرة التحليلية لذلك الاعلام سارت فى كل اتجاه ومن ثم كان من اليسير مناولتها.

اعتمدت النظرة الاعلامة اساساً فى تبرير اسباب الغزو العراقى الى انها ترجع الى اسباب تاريخية.. واطماع اقليمية وبترولية.. الخ.

غير أن ادنى تحليل وابط منطق يقران بأن الاجراء العراقى لايمكن تبريره على ذلك المنوال.. مع انه يريد أن يقول لأصحاب «خندق الأمس» فى حرب ايران ان العراق لايمكن ان يموت ببطء تجاه السياسات العالمية والتى ينفذها امراء البترول العرب مهما كانت المحاذير.. ودراسة ظروف الحرب وغزو الكويت توضح ان موقف العراق آنذاك كان

فى منتهى الحساسية.. بل وايضاً الضعف.. فالحرب مع ايران لم تنته.. بل توقفت بناء على طلب ايران وقف اطلاق النار.. كما أن طبيعة الصراع تؤكد استمراره.. وغزو الكويت جنوبا يتيح لأيران الحق كل الحق فى انتهاز الفرصة واستئناف القتال.. ولو توقعنا ردود الفعل العالمية المؤكدة لغزو الكويت فإن العراق اول من يعلم أن تدخلاً امريكيا احتمال شبه مؤكد والحرب ليست مستبعدة على الأطلاق.. كما أن الحرب تحتاج لأموال.. فالجيوش تسير على بطونها.. والعراق قبل الأزمة مدانة بمائة مليار دولار فقط لاغير!!! هذا والجيش العراقى مرهق ولاشك فقد انتهى لتوه من حرب شرسة استمرت ولأكثر من ثمانية اعوام فقد فيها جيلا كاملا..

فلم هذه المغامرة الغير مضمونة العواقب؟!

وما الذى حدا بالعراق لمثل ذلك كله؟!

كان رأى الاعلام كله فى تناوله لتلك المسائل الحيوية - ضمنا وليس تحليلا - أن العراق قد اخطأ التقديرات وقصر فى الحسابات!!

لكن احداً لم يتناول بالتحليل ولاتناول البدائل ولو نظرياً.

هذا مع ان ادنى تحليل يؤكد أن العراق مع كل نقاط ضعيفة ورغم دقة موقفه كانت حساباته سليمة.. وخطأ العراق كان مركبا على خطأ الجانب العربى البترولى والذى رمى بجميع اوراقه للجانب الامريكى والذى.. بدوره.. لم ينظر إلا لصالحه فهاجم العراق وغامر بالكويت واستبشر خيراً بفقدانه لآبار الكويت ومعامل تكريره فهو المستفيد الاول والأوحد من كل تلك الكوارث العربية.[1]

---

(١) فى كتاب "القادة" لبوب وودرو The Commanders BOB يؤكد الكاتب أن القرار فى تلك الأزمة كان خاصاً بالرئيس بوش العبقرى الديكتاتورى.. ولم يغضب الرئيس بوش بل قال معلقاً على ذلك «أننى أستمع إلى نصائح وتقارير المساعدين وأعتز بهم ولكن عندما تصبح مسئولية الرئيس هى أتخاذ القرار فهو وحده الذى يصدر الأمر للقائد العام.. والقائد العام يبلغه للقادة.. والقادة للضباط والجنود.. القرار دائماً هو قرار القائد الأعلى» نقلاً عن الأهرام ١٩٩١/٥/٧م.

فأين العرب والمسلمين وسط تلك الأنواء.

كان الأمر مركبا حتى أن بعض الأصوات لمحللى الاعلام تنادت بأن الأمر كله لايعدو تمثيلية بين امريكا وصدام حسين على أن يتقاسم الطرفان فيما بينهما منابع النفط العربية!!! وبشرط أن يكون صدام رجل امريكا الاول فى المنطقة!!

هذا الادعاء مردود عليه بأن امريكا تقرر السياسة الاقتصادية العالمية طالما كان البترول تحت امره امراء البترول العرب وليس مثل صدام.. صاحب النزعات القومية.. وذو التاريخ السياسى المعروف.

لجأت وسائل الاعلام الى زغزغة عواطف القراء والمواطنين بالتركيز على ادعاءات واتهامات بوقائع وفظائع ارتكبتها القوات الغازية فى الكويت.. فمن ادعاء بانتهاك الحرمات.. الى سرقة سيارات المواطنين.. الى نزع اجهزة التنفس الصناعى من الاطفال المرض واخراجهم من تلك الحضانات الصناعية والقائهم على ارضية المستشفى حتى الموت!! وكذلك الادعاء ببقر بطون الكويتيات بعد اغتصابهن.. كذا نهب الاغذية من المنازل.. الى آخره.

هذا النهج الاعلامى يهز فى النفس ارق الاحاسيس دون شك - كما أن رد الفعل مضمون فى هذه الحالة.. غير ان أبسط مبادئ العدل تستوجب التأكيد من هذا الادعاء.. غير ان هذا الاتجاه مردود عليه.

فالعراق عندما احتل الكويت حتمت عليه مبادئ الاستراتيجية العسكرية والمتفق عليها أن لايلجأ إلى هذه المهاترات.. وليس لذلك ادنى علاقة بالاخلاق والاخوة والدين.. بل هى استراتيجية الضم والاحتلال.. فتلك الاساليب تضر اول ماتضر بالقوات الغازية.. وهى تنمى روح المقاومة والانتحار الأمر الذى سوف يترجم نفسه فى صورة مقاومة لذلك المحتل مع اضطراب أمنى يهدد اول مايهدد الطرف الغازى هذه السياسة يمكن التأكد منها بدراسة استراتيجية القوات الالمانية عند غزوها اوروبا فى الحرب العالمية الثانية.. واستراتيجية القوات الامريكية بعد نهاية تلك الحرب وفى حرب كوريا وفيتنام.. بل واستراتيجية اسرائيل عند غزوها الجولان وغزة والضفة سنة ١٩٦٧.. هو أمر أساسى إذاً تحتمة من ناحية العلم سلامة القوات المحتلة اساساً.. ولا تستهدف الا مصلحة الطرف الغازى والمنتصر.

عندما فرضت تلك البديهة نفسها تنادى بعض الكتاب أن لتلك الافعال معنى آخر يتمثل فى أن العراق ليس فى نيته ضم الكويت!! ولم يشككوا فى تلك الادعاءات ذاتها نكاية فى العراق وفى صدام.. فهم الهدف الاساسى غير أن وكالات الانباء ذاتها نقلت - وبدون تعليق - مايؤكد العلم والحقيقة ويهدم الادعاء والاعلام.

اعلنت صحف القاهرة فى ٢٢ أغسطس ١٩٩٠ نقلا عن وكالات الانباء العالمية خبراً عن «اعدام السلطات العراقية لضابط عراقى.. وعلقت جثته فى أحد ميادين الكويت بعد أن ادنته محكمة عسكرية عاجلة باشتراكه فى نهب المحلات والممتلكات الخاصة بمواطنين كويتين.. وقالت السلطات أن هذا هوجزاء كل من ينهب.. واكدت وكالات الانباء الغربية!!! أن الحكومة العراقية اصدرت أحكاما قاسية على كل من يثبت تورطه فى عمليات النهب!!»[1]

ونقلا عن جريدة الاهرام الرسمية فى ١٩٩٠/١٢/٢م تأكدت السياسة فقد ذكرت خبراً عن اعدام سبعة من العراقيين فى الكويت بعد اتهتمهم بالسرقة.. «ذكرت صحيفة الجمهورية العراقية امس ان سلطات العراق قامت بشنق سبعة رجال ادينُوا بالسرقة فى الكويت امام ضحاياهم أمس الاول.. وقالت الصحيفة أن الاشخاص السبعة انتحلوا شخصية رجال أمن وكانوا يرتدون ملابس عسكرية للايقاع بضحاياهم الذين تعرفوا عليهم.»

تعدد هذا الموقف مرات عديدة نشرتها وكالات الانباء..

هذا الموقف الثابت يثبت الحقيقة التى لامفر منها ولا سبيل لانكارها.. فالرئيس العراقى والذى يعتمد على جيشه لايستطيع أن يغامر باستراتيجية تجاه نطحات فردية..

الأمر الذى يجب ذكره هو أن المحلل لايستطيع أن ينفى بعض الاحداث لمجرد النفى فلا بد وأن تقع بعض الحوادث.. وذلك امر طبيعى ومتوقع.. وتقييم تلك الحوادث يجب أن يكون من خلال تقييم الحالة النفسية فى ظروف الحرب والموت.

---

(١) جريدة الأهالى المصرية فى ١٩٩٠/٨/٢٢م.

وفى اثناء حرب الفتح الاسلامى الأول وفى فتح دمش كان من بين جنود السلمين ابو جندل بن سهيل بن عمرو.. بطل حادثة صلح الحديبية والذى جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن أصر ابوه سهيل بن عمرو على استعادة ابنه للكفار... فقال رسول الله لابى جندل: اصبر وسيجعل الله لك مخرجاً..

وكانت تلك الحادثة مدخلاً لصلح الحديبية.

هذا المسلم الابى والذى عذبه الكفار فاستمسك بدينه كان فى جند ابى عبيده بن الجراح فى فتحه لدمشق.. وقد حدث أن فتنت الحياة فى دمشق بعض هؤلاء المسلمين ومن بينهم ابو جندل فشربوا الخمر.. قبض ابو عبيده على جنوده وبعث بسؤال الى عمر فى شأنهم فكان جوابه أن كلف ابا عبيده سؤال هؤلاء النفر امام جماعة من المسلمين ايرون الخمر حلالاً أم حراماً؟.. فان رأوها حلالا فيضرب اعناقهم لانهم استحلوا ماحرم الله.. وإن رأوها حراماً فليقم عليهم الحد.. واقام ابو عبيده على هؤلاء الجماعة الحد الشرعى.. وبمشهد من عامة المسلمين.

لست اقارن فى هذا المقام بين عمر وصدام.. فليس بعد عمر.. ويقينا لن يكون غير أن مايجب الاشارة إليه والتنويه به أن الاخطاء واردة دون شك خاصة فى ظروف الحرب وذلك لملابساتها النفسية الاكيدة.

كان ولابد من مناولة شخصية الرئيس صدام حسين اعلامياً.. وهنا كان السقوط.. تتابعت المقالات.. وتوالت الكتب عن صدام.. وكأن مفاسد العالم كله قد تركزت فى هذا الرجل.. فلم يمكن حصر من قتلهم برصاص مسدسه.. اما جرائمه فقد فاقت الاقدمين والآخرين.. بل لقد ألفت مسرحيات عن الرجل مثلته كأنه لاهم له الا انتهاك الحرمات وغزو النساء الى آخره.. عشرات وعشرات الكتب تناولت شخصية صدام فى اشهر قليلة معدودة.. ونسى الجمع والجميع وسط هذه الموجة العاتية الاعلامية أن هذه الاقلام هى ايضا من أشادت ببطل القادسية الثانية ومحرر الفاو.. وهازم المجوس الايرانيين بعد انتصار العراق فى حربه ضد ايران الخمينى!!! بل لقد وصل الأمر أن استعان الاعلاميين باقطاب علم النفس فأفتى اكثرهم بأن شخصية صدام

مصابة «بالبارانويا» أى بثلاثة ظواهر عرضية مرضية متتالية العظمة.. الاضطهاد.. والعدوان مثل نابليون وهتلر وموسوليني!!! ونسى الاستاذ العالم!! أن تشكيل وتقسيم هؤلاء الرجال جاء من قبل الطرف المنتصر والذى اغرق العالم بالكتب والافلام لترسيخ ذلك المفهوم وتثبيت تلك النظرة.

قال ذلك العالم النفسى والاستاذ الجامعى أن ذلك كله «قد يكون مرجعه الى كون شخصية صدام تشعر بعجز داخلى شديد قد يكون عجزاً» «جنسيا» و«ضعفا شديداً في الاحساس بالرجولة!!!»

هذا مع أن كتباً عديدة افاضت فى نزوات صدام.. الجنسية!!!

منتهى التناقض والتعارض.

تناس الجميع أن تاريخ صدام حسين بدا كرئيس للجمهورية العراقية فى الوقت الذى بدا فيه الصراع الابديولوجى مع ايران... وعليه فلم يلتقط الرجل نفساً للحياة والمتعة كغيره من الكتاب والعلماء والافاضل.

ثم كان حادث اغتيال الدكتور/رفعت المحجوب اشارة إلى عقلية ونوعية هذا الاعلام ورجالاته.. فلم يجتهد رجالات الاعلام لتفسير الحادث واسبابه قدر استغلالهم للحادث ذاته فى اطلاق اتهاماتهم ضد الجماعات الارهابية الفلسطينية والعراقية والاردنية!!! والتى تعيش فى مصر!!.. وكأن هذه القوى فى وضع يسمح لها بالحركة وإستعداء مصر بشكل حقيقى مع بقية العرب!!! وراحت الحملة المحمومة تعمل على تعبئة الرأى العام المصرى ضد الاخوة العراقيين والفلسطينيين وغيرهم!! واستمر الأمر فى تصاعد حتى تم ضبط تنظيم الجهاد والمسئولين عن الحادث.. أغرب ماصاحب تلك الحملة الاعلامية الاستعانة برسامين تشكيليين لدراسة الجماجم والملامح ولهجات ومن ثم جنسيات المتهمين فأفاد البحث بأن المتهمين أحدهم فارسى.. وتركى.. ومصريون... هكذا.. ولاعجب فى الأمر كله أن الحملة الصحفية بدأت فى الاجتهاد والتحقيق واثبات الادلة!! والحث من فورها على اتخاذ مواقف دبلوماسية واجتماعية... وهى مهام خارجة عن دور الاعلام على قدر علمى.

وكمحاولة لزيادة الانشقاق بين مصر والعراق انتهزت المخابرات الإسرائيلية الفرصة فكتب عميل المخابرات الاسرائيلية «الموساد» السابق فى كتابه «الخديعة» أن «عملية ابو الهول «سفنكس» التى قامت بها اجهزة الموساد لاغتيال عالم الذرة المصرى د/يحيى المشد تمت بالتعاون بين عالم طبيعة عراقى والمخابرات الاسرائيلية»

وعلى الفور تطفو اسئلة عديدة على سطح الاحداث.. فلماذا نشرت هذه الادعاءات فى ذلك الوقت الحرج بالذات؟.. وما الهدف منها؟.. وما فائدة العراق من اغتيال د. المشد؟!

ثم لم ينته الاعلام فسرعان ما تعالت الادعاءات بوجود علاقة خاصة واتصالات بين صدام واسرائيل العدوين اللدودين؟!.. واغرب ما فى هذه الادعاءات انها اعتمدت على تقارير اسرائيلية!! منها مجلة «جورنال جين الدفاع الاسرائيلى» جاء فيها: «اثناء الحرب العراقية الايرانية كانت هناك دلائل على ان العراق قد تتخذ موقفا معتدلاً من اسرائيل وقد بعث العراق برسائل إلى اسرائيل توصى بامكانية اتخاذه سياسة تؤيد الحل السياسى للنزاع العربى الإسرائيلى!!».

وبفرض صحة ادعاءات المجلة الاسرائيلية اليس هذا المنهج الف باء السياسة والحرب؟!.. بل ازيد فاقول أن العراق رأى فى حساباته الا يفتح هذا الباب مؤقتا حتى بعد اعتداء اسرائيل وتفجيرها للمفاعل النووى العراقى.. فقد كان مشغولا بحرب ايران.. حرب المشرق العربى كله.

هذا مع ان ذلك الاعتداء والفعل العملى الثابت يهدم ذلك الادعاء من اساسه أن من نادى بأن سياسة صدام تخدم السياسة الاسرائيلية التوسعية فقد نادى بذلك الاسرائيليين انفسهم.. ذكر ذلك خبير شئون العراق بجامعة تل ابيب فى دراسة له.. ثم سرعان ما تلقفها الفاهمون من رجالات الاعلام!!

ان ما يجب أن نواجه به أنفسنا هو الحقيقة الماثلة المكتوبة فى الكنيست الاسرائيلى فلاسرائيل أهدافا معلنة ثابتة تسير فى تنفيذها وتستند إلى برنامج محدد ومعلن سواء ساعدتها ظروف أو عارضتها قوى عربية.. وهى فى سبيل ذلك تعتمد

على سياسة القوة وفرض الأمر الواقع.. والمدهش أنه فى حين اسقطت باقى الدول العربية هذا الواقع الملموس والذى نعيشه فقد واجهت العراق ببعث قوة عربية لها ثقلها ومستندة إلى اسلحة متقدمة كيميائية وغير كيميائية وسارت فى طريق الاسلحة النووية وتصنيعها.. كل ذلك على حساب رفاهية الشعب العراقى الاصيل.. الأمر الذى فرض نفسه فى صراع الخليج.. أما اسرائيل فكيف لاتنفذ سياستها واطماعها وسط جمع مستسلم.. أن احق ماتخشاه اسرائيل كان القوة الوليدة العراقية.. غير أن خشية الامراء العرب على أموالهم وملكهم كان أكبر!!... واكبر دليل على تلك الحقائق موقف اسرائيل تجاه النزاع الأخير وضغطها على الولايات المتحدة لحل المشكلة عسكريا والقضاء على المهد العراقى..

تعالت أصوات رجالات الأعلام فأخذت على العراق غزوه الكويت وقالت أنه كان من الأنسب أن يوجه قوته لحرب إسرائيل بدلا من الجانب العربى الكويتى ولنا أن نتساءل.. هل العراق وبعد حربه المريرة مع إيران والتى أدانته بمائة مليار دولار كاملة مطلوب منها إثبات عروبتها بحرب إسرائيل الآن مباشرة؟!

.. فأين باقى الدول العربية والإسلامية إذا؟!.

إن المشكلة اليهودية على أرض فلسطين واجب عربى وإسلامى لا عراقى.. وهو بالقطع خارج قدرة دولة منفردة.. وأكاد أجزم أن دور الإمبريالية العالمية.. عن طريق عملائها - كان هدفه الأساسى تكبيل العراق المنتصر القوى بالديون لتحجيمه ضمانا لأمن إسرائيل.

كانت مجزرة القدس العربية إثباتا لكل ذلك.. واثباتا للاسقاط العربى.. فقد أغارت القوات الإسرائيلية على الشعب الفلسطينى المسلم الوحيد فى الساحة!!.

وقامت بمجزرة ضد المسلمين العزل لأنهم أرادوا أن يمنعوا إقامة معبد يهودى فى ساحة المسجد الأقصى.. الحرم المقدس.. ثالث الحرمين الشريفيين عند المسلمين وسقط فى يوم واحد ٣٣ فلسطينيا ومئات الجرحى برصاص اليهود.

وسرعان ما تنصل الجميع من مسئولياتهم!!! بل والقوها على الجانب العراقى!!!
الجانب الذى لم يلتقط أنفاسه منذ أكثر من أثنى عشر عاما..

هذا هو المنطق.. منطق المرض..

أما رد الفعل العالمى والذى طالما استند عليه الجانب المناهض للعراق فلم يحرك ساكنا.. ولم يهتز مجلس الأمن ويشمر عن ساعده.. ولم نر قرارات ولا جيوش.. وقطعا لن نرى ولن نسمع.

من الأمور الأخرى التى ركزت عليها أجهزة الاعلام هو موقف الحكم العراقى من المشكلة الكردية.. وما أفرزته من معارك بين قوات الانفصال الكردى وقوات الجيش العراقى.. وما نتج عن كل ذلك من ضحايا ومآسى.

قبل الاسترسال فتلك أعراض القضية.. ومن البديهى عدم الحكم على الظاهرة مع اغفال الأسباب والدوافع.. وأسباب تلك القضية يجب أن تكون معلومة جيداً حتى يمكن مناولة تلك القضية المناولة السليمة العادلة.. فالقضية ليست بالقطع عراقية - كردية بل هى متشعبة متعددة معقدة.. فالشعب الكردى الإسلامى السنى مقسم بين خمسة بلدان هى إيران.. تركيا.. العراق.. سوريا.. والاتحاد السوفيتى..

ونظرا لتداعيات الموقف العربى منذ الحرب العالمية الأولى إلى وقتنا هذا فقد ظهرت مشكلة القوميات وهددت فى حقيقتها الوطن العربى ومزقته.. فكما قامت إسرائيل برزت مشاكل الطوائف والقوميات.. فظهرت على ظهر الأحداث المشكلة الكردية.. غير أن هذه المشكلة لم تكن وقفا على العراق.. بل فى البلاد الخمسة المتشابكة حدوديا وكان هدف الحركة الكردية على الدوام الاستقلال بقومياتهم.. وكأن الانقسام الذى حدث للأمة الإسلامية لم يكتمل بعد!!.. وعليه فقد قامت الدول المذكورة باجهاض هذه الحركة ومحاربتها.. ثم استخدمتها كل بدورها كورقة سياسية فى النزاعات السياسية والحدودية فيما بينها.. ولم يكن أمام الحركة الكردية القومية إلا الاستفادة بدورها من هذا الموقف الفريد.. فلعبت على الأطراف جميعها.. ولعبت بها الأطراف جميعا.

لم تكن العراق الدولة التى وجهت لحركة الكرديين القومية الضربات الموجعة قدر ما كان الأمر فى تركيا.. وفى إيران حيث تم ترحيل معظمهم..

هذه الحقائق الثابتة تستشهد عليها بحديث للسيد / جلال الطالبانى السكرتير العام للاتحاد الوطن الكردستانى نشرته جريدة الغفير لسان الحركة الإسلامية فى كروستان العراق حيث يقول: «... إن الحل المنشود باسم الاسلام[1] إلى الآن فى رأيى لا يحل القضية الكردية.. أما الحل الإسلامى الحقيقى فنحن نعتقد بحل القضية الكردية.. كيف؟!.. لقد سبق وبينت فى مقابلة مع جريدة «كيهان» الإيرانية قبل ثلاث سنوات أن الشعب الكردى هو شعب من شعوب الأمة الإسلامية.. إذا أخذنا الأمة الإسلامية ككل نرى أن الأمة الإسلامية تتألتف من شعوب خلقها الله.. هذه الشعوب هى الشعب الكردى والعربى والفارسى والآذرى والباكستانى والاندونسى« والماليزى.. إلى آخره من الشعوب المعروفة فالشعب الكردى هو شعب من شعوب الأمة الإسلامية يتساوى مع غيره من الشعوب الإسلامية بحكم القرآن وبنص القرآن!! وبإرادة رب العالمين[2]...».

ثم يقول جلال الطالبانى فى تصوره لحل المسألة الكردية فى حالة الوحدة الإسلامية الكبرى : «... نقطة أخرى فى هذه الدولة الإسلامية يجب أن تكون المساواة بين شعوب الدولة الإسلامية بمعنى أن كل شعب حسب الآية الكريمة».. وأمرهم شورى بينهم». يدير شئونه وفق الشورى.. يدبر أموره الداخلية وبالتالى يكون عندنا نوع من الفيدرالية بحيث تكون عندنا مثل ما أنا قلت فى جريدة كيهان: تكون عندنا اتحاد الجمهوريات الإسلامية فى العالم كما فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية»[3].

الحركة الكردية إذاً حركة انفصالية شعوبية ولكونها إسلامية فهى تحاول تأويل بعض الآيات لتتمشى مع ما ترفعه من شعارات قومية لا إسلامية قطعا وفصلاً..

---

(١) ويعنى به نظام الحكم الذاتى والذى سمح به العراق للأكراد.

(٢) غير أن المولى يذكر فى حكم تنزيله ويقض «إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فأعبدون».

(٣) مجلة النفير.. محرم ١٤١١هـ آب ١٩٩٠م.

فالإسلام يوحد بين المسلمين ويجعلهم كالجسد الواحد بصرف النظر عن لغتهم ولونهم وأصلهم..

يوضح السيد جلال الطالبانى كل ذلك فيقول بصراحة نشكره عليها :

«...ولكن إلى أن يتحقق هذا الحل الإسلامى فلنا مالشعوب الأمة الإسلامية الأخرى من حقوق وعلينا أيضا واجبات.. فكما أن للشعب العربى حق فى أن يكون له دولته.. وكذلك للشعب الكردى بأن يكون له دولته.. كذلك للشعب التركى.. وكذلك للشعب الآذرى أو إلى آخره من الشعوب».(١).

ليس بعد ما تقدم من توضيح لأهداف الحركة القومية الكروية.. وطبيعى جداً أن يقابل ذلك بتحفظ ومواجهة من جانب الدول الخمس المجاورة.

المدهش فى الأمر كله بالنسبة للعراق أن منطقة الأكراد وهى المنطقة الشمالية الشرقية فى البلاد لها وضعها الخاص... فقد نالت الحكم الذاتى وتعد من أغنى وأرقى المناطق العراقية قاطبة فهى منطقة غنية بالبترول.. ومع ذلك كله لم تهدأ الحركة الكردية فى العراق عن المطالبة بالانفصال.. ويرجع ذلك أساسا لتوازن القوى الدقيق بين السنة والشيعة فى ذلك البلد.

ماذا يمكن أن يكون الأمر لو طالبت جماعات النوبة بالاستقلال عن مصر بمنطقة تجمعهم فى أسوان وما حولها؟ فلهم لغاتهم الخاصة بهم وعاداتهم وتقاليدهم إن رد فعل المسئولين معروف مسبقا.. ومقبول مؤكداً.

ألا تبرر كل تلك الحقائق مواقف المسئولين العراقيين تجاه أية محاولة انفصالية كردية كانت أو شيعية إذا؟!

رغم وضوح تلك الحقائق فوجئنا بأجهزة الإعلام المصرية والتلفاز تستعين بأحد أقطاب الحركة الكردية فى نقد حاد جامع للسياسة العراقية تجاه أكراد العراق!!.

هذا هو الاعلام.. وهذا دوره الخطير فى تشكيل وتحديد صورة النزاع الأخير الخليجى.

---

(١) نفس المصدر.

* * *

كان لابد من اشتطاط الحملة الإعلامية الموجهة بعد أن تشددت فى اتخاذ وجهة نظر واسقاط أخرى بشكل فاضح وظاهر.. فضاعت الحقيقة.. أو فلنقل بعض أوجهها.. وعليه فكان ولابد من بعض الجنوح.

لم يمض وقت بعد نشوب أزمة الخليج حتى اتضح موقف القيادة الفلسطينية ومن ثم فقد نال الجميع من الفلسطينين.. أحد أعلام كتاب السلطة وجد ذاته فى التنكيل بالفلسطينين حتى أنه قد استحث القيادة السياسية المصرية على انتهاج موقف من الفلسطينين كمناهضين ومستغلين فى ميدان العمل والاقتصاد داخل جمهورية مصر العربية.

.. وكأن هذا الشعب المشرد آفة الآفات.. وأصل الداء.. ونحمد الله أن ذلك كان مجرد رأيا اعلاميا ولم يكن منهاجا سياسياً.. فكفى الفلسطينيون ما يواجهونه بالطوب وما يسقط منهم من شهداء على مدى سنوات ثلاث ونحن مشغولون عنهم بالقرارات السياسية.. والجهود الدبلوماسية.. والنشرات الإعلامية.. وفقط.

يموت أطفال الانتفاضة يوميا ونراهم على شاشات التلفاز وأفضلنا يتحسر وفقط!!

قد نستطيع وبكثير من الجهد تقبل وتفهم وجهة النظر السعودية ودول البترول وعلى مضض فى موقفها من جبهة التحرير الفلسطينية حتى قطع المساعدات عنها. فهذا مجرد رد فعل إنسانى تجاه الحوادث ومواقف أقطابها غير أن تلك المواقف ومن نادى بمثلها يهدم على أرض الواقع والحقيقة قضية الإسلام والعروبة مقابل قضية قطرية.. وقد سجل التاريخ المواقف على أصحابها.

* * *

إن المآسى التى نعايشها لم نعد نحمل لها أى رد فعل سليم.. فمن ضرب للمفاعل النووى فى العراق.. إلى حصار بيروت.. إلى الانتفاضة الفلسطينية.. إلى

حرب إيران - العراق... إلى أزمة الخليج الأخيرة.. ورغم توالى الأزمات فإن أوضح الشواهد هو ضياع المنهاج القويم الذى يوجه الجهود ويوضح الفهم ناحية الحدث إعلاميا وسياسيا.. الأمر الذى ترك بصمته النفسية فانكسرنا.. مع أن الأحداث تدفع حتى الموتى لانتهاج منهاج وسبيل محدد وفهم متفق عليه.. فلا الليبرالية حمتنا.. ولا القومية أمنتنا.. ولا الماركسية كانت غطاء لنا.. ولا حتى الإسلام السياسى استطاع تجمعينا وليس ذلك لخطأ فى الإسلام قدر ما هو خطأ بين الأطراف العربية. لقد تحطم أمامنا كل شىء.. وتهاوت مثلنا حتى كدنا نكفر بكل شىء.. نهدم اليوم ما بنيناه بالأمس.. مرة مع الكويت ضد العراق.. ومرة مع العراق ضد الكويت.. مرة مع العراق ضد إيران وأخرى مع إيران ضد العراق.. مرة لا مفاوضات ولا صلح مع إسرائيل.. ومرة أخرى تأييداً كاملا لكامب ديفيد وتبرير ذلك خطأ بصلح الحديبية فما هى المقاييس وما هى المعايير وما هى المبادىء وما هى النظرة والأساس التى يجب أن تشكل مواقفنا تجاه الأحداث التى تمسنا والتى لا تمسنا؟!

وبشكل آخر فإن أهم ما نفتقده هو النظرة الاستراتيجية الثابتة التى تحكمنا تجاه الحوادث والتى بغير حدودها لن نحرز أى نجاح فى أى مجال.

المتفق عليه أن الأساس والمنهاج الذى يجمع ويوحد المنهاج الفوق قطرى للشعوب العربية جميعا هو المتطور الإسلامى.. فالمنهاج الإسلامى يُفترض ثبوته فى السعودية كما فى السودان وغيرها.. والإسلام يقدر الكلمة كل التقدير وما يترتب عليها من آثر طيباً كان أو سيئاً.

قال تعالى : «ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد».

وقال عز من قائل : «ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون.. ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة أجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار».

وقال أحكم الحاكمين: «لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه اجراً عظيما».

ورسولنا المصطفى (صلى الله عليه وسلم) يقول: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقى لها بالاً يهوى بها فى جهنم وإن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقى لها بالاً يرفعه الله بها فى الجنة»[1].

لا بأس من أى خلاف موضوعى حول آية أو قضية ما.. ولا حرج فى عرض الأدلة المساندة لرأى معين وتفنيد الأدلة المضادة بأدب وأسس علمية فالخلاف فى الرأى لا يفسد للود قضية.

على أنه فى جميع هذه الأحوال يجب التقيد بأصول العلم فمصادر التشريع وحسب أولويتها القرآن والسنة وما تحتويه من قوانين ثابتة متفق عليها وهى المحور الذى يجب أن يجمع بين المتنافرين ويؤلف بين القلوب المختلفة..

رغم كل تلك المبادىء والأساسيات المتفق عليها فقد انزلقت الدعاية ورفعت شعاراً ودليلا إسلاميا أولته مرة من هنا.. وأخرى من هناك والنتيجة لذلك كان انقسام العالم إسلاميا حول قضية الخليج الملتهبة.. وتلك نكبة جرداء.. ولطمة عمياء لأهم الأسس التى يفترض أن تجمعنا جميعا فى بوتقة واحدة.. هى بوتقة الإسلام.

وكان التاريخ يعيد نفسه.. فى فتنة كبرى بعد أكثر من ألف وأربعمائة عام من فتنة الصحابة الكبرى.

---

(١) الموطأ.

(١٠) نظرة فقهية:

ليس أشد على النفس من تناول بعض فتاوى علماء المسلمين بالنقد والتحليل.. فهم كبار العلماء ورؤساء هيئات دينية رسمية وقورة ومحترمة.. نتعلم على أيديهم ونكن لهم جميعا عظيم الاحترام.. لكن كل هذا لا يمنع الخلاف فى الرأى مع جانب ما إذا كان الخلاف قائما على أصول التحليل والعلم والفهم.

كان أخطر تطورات أزمة الخليج أن الحرب بين الفريقين المسلمين تطورت بكل عنف وتركيز إلى الجانب الفقهى والذى كان من المفترض أن يوحد بينهما ففرقهم ولكن على خلاف أشد وأعمق من الحرب ذاتها..

فى البداية سوف نجتهد فى مفهوم الخلاف ودرجاته بشكل مجرد.. فالخلاف فى مضمونه اتخاذ كل طرف من أطراف النزاع طريقا مغايراً للطرف الآخر فى القول أو الرأى أو الموقف.

أما الجدل : فهو اشتداد أو اعتداد طرف من الأطراف أو أكثر برأيه أو موقفه ومحاولته الدفاع عنه واقناع الآخرين به بكل وسيلة.

أما الشقاق: فمعناه اشتداد الخصومة بين المتجادلين.. حتى يؤثر منهم الغلبة على اظهار الحق الأمر الذى يتعذر معه أى تفاهم بين أطراف النزاع.

تلك مراحل وأنواع الخلاف ودرجاته.

الاختلاف فى حد ذاته ظاهرة طبيعية بل وصحية إذا لم تتجاوز حدود الإيمان والإسلام المتفق عليها.. وإذا التزم المخالفون بآدابه. وهى أيضا نتيجة طبيعية لتفاوت خلق الله فى عقولهم ومداركهم وألسنتهم وظروفهم وتصوراتهم.. كل ذلك يفضى حتما ودون شك لتعدد الآراء واختلاف وجهات النظر.. ويتميز أى دين أو حتى استراتيجية وضعية بتوحيد وجهات النظر أو تحديد إطارها.. وتعيين الهيكل وتحديد الإطار للخلافات فى الرأى فيما يمس المجتمع وما يقابله من مشاكل..

الخلاف إذاً حكماً ربانيا بين البشر.

قال تعالى : «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك.. ولذلك خلقهم».

ودوافع الخلاف أساسية كذلك لتأثيرها على المناولة الصحيحة للمشكلة.. ومن ثم على الحكم.. وهى على أنواع عدة منها:

أ - خلاف املاه الهوى : ويتحكم فى ذلك الاتجاه بشكل أساسى الرغبة فى تحقيق هدف ذاتى كالتظاهر بالعلم والفهم مثلا.. وهذا النوع مذموم مرفوض حيث أن الهدف عادة ما يكون على حساب تجرى الحق والحقيقة الأمر الذى جعل الكاتب يتردد كثيراً فى تناول هذا الموضوع الشائك حيث أن خلافه مع علماء كبار أفاضل قال تعالى: «ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله».

ب - النوع الثانى خلاف أملاه الحق وفرضه الإيمان.

جـ - النوع الثالث خلاف يتأرجح بين القبول والرفض.. وهو الخلاف الذى يمس الأمور الفرعية والتى تترد أحكامها بين احتمالات عدة..

الخلاف كظاهرة عامة شىء سيىء وخطير.. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هلكت بنو إسرائيل بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم».. فهذا الخلاف من النوع الذى يمليه الحق ويفرضه الإيمان.. وبرغم ذلك فالخلاف كله ليس شراً على اطلاقه.. فهو رياضة ذهنية تنشط الأفكار وتنبه الاحتمالات ويتيح تعدد الحلول أمام صاحب أى قضية.. ويجعل الحكم سليما فهو لا يقف أمام الظاهرة بل يتعداها ويرجعها لأسبابها ودوافعها.. إلخ.

حدث مثل هذا الخلاف فى أول أيام بيعة الصديق وبعد وفاة الرسول المصطفى (صلى الله عليه وسلم) مباشرة.. فبعد أن تمت البيعة للصديق «رضى الله عنه» امتنعت بعض القبائل عن أداء الزكاة بدعوى أن الزكاة لا تدفع لغير رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

قال تعالى : «خُذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلِ عليهم أن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم».

والخطاب في الآية موجه لرسول الله (صلى الله عليه وسلم).

عندما قرر الصديق محاربة ما نعى الزكاة عارضة الفاروق عمر والذى كان يرى عدم جواز ومقاتلة ما نعى الزكاة - قال الفاروق عمر للصديق: «كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): أمرت أن اقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه الا بحقها وحسابه على الله تعالى.».

فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة.. فإن الزكاة حق المال والله لو منعونى عناقا كانوا يؤدونها لرسول الله (صلى الله عليه وسلم)لقاتلتهم على منعها.

قال عمر: - فو الله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق.

سبب الخلاف فى تلك الرواية الثابتة أن الفاروق عمر ومن معه تمسكوا بظاهر الحديث. ودفعهم إلى ذلك لا شعوريا حالة المدينة وما يهددها من أخطار فى الأيام الأولى لوفاة رسول الله (صلى الله عليه وسلم).. أما الصديق فقد حلل القضية وأرجعها لأسبابها واستشهد على رأيه بحديث رسول الله نفسه «إلا بحقها».. وكما تأكد لديه من فهم باقتران الزكاة والصلاة فى معظم الآيات والأحاديث كشرط من شروط الإيمان الكامل.. فلا يجب التفرقة بينهما على الاطلاق.. فإن كانت الصلاة واجب المسلم نحو ربه.. فالزكاة واجب المسلم فى ماله تجاه فقراء المسلمين.

قال تعالى: «وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا».. س. مريم ٣١.

هكذا بالتحليل والاجتهاد وحسن النية اتفق الجمع والجميع على قتال ما نعى الزكاة.

هكذا كان الجدل بين الصديق والفاروق.. على مستوى التدافع والتمانع ولم ينحدر إلى مستوى الخلاف والنزاع.. حيث كان الحق هدف الصاحبين من خلافهما أن الجدل الملتزم بالأصول والآداب ينتهى حتماً إلى العلم والحق.. كما أن النزاع يدخل ضرورة فى مجال الجهل.. من أحد طرفى النزاع أو كليهما.

بديهى أن الرأى يجب أن يصدر عن دراسة متكاملة للمسألة محل الخلاف كما أن الحكم فيها يجب ألا يعتمد على المنطق والخبرة الإنسانية قدر ما ينبغى الاعتماد على القرآن الكريم والسنة النبوية.. عمودى التشريع.

الحكم أيضا لا يجب أن ينصب على الظاهرة أو الحدث دونا عن إرجاعه لأسبابه ودوافعه..

والمولى عز وجل يوضح فى صحيح قرآنه الأمر كله واسسه وقوانينه.

قال تعالى : «من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا».

ويقول عز من قائل : «ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة..».

فهذا حكم المولى فى القتل كفعل.. بدون سبب.

* * *

ويقول عز من قائل : «ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة..».

وهذا أيضا حكم المولى فى القتل كفعل فى حالة ثبوت الخطأ وعدم وجود النية..

ومع ذلك فإن المولى يحرض على القتل ذاته فى أحيان أخرى.

قال تعالى: يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال.

وقال تعالى: وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا.

وهكذا أمام فعل واحد وعمل محدد اختلفت الأحكام وتعددت لاختلاف الأسباب والدوافع.. وذلك حكم الله.

* * *

وهكذا.. فإنه من الضروري واللازم لصحة الأحكام الشرعية والافتاء الالتزام بمعرفة كافة جوانب القضية.. وليس الحكم على الأحداث وفقط.. وهذا ما لم يحدث فى معظم الفتاوى الرسمية والتى تناولت معركة الخليج الأخيرة.

وقفت جميع الفتاوى نحو الغزو كفعل ولم تتناول أية أسباب اقتصادية أو سياسية.. ووقفت جميع الاجتهادات عند الظواهر والملابسات وفقط.

(١) فى بيان دار الافتاء لجمهورية مصر العربية أوضح سيادة أ.د./ محمد سيد طنطاوى مفتى مصر ثلاث حقائق دينية :

أ - الأولى : أن الحرب لا تقع إلا عند ثبوت الظلم والعدوان على العقيدة أو النفس.. أو العرض.. أو المال.. أو الوطن.. كما أن العقيدة تنتهى نهياً قاطعاً عن الاعتداء على غير المقاتلين.

ب - الثانية: أن آداب الشريعة الإسلامية وضعت للحرب شروطاً وآداباً من أهمها تحريم قاطع للغدر والخيانة ونقض العهود والمواثيق.

والدليل قوله تعالى : «وإما تخافن من قوم خيانة فأنبذ إليهم على سواء أن الله لا يحب الخائنين».

جـ - الثالثة إن حكم الله فى شأن الأحداث الجارية تحكمها الآية الكريمة:

«وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت أحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا إن الله يحب المقسطين» س. الحجرات ٩. .

ثم يوضح سيادته شرحه للآية الكريمة فيقول: «فهذه الآية الكريمة بينت بأسلوب صريح ثلاثة أحكام شرعية:

أولها : - أنه إذا حدث نزاع أو قتال بين طائفتين من المؤمنين فعلى المسلمين وحكامهم أن يتدخلوا بينهما بالصلح عن طريق بذل النصح وإزالة أسباب الخلاف بكل اخلاص فى النية وصدق فى العزيمة.

ثانيها : أنه إذا بغت أحدى الطائفتين على الأخرى وأصرت على عدم قبول الصلح فعلى المسلمين وحكامهم أم يجمعوا أمرهم على قتال الفئة الباغية وأن ينفذوا ذلك بدون أى تردد أو تباطؤ.

ثالثها : أنه إذا رجعت الفئة الباغية إلى الصلح واقلعت عن بغيها فعلى حكام المسلمين أن يصلحوا بين الطائفتين المتقاتلتين اصلاحاً متسماً بالعدل التام.

تعليق :

(١) بالنسبة لشرعية الاقتتال والحرب فقد حددها بيان دار الافتاء بظلم وعدوان على العقيدة أو النفس أو العرض أو المال أو الوطن. وفى أزمة الخليج الراهنة اعترف أمير الكويت.. وسفير الكويت بالقاهرة بسرقة بترول العراق وهو اعتداء معلوم مشهور لا يخفى على أحد فيما يختص بالمال.

من جهة أخرى فإن دول البترول العربية قاطبة هى المنفذة للسياسية الاقتصادية الإمبريالية تجاه الوطن العربى ودوله الفقيرة.. ثم أن العراق والتى كانت من أغنى دول المنطقة أصبحت بعد حرب إيران مديونة بمائة مليار من الدولارات بسبب تلك السياسة.. هذا فى الوقت الذى تزيد فيه ودائع حكومات البترول عن سبعمائة مليار دولار فى خزائن أمريكا واستثمارات الغرب.. فهل حرب العراق دفاعا عن المنطقة كلها وبمساعدة دولها لا يعطيها الحق فى مساعدات لتوازن اقتصادياتها ؟!

ولن نتحدث عن حق العراق المديون الفقير فى زكاة الأموال تلك.. فلها مكانها وهى حق الله فى ماله كما يعلم الجميع.

(٢) أما أن شريعة الإسلام قد وضعت للحرب شروطا وآداباً وحرمت الغدر والخيانة.. فهذا صحيح ومتفق عليه.. وهو ما التزم به العراق فى محنته.. فقد قامت مشاورات ومداولات واجتماعات سياسية.. وضحت فيها النوايا وتأكدت السياسات.. وظهرت فيها الخيانة سياسيا.. ولم يتبق سوى رد الفعل الذى كان مفاجئا.. ورد الفعل المفاجىء لا يكون بحساب طبيعته إذا كان عسكريا أو حربياً.

كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا أراد غزوة سار فى طريق مغاير لأيام قليلة ثم لا يلبث أن يغير طريقه وبسرعة إلى هدفه المحدد وذلك حتى يأمن عيون الجواسيس ويكتسب المفاجأة.

(٣) أما بالنسبة للآية الكريمة فى شأن القتال بين المسلمين س. الحجرات ٩.. فنحن نتقبل هذا الشرح والبيان بل ونتمسك به.. فالواضح أن الخطاب فى الآية للمسلمين كذلك وليس لغيرهم.. وهو ما أثبته شرح الأستاذ الدكتور / محمد طنطاوى وركز عليه.. ومن هنا كان بيت القصيد فقد تم اسقاط الواقع ولم يشر الدكتور طنطاوى إلى الموقف من تدخل القوات الأجنبية فى صراع المسلمين بعضهم البعض وبالشكل الذى جعل الموقف فى حقيقته صراع بين القوات العراقية من جهة وبين القوات الأمريكية والحليفة.. الغير مسلمة.. والتى زادت عن النصف مليون مقاتل!!! من جهة أخرى..

كان بيان الأزهر الشريف أكثر صراحة وواقعية حيث أصدر بيانا عن الأزمة قال فيها :

«... وإذا كانت الشعوب العربية من حول الكويت قد فجعت وفوجئت بما فعله جيش العراق واستنجدت بجيوش الدول العربية وبغيرها من الدول التى تملك الأسلحة المتكافئة مع ما اعتدى به جيش العراق على الكويت فإنه لا ضير فى ذلك!!!!! لأن استنجادها بتلك القوات على اختلاف جنسياتها انما هو قائم على مبدأ الاتفاقيات والتعاهد الدولى.. ومن حقها أن تدافع عن نفسها وأن تحمى ارضها وحرماتها من هذا الشقيق الغادر الذى لم يرع عهداً ولا وعداً ولاذمة.. وادعاء العراق أنه بفعله هذا يكون مجاهداً غير صحيح لأن الجهاد لايكون بغياً ولا عدوانا على الجار المسلم الشقيق.. كما أن الادعاء بأن القوات الوافدة قد دنست الارض والحرمات ليس صحيحاً لأنها وافدة بأذن اصحاب هذه البلاد ولرد العدوان عنها.. وهى قوات مسلمة أو معاهدة.. والاستعانة بمثل هذه القوات امر مشروع فى الاسلام.. بل انه من اسس الاسلام!!!.. ومن حقوق المسلم على المسلم أن ينصره ويرد الظلم عنه.. وكذلك الشأن فى المعاهد أيضا!!!».

ويستشهد البيان بالآية الكريمة من سورة الحجرات.. فيذكر البيان:- ان الله سبحانه قد اذن بقتال الباغي.

"فقاتلوا التى تبغى حتى تفئ الى أمر الله"

تعليق

الأمر الذى لم اكن أجرؤ على التفكير فيه أن تكون لدى الكاتب الشجاعة فى التفكير أو التحليل أو النقد من الازهر الشريف معهد العلم ومركز الدين السليم.. ومنبت العلماء واولو الأمر.

الحقيقة الواجب ذكرها ان العراق عندما يدعى أن الكويت قد اعتدى عليه ومن ثم فقد مارس استعفاء الحق بالذات.. فقام بضم الكويت أمر قابل للناقش.. غير أنه لايمكن الحكم الا بعد معرفة كافة اسرار الحوار والتحكيم ونقط الخلاف.

إن المسألة الاساسية أن المؤمنين أخوة وان بغى بعضهم على بعض.. فهذه المطامع لاتخرج المؤمن من ايمانه.. وقوانين القرآن واضحة فى علاج انحرافه نقول ذلك رداً على كاتب وجد فى نفسه الجرأة أن ينعت صدام حسين بالكفر وعلى شاشات التلفاز!!!.. وكأن للمسكين يداً فى امر الايمان وقبوله.. وعنده ميزانه!!!.

أن الآية الكريمة س. الحجرات٩.. واضحة أن المطالبين بالاصلاح بين طائفتى المسلمين هم المسلمون انفسهم لاغيرهم.. والأمر الذى لاشك فيه ان الاستعانة بغير المسلم من طرف مسلم على مسلم آخر مرفوضة ولاتجوز بحال.. وهذا الامر وضحه ضمنا فتوى سيادة د/محمد سيد طنطاوى رغم ندائه بغير ذلك ثم أن هناك آيات صريحة بهذا الخصوص واضحة لاتجوز حتى التأويل.

قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم ان الله لايهدى القوم الظالمين فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى ان تصيبنا دائرة فعسى الله ان يأتى

بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين» س المائدة ٥١: ٥٢.

والموالاة فى اللغة العربية تعبير لغوى يتراوح بين الملاطفة والتودد.. مروراً بالصداقة والحب.. انتهاء بالنصرة أو الاستنصار..[1].

وهكذا نجد لفظا واحداً يحتمل كل هذه التلاوين.. وهذه المستويات المختلفة من التحالف والتعاطف والتآلف والنصرة والاستنصار..

وماذكره المفسرون جميعا فى هذه الآية أن الولاية المنهى عنها هى ولاية النصرة فى الاستعانة بهم والاعتماد عليهم.

قال الشيخ الامام/محمد عبد الوهاب: «نهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء.. وأخبر أن من تولاهم من المؤمنين فهو منهم ولم يفرق الله تعالى بين الخائف وغيره.. بل أخبر أن الذين فى قلوبهم مرض يفعلون ذلك خوفا من الدوائر من عدم الايمان بوعد الله الصادق بالنصر لأهل التوحيد فبادروا وساعوا إلى الشرك خوفا من أن تصيبهم الدائرة.. إن موالاة الكفار موجبة لسخط الله والخلود فى العذاب بمجردها.. وإن كان الانسان خائفا».

ثم فلنتساءل: ألم يكن هذا عمود الفهم للقائد الخالد المظفر الملك عبد العزيز آل سعود؟!

---

(١) يذكر فضيلة الإمام الأكبر محمود شلتوت صورة الولاة فيقول:

«.. هذا ولموالاة الاعداء صور وألوان: المعونة الفكرية بالرأى والتدبير موالاة للأعداء.. والمعونة المادية بالبذل والإنفاق موالاة للأعداء.. وترويج سلعهم بالبيع والشراء تنمية لأموالهم وتثبيتا لأقدامهم فى بلاد المؤمنين موالاة للأعداء.. والاغترار بزخرف ثقافتهم وأن فيها ماء الحياة وتوجيه النشىء اليها.. موالاة للأعداء... والتثاقل عن رد عدواتهم ومد يد المعونة الفعلية في كبح جماحهم موالاة للأعداء...».

من توجيهات الإسلام.. للإمام الأكبر محمود شلتوت.. ط. دار القلم الطبعة الثالثة ص٢٦٤ لعام ١٩٦٦م.

ولو طبقنا هذا كله لأدنا أنفسنا جميعا.. والله محاسبنا.

يقول شيخ الاسلام وحجته ابن تيمية فى ذلك المعنى: «ولايجوز لمسلم ان يجعل جاه المسلم ذريعة لرفع كافر على مسلم.».

وشيخ الاسلام يوضح فى فتواه أن المقصود بالكافر هنا يتضمن حتى أهل الكتاب فهو يذكر فى فتواه: «إن هؤلاء النصارى أهل توحيد فى الاصل ولكنهم اشركوا بقولهم ان الله ثالث ثلاثة».

ويروى القرطبى تفسيره عن ابن عباس رض الله عنهما: «أن عباده بن الصامت كان له حلفاء من اليهود فلما خرج الرسول صلى الله عليه وسلم يوم الاحزاب قال له عبادة: يانبى الله ان معى خمسمائة من اليهود وقد رأيت أن يخرجوا معى فاستظهر بهم على العدو.. فأنزل الله تبارك وتعالى:

«لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شئ» س.آل عمران ٢٨.

الأمر الذى لاشك فيه ان الاسلام يحث على عدم جواز الاستعانة بغير المسلم على المسلم.. لاشك فى هذا.

اللبس فى مفهوم الفتاوى والتصاريح للسادة العلماء جاء لتناولهم مسألة اخرى تماما.. هى محل اختلاف ووجهات نظر.. وهى الاستعانة بغير المسلمين فى قتال غير المسلمين.. فحين يرى فريق من الفقهاء عدم جواز الاستعانة بهم حتى فى قتال المشركين مستدلاً بأدلة قوية كما فى القرآن والسنة الصحيحة فإن فريقاً آخراً يرى جواز الاستعانة بهم فى قتال المشركين مستدلاً بماروى من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعان بصفوان ابن امية يوم حنين.. كما استعان بيهود بنى قينقاع.

هذه الرواية رفضت من المحققين الفقهاء وأهل العلم بالحديث لأنها من مراسيل الزهدى.

نقطة الخلاف إذا فى الاستعانة بالمشركين فى قتال المسلمين للمشركين ولاخلاف ولا اختلاف فى عدم الاستعانة بهم فى قتال المناهضين من المسلمين(١) بل أنه حتى فى

---

(١) قال الرئيس حسنى مبارك فى كلمته فى أفتتاح موتمر القمة العربية يوم ١٩٩٠/٨/١٠م للملوك والرؤساء العبر بالنص «إن الخيار أمامنا واضح بين عمل عربى يصون المصالح العليا =

حالة الاستعانة بهؤلاء المشركين فقد اشترط الموافقون عليها ان يكون المسلمون اكثرية ولهم القدرة على صدهم ان انقلبوا عليهم.

قال تعالى: «لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شئ الا ان تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه والى الله المصير» س. آل عمران ٢٨

السؤال الذى يطرح نفسه- رغم اسقاط السياسيين العرب له - هو هل يستطيع العرب جميعا وقف الترتيبات الغربية والخطط الامريكية تجاه المنطقة وهى تجرى كل يوم والجميع يتجاهلونها.(١)؟!

الامر على هذا المنوال جد دقيق وحساس.. تشير إليه التصاريح تارة من هذا وآخرى من هناك.. وكانه تهيئة نفسية لما تراه امريكا تجاه مستقبل المنطقة والتى تشكله حسب هواها ومصلحتها - والدليل على ذلك مواقف الامريكان المعارضة لأى إدانة لاسرائيل فى مجلس الامن - أو اعتراف للفلسطينيين فى أرضيهم..أو للمسلمين كلهم فى قدسهم.

لوضوح الحجة وقوتها اضطر بعض المتفلسفين الى تبرير الاستعانة بغير المسلم لمواجهة المسلم بأرجاعها إلى مسألة الضرورة:

قال تعالى: «فمن اضطر غير باغ ولاعاد فلا اثم عليه».

قال جل شأنه: «فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم».

ومسألة الضرورة التى لجأ اليها بعض المفسرين مطاطة.. بل ومسألة نسبية غير منضبطة لكنها تتقطع وتتمزق بسهولة أمام عشرات النصوص والآيات الصريحة

= للأمة العربية ويحفظ لنا العراق والكويت معا.. وتدخل خارجى لا قول لنا فيه ولاسيطرة لناعليه ولايمكن أن يكون المحرك إليه هو الحفاظ على كيان العرب وحقوقهم بل إنه بالضرورة سوف يسترشد بأهداف القوى التى تسانده.

(١) يقول الإمام الشافعى «لا يجوز لأهل العدل زن يستعينوا على أهل البغى بأحد من المشركين ذمى ولا حربى.. ولو كان حكم المسلمين الظاهر ولا اجعل لمن خالف دين الله عز وجل الذريعة إلى قتل أهل دين الله»

فما رأى علمائنا الأفاضل!!

الواضحة النص والثابتة المعنى.. كما أن الرد على هذا الاتجاه سهل فالنهى عن عدم موالاة المشركين وأهل الكتاب يحتم عقائديا مراجعة ما أصبح روتينيا فى حياتنا اليومية خاصة فى دول البترول من الاعتماد على الغرب فى السياسات الاقتصادية وغيرها مثل المستشارين والخبراء الاجانب فى كل صغيرة وكبيرة.. ووضع كل أسرارنا العسكرية فى أيديهم.. واعتمادنا فى التسليح على ماتجود به مخططاتهم.. والاستعانة بهم بلا حدود.. والاستدانة منهم ولاضرورة لكل ذلك.

ان المملكة العربية السعودية عند حدوث النزاع ردته إلى أمريكا قبل موتمر القمة فى القاهرة ولم ترده الى الله ولا الى الرسول ولا الى المسلمين.. وأما القول بأن التدابير العربية والاسلامية قد لاتكون كافية - كلها - لارغام العراق وحده فترد عليه الآية الكريمة:- «يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين»... ولو اعلنت السعودية استعانتها بغير المسلمين لمحاربة دولة مسلمة لكان ذلك مرفوضا دينا وخلقا.. كل هذه الحقائق فرضت نفسها لاشعوريا على الاعلام.. فقد نادت السعودية واعلنت فى بداية الحوادث ان: «وجود القوات الاجنبية ليس الا للدفاع عن الارض وحماية للعرض!!!»

أما الكاتب الاسلامى.. الكبير!!.. خالد محمد خالد فقد ذكر عن هذه القوات أنها: «قوات دولية وليست قوات اجنبية!!!».. ونادى بأنهم ليسوا بمشركين او كفار.. بل هم أهل كتاب!![1].

---

(١) كتب شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمود شلتوت رحمه الله منذ أكثر من خمس وعشرين عاما فى كتابه «الإسلام عقيدة وشريعة» فقال:

«الإسلام حينما يترك للمسلمين الحق فى إنشاء المعاهدات لما يرون من الأغراض يشترط فى صحة المعاهدة شروطا ثلاثة:

أولها: ألا تمس قانونه الاساسى وشريعته العامة التى بها قوام الشخصية الإسلامية وقد جاء فى ذلك قوله عليه السلام "كل شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل".. ومعناه أن كتاب الله يرفضه ومن هذا الشرط لايعترف الإسلام بشرعية «معاهدة» تستباح بها الشخصية الإسلامية وتفتح للأعداء بابا يمكنهم من الاغارة على جهات اسلامية أو يضعف من شأن المسلمين بتفريق صفوفهم وتمزيق وحدتهم»

طبعة دار القلم.. الطبعة الثالثة.. ص ٤٦٤:٤٦٥

فما رأى كاتبنا الإسلامى والمفكر المشهور بعد ذلك كله!! بل بعد ماتعيشه وتلمسه على أرض الواقع.. ايضا!!!!

والآية الكريمة تفصل: «انا ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون»

والامريكيون أهل كتاب لكنهم من الصنف المعتدى.. اخرجنا من ديارنا وظاهر على اخراجنا ولاشك.. وهم محاربون اعداء ليسوا أهل عهد ولا ميثاق ولاذمة.. وأسألوا عن فلسطين.. وتسائلوا عن القدس الشريف.

هذا والمولى ينص على اننا دولة وأمة من دون الناس.. ويدعلى من سوانا والخلافات والتناحر بيننا لايمكن ان يسقط تلك الحقائق.

قال تعالى: «وان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون»

كم أتمنى أن أكون مخطئا فى تصورى بالنسبة لمصالح أمريكا والغرب تجاه مناطق البترول العربية خاصة مع موازين القوى فى منطقة الشرق العربى وضرورة تأمينها للغرب الامريكى.. والمسألة ضرورية وحتمية بالنسبة لهم.. إضافة إلى وضوح وتنامى النظرة الايرانية الشيعية تجاه المنطقة.

* * *

رغم كل ماقدمنا فإن علماء المسلمين.. أكثر من ٣٠٠ عالم ومفكر وداعية[1] إسلامى أصدروا فى مكة المكرمة نداء فى نهاية مؤتمر كبير ضم اعلام المسلمين شرقا وغربا.. شمالا وجنوباً.. جاء فيه:

---

(١) يقول أيضا الشيخ محمود شلتوت:

«.. وكذلك ليس "أولو الأمر" خصوص المعروفين فى الفقه الإسلامى باسم الفقهاء والمجتهدين الذين يشترط فيهم أن يكونوا على درجة خاصة فى علوم اللغة وعلوم الكتاب والسنة فإن هؤلاء.. مع عظيم احترامنا لهم لاتعدو معرفتهم فى الغالب هذا الجانب ولم يألفوا البحث فى تصرف كثير من الشئون العامة كشئون السلم والحرب والزراعة والتجارة والصناعة والادارة السياسية»..

انتهى نفس المصدر.

«ان المملكة العربية السعودية اضطرت بسبب العدوان العراقى إلى طلب قوات اسلامية واجنبية.. لمساندة قواتها الدفاعية فى مواجهة عدوان وشيك من القوات العراقية المحتشدة على حدود السعودية..»

فما رأى هؤلاء العلماء الافاضل بعد حرب الخليج الأخيرة؟!

ومن يستطيع أن يعارض هؤلاء العلماء كلهم؟!.

ومن اكون فى مقابل هؤلاء العلماء الافاضل جميعا.. بل فى مقابلة واحد منهم؟!

أما هيئة كبار العلماء فى المملكة العربية السعودية وبرئاسة سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز فقد ايدوا: «.. استقدام قوات مؤهلة بأجهزة قادرة على اخافة وارهاب من اراد العدوان على هذه البلاد.. وهو أمر واجب عليه تملية الضرورة فى الظروف الحالية ويحتمه الواقع المؤلم وقواعد الشريعة وادلتها توجب على ولى امر المسلمين أن يستعين بمن تتوفر فيه القدرة وحصول المقصود.»

غير ان المقصود من هذا كله اثبتته الحوادث.. فقد غزت كل تلك القوات الكويت والعراق.. وليس العكس الذى أشار إليه البيان.

ثم تحت عنوان «حكم الاستعانة بالكفار فى قتال الكفار» فقد اوضح السادة العلماء ان العلماء قد اختلفوا - رحمهم الله فى حكم الاستعانة بالكفار فى قتال الكفار!!.. واوضحوا فى بيانهم حجج المنع.. وحجج الجواز.

كانت الحجج فى الحالتين عبارة عن مجموعة من الأحاديث والآراء والاجتهادات ولم تكن هناك آية واحدة فى البيان.. غير ان هذا لايهم.. فالاهم رسالة خفية فهمها المحلل.

الواقع الملموس والذى لالبس فيه أن النزاع الخليجى الاخير بين طرفين مسلمين الامر الذى اسقطه وتحاشاه تماما حكم هيئة كبار العلماء الاجلاء.. ومن ثم فان هذا الحكم لا ينطبق على الواقع بحال. إلا أن تتهم السعودية العراق بالكفر والخروج عن شريعة المسلمين والاسلام!!..

وهكذا لم يخطئ علماء السعودية.. فقد كان بيانهم فى اتجاه.. وواقع النزاع اتجاه آخر تماما..

ثم ماذا يمكن أن نطلق على هذا النوع من الذكاء أو التحايل؟!

نسى الجميع أن المولى هو من سوف يفصل ويحكم.. والى الله المرجع وإليه الحساب.

أما بيان «المجمع الفقهى الاسلامى بمكة المكرمة» فقد كان بعنوان «الجهاد الاسلامى والاستعانة بغير المسلمين فى مواجهة العدو!!».

فى ذلك البيان كان الاستشهاد بآيات قرآنية عديدة واحاديث عدة عن مشروعية الجهاد والقتال.. مع آيات عدة للاستعداد للجهاد والتجنيد الاجبارى والتدريب العسكرى.. الخ.. أما عن مسألة الاستعانة بغير المسلمين فكان عامًا ودون تحديد وبروايات واحاديث دونا عن آية واحدة!!.

اسقط البيان إذا النقطة الاساسية وهى هل يستوى الجهاد بين المسلمين والمسلمين وبين المسلمين والكفار.؟!

ثم ان البيان بصورة عامة استند على أن الضرورات تقدر بقدرها وفى البيان.. كما هو واضح.. تهرب من مواجهة الواقع الملموس.

أما بيان فضيلة الشيخ/محمد بين صالح بن عثيمين عضو هيئة كبار العلماء فى المملكة العربية السعودية فقد كان اوضح واظهر.. فقد ذكر سيادته فى تحريره لما يشعر به من منافاة وعدم التزام فقال: «ان على شباب المسلمين ذوى اليقظة الاسلامية ان ينظروا فى الغايات لا فى البدايات.. فماذا يستفيد الاسلام والمسلمون اذا كان الصدام المسلح بين المسلمين -لاقدر الله - وماذا تستفيد اليقظة الاسلامة اذا كان كل واحد من المسلمين يتربص الدوائر بأخيه..».

وسماحة الشيخ يعلم بالحق ويشعر به دون شك أما عن تحليله وتفسيره وتساؤله فنرد عليه بتسؤل آخر وهو: ماذا سوف يخسره الاسلام عندما يستعين جانب من المسلمين بأهل الكتاب وغيرهم فى نزاعه وحربه ضد طرف مسلم آخر؟! وهل يمكن التحكم فى اهداف هؤلاء القوم بعد انتهاء النزاع بشكل أو آخر بعد ان دفعوا من

جهدهم وحياة ابنائهم خاصة ان الاستعانة بهم لم تكن الا لنقص وضعف فى جانب احد الطرفين المسلمين؟!.

ونترك الاجابة للمستقبل القريب..

إن الخلاف بين اطراف المسلمين ماهو الا محاورة وتفاعل فى الجانب الاسلامى من العالم لتصحيح مسيرة او اجهاض خطأ.. ولم يرمى التشريع الاسلامى إزاء ذلك الاحتمال المؤكد الا لصالح الاسلام ذاته لاصالح طرف وهزيمة آخر..

كان الخليفة العادل الفاروق عمر يتصبب عرقا ويرتعد خوفاً اذا ما طالبه احد المسلمين برواية حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مخافاة أن يتبوأ مقعده من النار عملاً بالحديث الشريف «من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» فما بال فقهاء هذا الزمان لايتصببون عرقاً ولايرتعدون خوفا فى زمن هانت فيه الكلمة على قائلها.. حتى سمعنا فى مصر أحد علماء ومفكرى الاسلام وابرز الكتاب الاسلاميين البارعين حقا يقول بملئ فيه وعلى شاشات التلفاز.. ويسمعه الملايين «.. إنى اعتبر ان الكارثة فى عدم وجود الامريكان» ووصف جندهم بالنبل والفروسية والانسانية.. واستخدم المفكر الاسلامى سيلاً من الآيات. القرآنية حاول أن يؤيد بها وجهة نظره.. وطالب سيادته بضرورة ضرب العراق وقوته وسلاحه العربى الاسلامى وجعل ذلك من اساسيات دعوته.. ولم يشر سعادته - طبعا - لقوة اسرائيل والتى تفوق قوة العراق قطعا!!! اخذ السيد العالم علي رئيس العراق قتلة احد علماء الشيعة البارزين وهو آية الله محمد باقر الصدر.. وهذا حق.. ويكفى للرد على ذلك ان نقول لسعادته:

اقرأ يا سيدى كتاب باقر الصدر «فدك فى التاريخ» قبل ان تنهض لمحاسبة صدام على وقفة جهود باقر الصدر في نزعاته السياسية العقائدية والحزبية والتي كانت متوازيه - فى العراق- مع جهود الخمينى فى ايران. ورايه فى الشيخين ابى بكر وعمر.. واسأل بعد ذلك عن تاريخ منطقة الشرق العربى كله لو قدر له النجاح.. ولاتسل عن أهل السنة وامنهم..

أحد أشهر علماء الحديث فى جمهورية مصر العربية كتب كتابا عنه «أزمة الخليج فى ميزان الاسلام والشريعة» ذكر فيه:

«.. وزعموا ان الاستعانة بتلك القوات غير جائزة شرعاً فكان لزاماً أن نوضح

لحكم الشرعى فى ذلك. وبيانا لحقيقة الامر فإن المملكة العربية السعودية لم تستعين بتلك القوات الا للضرورة القصوى حيث رأت الخطر الذى يتهددها محاولا استخدام سلحة الدمار الشامل المحرمة شرعاً.. والمحرمة دولياً وامام هذه الضرورة تبرز القاعدة لشرعية «الضرورات تبيح المحظورات».. ثم أن هذه القوات إما مسلمة وإما معاهدة وقد جاءت لا لحرب المسلمين بل لرد العدوان الذى يهددهم به العراق والدفاع عن النفس بكل مايستطيع الانسان ان يدافع به!!

فهل حرب الغرب الامريكى للعراق ليس حرباً للمسلمين؟! (١)

---

(١) ليس غريبا مثل تلك الفتاوى ففى أزمة عرابى مع الخديوى كان من فتاوى السلطان المثل الذى به نحكم على الأمور: فقد أصدر مفتى السلطان البيان التالى ضد عرابى وحركته:

«.. ربنا لاتهلكنا بما فعل السفهاء منا. عباد الله لستم تجهلون أننى طالما ناديت في البرهان بأن لاسبيل لنجاح الأمة الإسلامية سوى أقامة الدين المبنى على مكارم الأخلاق والذى من مقتضاه حسن المعاملة والرفق بالذميين والمستأمنين والمعاهدين والصلحيين وهم الأقسام الاربعة التي قدمنا أن جميع الأجانب فى البلاد الإسلامية لم تخرج عنها..

ومن مقتضاه أيضا اعداد مايستطاع من القوة ورباط الخيل وانه لاريب إنه يدخل فى القوة المدافع ونحوها من انواع العدد الحربية الجديدة المناسبة لكل زمان ومكان وكذا جميع مايتصور العقل أن فيه نكاية للخصم..

غير أنه لسوء الحظ كأن تلك الآية الكريمة الآمرة بإعداد ما ذكر إنما نزلت على خصوص الاجانب فعملوا بها دوننا ورفضناها نحن كغيرها من شعائر ديننا وحدود ربنا تبارك وتعالى حتى بلغ من تضلع الجهال البغاة من الفنون الحربية وخبرتهم بطرق النكاية للعدو أن يقابلوا الآلات الإنجليزية الحديثة العهد المصنوعة منذ شهور أو أسابيع بالات عتيقة مضى عليها من الاجيال ما احكلها به الصدأ مأواه ثم أواه.. ولكن هو الجهل حتى ينبح الكلب مولاه ويرمى بالحصيا السهاب إذا انقضا!!!

فلو أننا فرضنا المستحيل من كون هذه الحرب دينية.. والحالة هذه وأنها بأمر الخليفة الأعظم أو نائبه الخديو الأكرام لوجب شرعاً مخالفة أمرهما بها لأنها حينئذ عبارة عن المخاطرة بالبلاد والعباد.

وقد نهانا الله تعالى عن أن نلقى بأيدينا إلى التهلكة فكيف وهذه الحرب كما قدمنا شيطانية ناشئة عن حب الذات والمصلحة الشخصية كما سيأتي وعن الجنون الذى تظاهر به الآن عرابى تخلصاً من سوء العاقبة وإن كانت افعالهاكلها جنونا محضاً من البداية للنهاية ولا أزال أقول لكم أن الأنكليز لاقصد لها سوى اعادة الراحة واخضاع الجند للحاكم الشرعى نائب ايد المؤمنين.. وإن جناب الخديوى هو على الجانب العظيم من التقوى والدين!!»

كتاب الإسلام والستعمار .. عقيدة الجهاد فى التاريخ الحديث لكاتبه رودلف بينرز جامعة استردام..

دار شهدى للنشر ١٩٨٥م.

والآن وبعد ما نراه من تطورات نجد ان تلك القوات الغير اسلامية بيدها زمام الأمر كله.. فهى التى توجه الحوادث تبعا لاهدافها ومصالحها هى.. هذا مانلمسه جميعا وما حذر منه الرئيس مبارك نفسه!!.

الملاحظة التى تستحق الاعتبار ان جميع هذه الفتاوى والكتابات بنت موقفها على الحدث ذاته ولم ترجعه لاسبابه.. أو حتى ملابساته

لم يتحدث احد عن نظره الدين الاسلامى فى مئات المليارات لشيوخ البترول فى بنوك الغرب بينما اخوة لهم فى الاسلام يموتون جوعا وعطشا!! بينما ينفق هؤلاء الشيوخ مئات المليارات على الجيوش الاسلامية لمحاربة اخوة لهم فى الدين؟!

ومرة أخرى لن نتحدث عن زكاه تلك الاموال.. فلها مكانها.

إن الوضع في صورته من الفتن التى تذر الحليم حيراناً في هذا الزمان.. فالحق البسه قوم ثوب الباطل.. واقبح ألوان الخلط ماكان متعلقا بالاحكام الشرعية تلك التي قررها القرآن الكريم.. وفصلتها السنة النبوية..

فالمدهش ان الأمر كله تم تحديده فى كتاب المولى عز وجل.. وهو الاعلى وياله من تنزيل شامل جامع لم يترك امراً الاحدده.

أ- اشتمل القرآن الكريم على آيات عديدة حددت الموالاة على اعتبارها أمرا ايمانيا فى الاساس.. هى موالاة الله واوامره.. وسبيل من سبل الايمان.

قال تعالى: «الم تعلم ان الله له ملك السموات والارض ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير» س البقرة ١٠٧

وقال تعالى: «والله ولي المؤمنين» س. آل عمران٦٨

وقال جل شأنه: «الا إن اولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون» س. يونس ٦٢.

وقال تعالى: «ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم اولياء من دونه» س. الاسراء ٩٧

الامر ايمانى إذا فيما يختص بمسألة الموالاة للمسلمين.. والمولى قد حدده لأنه اعلم بصالح المسلمين.

قال جل شأنه: «والله أعلم باعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيراً» س. النساء ٤٥

وكان من الطبيعى أن يحث المولى عباده المؤمنين على هذا المنهاج الايمانى ويحذر من عدم الالتزام بهذا الامر.

قال تعالى: «واذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً اولئك لهم عذاب مهين ومن ورائهم جهنم ولايغنى عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله اولياء ولهم عذاب عظيم» س. الجاثية ١٠

ب- لأهمية مسألة الموالاة فى حياة المسلمين ولكون المسألة ايمانية بحته فقد نهى المولى فى محكم تنزيله عن اصناف من الموالاه فى مواقع عدة للتأكيد من ناحية وللتحديد من ناحية اخرى.

قال تعالى: «إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون» س الممتحنة ٩

وقال : «يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا آباءكم وإخوانكم اولياء ان استحبوا الكفر على الايمان ومن يتولهم منكم فاولئك هم الظالمون» س. التوبة ٢٣

والمعنى لاتتخذوا أباءكم وأخوانكم الكافرين انصاراً وأعوانا تودونهم وتحبونهم إن فضلوا الكفر واختاروه على الايمان واصروا عليه اصراراً.. وقال ابن عباس فى تفسيره ومن يتولهم منكم فاولئك هم الظالمون قال: هو شرك مثلهم.. لأن من رضى بالشرك فهو مشرك(١)

وقال تعالى «ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم اولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً» س. النساء ٨٩.

وقال جل شأنه: «يا أيها الذين آمنوا لاتتخذو عدوى وعدوكم اولياء» س. الممتحنة ١

---

(١) صفوة التفاسير.. المجلد الأول ص٥٢٨ ط. بيروت وأيضاً القرطبى ٨/٩٤.

وقال :

« يا أيها الذين آمنوا لاتتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور » س. الممتحنة ١٣

ثم ان المولى قد حذر من موالاة الكافرين وجعل نتيجة ذلك النهج عكسيا لا نصر فيه ولا عزة.

قال تعالى: «الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ايبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جيعا » س. النساء ١٣٩

وقال: «انهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وان الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين » س. الجاثية ١٩

والحديث فى الآية الكريمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينهاه رب العزة عن موالاة الظالمين فالظالمون يتولي بعضهم بعضا فى الدنيا ولا ولى لهم في الآخرة والله تعالى هو الناصر والمعين للمؤمنين فى الدنيا والآخرة[1].

وقال تعالى لتأكيد ذلك المعنى:

« يدعوا لمن ضره اقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير » س. الحج ١٣

وحيث ان المنهج ايمانى فإن مجانبته تستوجب غضب المولى عز وجل قال تعالي:

« يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين اتريدون ان تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا » س النساء ١٤٤

وقال جل شأنه محذراً: «ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من اولياء ثم لا تنصرون » س. هود ١١٣.

قال القرطبى: والآية دالة على هجران أهل الكفر والمعاصى فإن صحبتهم كفر أو معصية إذ الصحبة لاتكون الا عن مودة.. واما صحبة الظالم علي التقية فمستثناه

---

(١) صفوة التفاسير.. المجلد الثالث ص ١٨٥.

من النهى بحال الاضطرار(١)

وقال تعالى: «ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما انزل اليه ما اتخذوهم اولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون» س. المائدة ٨٠ -٨١

لهذا كله جعل المولى عز وجل من الموالاة شهادة على إيمان اطرافها.. او كفرها.

قال تعالى: «وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون» س. الانعام ١٢٩

وقال: «ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ماقدمت لهم انفسهم ان سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون» س. المائدة ٨٠

وفى الجانب الآخر فموالاة المؤمنين شهادة ايمان..

قال تعالى: «ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون» س. المائدة ٥٦

وقال: «انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاه وهم راكعون» س. المائدة ٥٥

وقال جل شأنه:

والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر س. التوبه ٧١

ولم يترك كتاب المولى أقصى الاحتمالات والظروف فيما يختص بمسألة الموالاة وهو ماعبر عنه بعض العلماء بحاله الضرورة.. فوضع لها شروطا عدة لا تنطبق بالقطع على الاوضاع فى ازمة الخليج.

---

(١) القرطبى ١٠٨/٩.

قال تعالى: «لا يتخذ المؤمنون الكافرين اولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شئ الا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه والى الله المصير» س. آل عمران ٢٨

تنادي بعض العلماء والمفسرين أن الآيات التى اشارت الى النهى عن عدم الموالة كانت الى الكافرين.. والمسيحيون واليهود أهل الكتاب.. ونحن مع رأى شيخ الاسلام ابن تيمية فى نظرته من أن أهل الكتاب قد كفروا لعدم اسلامهم وشركهم بقولهم الله ثالث ثلاثة.. وهذا سندنا أيضا من كتاب المولى الجامع القاطع.

قال تعالى: «لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم»س. المائدة ١٧

وقال: «لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة» س. المائدة ٧٣

وقال: «مايود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين ان ينزل عليكم من خير من ربكم» س. البقرة ١٠٥

وقال: «إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً» س النساء ٥٦.

وقال: «وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه» س- سبأ ٣١.

هذا من ناحية.. ومن ناحية أخرى فقد حدد المولى - كذلك - الموقف من موالاة أهل الكتاب وبهذا لا يكون هناك منفذ لاى تأويل أو فلسفة فى اوامر المولى.. وما اكثرها.

قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم اولياء بعض ومن يتولهم منكم فأنه منهم ان الله لايهدى القوم الظالمين» س. المائدة ٥١

فهل هناك من رأى او فلسفة بعد تلك الآية الكريمة الواضحة؟! هل هناك بعد كل ذلك من تحديد وقطع بنص واضح يقطع الطريق علي كل متفلسف وصاحب تأويل؟! والله محاسبنا جميعا.

قال عز من قائل:

«يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعباً من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم والكفار اولياء واتقوا الله ان كنتم مؤمنين» س. المائدة ٥٧

ثم نختتم ذلك الاستشهاد بتحذير الهى واضح وصريح:

قال تعالى: «من لايجب داعي الله فليس بمعجز فى الارض وليس له من دونه اولياء اولئك فى ضلال مبين» س. الاحقاف ٣٢

كل هذه الآيات من قرآن رب العالمين لم يستشهد بها اى من علماء المسلمين.. مع ان القرآن هو مصدر التشريع الاول..

أما استدلالات هؤلاء العلماء، فقد قامت على احاديث لاتتفق مع كون الصراع بين جانبين مسلمين.. فلم يقم على عهد النبى صراع بين النبى وجماعته وبين أى طرف مسلم..

أمامنا آيات قرآنية عديدة اوضحناها من كتاب رب العزة.. وهناك اكثر منها تفيد نفس المعنى.. وأمامنا قرارات عديدة وآراء عدة من علماء افاضل.. فمن نتبع؟!

هذا هو السؤال!!.. بل هذا هو الامتحان.

(١١) الاستراتيجية العالمية.. حصار العراق:

كانت الاستراتيجية العالمية تجاه زلزال الخليج صورة لعالم القوة الواحدة المسيطرة وهى صورة جديدة على العالم وعلى تصوره.. ومن الطبيعى ان يكون المنظار لحجم الكارثة فى هذه الحالة لايمثل الا مصالح القوى العالمية المسيطرة.. ومن المنطقى ايضا ان يكون مخلاً لعدم وجود قوة مواجهة عالمية تحده وتعادله.

أما عن المصلحة الإسلامية.. أو العربية.. فسل.. ولا مجيب.

ونقلا عن دورية .E.I.R الامريكية والتى نشرت أجزاء من دراسة تعدها عن «التخريب المنظم الذى قامت به إدارة بوش لكل محاولة حل سلمى لازمة الخليج»..

ففى غضون ساعات من الصباح الباكر لتلك الازمة العربية ادركت القيادة العراقية انها مستهدفة من إدارة بوش فقد ادان كل من بوش ومارجريت تاتشر اللذان ظهرا معا فى معهد اسبن فى كلورادو الغزو باعتباره عملا غاشما.. ومما قاله بوش « انه للتعامل مع هذا التهديد يتطلب الأمر خلق قدرة عسكرية.. مستعدة للتحرك بدون تأخير»..!!

وفى نفس يوم الغزو!! اجتمع مجلس الأمن وادان العراق بالاجماع «باستثناء اليمن وكوبا».. وطالب القرار العراق بالانسحاب الفورى غير المشروط كما هدد ضمنياً بالعمل العسكرى.

وكانت الجهود العربية سريعة وعاجلة واظهر كل من الرئيس مبارك والملك حسين تخوفهما من أية خطط عسكرية لتدويل الازمة.. وفى يوم ٣ أغسطس ذكر متحدث باسم مجلس قيادة الثورة العراقية عبر راديو بغداد «أن القوات ستبدأ الانسحاب من الكويت فى ٥ أغسطس الا اذا ظهر مايهدد امن الكويت والعراق»

فى نفس اليوم كان لقاء الملك فهد مع عزة ابراهيم نائب رئيس مجلس قيادة الثورة العراقية فى جدة وعقب اللقاء اعلن الملك فهد ان صدام حسين وافق على اللقاء مع مبارك والملك حسين والملك فهد فى جدة فى ٦ أغسطس وكذلك أعلنت السعودية انها سترفض طلبا امريكيا فى اليوم ذاته بقطع خط انابيب البترول العراقى الذى يمر عبر السعودية الى البحر الاحمر.

تجاه كل تلك الخطوات والتى باتت تبشر بتوصل عربى لحل الأزمة وعند ظهر اليوم نفسه اعلن البنتاجون ان ٦٠ الفاً من القوات العراقية احتشدت على الحدود الكويتية وأرسلت تقارير استخبارات الأقمار الصناعية الامريكية للرياض لتأكيد ذلك الاعلان.. واتضح فيما بعد ان التقارير كانت مزيفة.

وفى أمريكا التف مسئولون رفيعى المستوى من إدارة بوش حول السفير السعودى الامير بندر وادانوا بشدة الاتجاه لحل عربى يشير إليه لقاء جدة المنتظر.. ثم ان بوش بعث برسالة تهديد عنيفة للملك فهد.

وفى ٤ أغسطس اليوم التالى.. وفى استجابة واضحة للضغط الابتزازى أمر الملك فهد القوات السعودية بالتقدم للحدود الكويتية..

وبعد يوم ٤ أغسطس أجل السعوديون - ثم الغوا بعد ذلك - قمة جدة بأوامر امريكية فيما يبدو لمنع الحل السلمى العربى لذلك النزاع.

ثم كان الضغط الدولى سريعاً فسرعان مافرضت دول المجموعة الاوربية حظراً على الواردات البترولية العراقية فوريا.. كما جمدت الاصول العراقية فى اوروبا!!!.

وفى يوم ٥ أغسطس أعلنت العراق عبر الاذاعة بأنها بدأت بالفعل بسحب بعض قوات الغزو فى مرحلة اولية من انسحاب على مراحل.. وبدا أن التسوية تفاوضية وممكنة.. وعليه كان تدخل أمريكا حاسما أيضا.. فقد وصل وزير الدفاع الامريكى الى الرياض فى اليوم نفسه والتقى مع الملك فهد والمسئولين السعوديين فى محادثات استمرت يومين.

وفى السادس من اغسطس نشرت الواشنطن بوست ملاحظات للرئيس بوش تعبر عن «خيبة أمله» من رد الفعل العربى على الغزو العراقى فقال:

«أريد ان ارى الدول العربية تلتحق ببقية العالم فى ادانته الاعتداء الغاشم وتفعل ما بوسعها لاخراج صدام حسين» - وشكك بوش فى مصداقية أى حل عربى للازمة..

وفى نفس اليوم أعلنت امريكا وبريطانيا أنهما يبحثان فرض حظر بحرى على العراق - أى وببساطة شديدة اتخاذ اجراء حربى - واعلنت الولايات المتحدة انها ارسلت

ثلاث مجموعات حاملات طائرات الى الخليج.. وسرعان ما أعلنت فرنسا انها ستلحق بالحظر وفي نفس اليوم تبنى مجلس الامن القرار ٦٦١ تحت ضغط الولايات المتحدة بفرض حظراً إقتصادياً على العراق.

كان سيناريو الأحداث ورد الفعل العالمي يشير بما لا يدع مجالا لاى شك الى ان الاحتمالات كانت مدروسة آنفا.. والا ستعدادات كانت قائمة لمناولتها بطريقة تخدم هدف راسمى تلك السياسة وهذا السيناريو.. وفقط..

فى بغداد فى نفس اليوم التقى صدام بالقائم بالاعمال الامريكى جوزيف ويلسون لمدة اربع ساعات.. لكن الولايات المتحدة لم تكن تريد صفقة فلها منظورها الخاص وقد نجحت فى الترتيب لاحتلال عسكرى للخليج..

تلك السياسة التى وضع مبادئها هنرى كيسنجر فى عام ١٩٧٥م.

فى كلمة متلفزة فى السابع من اغسطس اعلن الرئيس بوش ان السعودية مهددة من العراق!! وان استقلال السعودية ودول الخليج الاخرى يقع ضمن المصالح الحيوية للولايات المتحدة الامريكية.. واستطرد علاوة على ذلك ان قطع امدادات البترول السعودية سيشكل تهديداً للاستقلال الاقتصادى لامريكا!!!

فهل هذه التحركات لاتمثل تهديداً للاقتصاد العربى!!!

كان رد الفعل العراقى مدهشاً.. فعلى الفور اصدر العراق قراراً بتجميع رعايا الدول الاجنبية وفرض نوعا من الحظر على الدخول والخروج من العراق.. واغلب هؤلاء الرعايا كانوا من الخبراء والمهندسين والمستشارين والأطباء.. وهذه النخبة المختارة لها اثرها خاصة فى وقت الازمات لعدم خلخلة آلة العمل اليومية..

كان رد الفعل العالمى عبر وسائل الاعلام سريعا وحاضراً.. فتم تصوير الأمر على أن العراق قد أتخذ قراراً بتحويل هؤلاء الرعايا الأجانب إلى رهائن وأستخدامهم كدروع بشرية فى الاماكن الاستراتيجية الصناعية العراقية وغيرها!! وهذا العمل خروجا على مبادئ الانسانية والشرعية الدولية.. الخ..

ونسى الكتاب الاشاوس ان تلك الدول قامت بالاشتراك فى قواتها بتهديد العراق وحصاره فعلا.. وليس قولاً.

ومع هذا سمح العراق بخروج السيدات والاطفال والعجائز. وكان عددهم يتراوح في حدود ١٣ الفاً.

وبعد الحرب لم نسمع عن أى اتجاه عراقى لاتخاذ هؤلاء الاجانب كدروع بشرية ومن أى من هؤلاء الاجانب!!.

برغم كل ذلك فقداصدر مجلس الامن قراره رقم ٦٦٣ فى يوم الجمعة الموافق ١٧ من اغسطس ١٩٩٠م.. والذى أعرب فيه المجلس عن قلقه البالغ بالنسبة لهؤلاء الرعايا وبموجب الفصل السابع من ميثاق الامم المتحدة..

أولاً: يطلب رسمياً أن يسمح للعراق بخروج رعايا البلدان الثلاثة من الكويت والعراق على الفور.. وأن يسهل هذا الخروج ويسمح للموظفين القنصليين بأن يقابلوا باستمرار اولئك الرعايا.

ثانياً: يطلب كذلك الا يتخذ العراق أى اجراءات يكون من شأنها تعرض سلامة امن اولئك الرعايا للخطر.

ثالثاً: يؤكد المجلس من جديد ماقرره من أن قيام العراق بضم الكويت باطل ولاغ ويطلب لذلك أن تلغى الحكومة العراقية اوأمرها باغلاق البعثات الدبلوماسية والقنصلية فى الكويت ويسحب الحصانة من افراد تلك البعثات.

رابعاً: يطلب من الأمين العام للامم المتحدة أن يقدم الى مجلس الأمن فى أقرب وقت تقريرا عن مدى الالتزام بهذا القرار.

نظرة سريعة إلى القرار يتضح ان طرفاً من اطراف النزاع ترجم القرار ولشعوره بالقوة المطلقة بدرجة أعمت عينيه عن حقوق الطرف الاخر فى النظر للأمر بمنظاره.. والمذهل أن يترجم كل ذلك وقانونيا عن طريق مجلس الأمن.. غير أن در الفعل العراقى كان سلبيا وهادئا..

المدهش أن تلك الادعاءات باستخدام الاجانب كدروع بشرية تتنافى مع الهدف الاقتصادى الاستراتيجى العراقى فى ذلك الموقف.. مما يسقطه دون شك. وتدور الأيام

ونقرأ على صفحات الجرائد تمنى بعض هؤلاء الاجانب النهاية السريعة لتلك الازمة حتى يمكنهم العودة والعمل مرة أخرى للعراق!!!

هذا مع العلم أن هناك أجانب يقيمون بصفة دائمة فى العراق..

وبعد أكثر من أربعة شهور على الأزمة تنقل وكالات الأنباء من واشنطون!! نبأ مفاده: «غادر بغداد أمس معظم الرهائن الغربيين الذين كان العراق يحتجزهم كدروع بشرية لمنع أية هجمات عسكرية ضده فى الوقت الذى كشفت فيه وزارة الخارجية الأمريكية عن ان حوالى ٥٠٠ امريكى ممن كانوا يعتبرون فى عداد الرهائن قرروا البقاء فى العراق والكويت بناء على رغبة منهم!!!..

وذكر البيان ان هؤلاء الذين قرروا استمرار إقامتهم فى العراق يحملون جوازات سفر أمريكية»[1].

ثم بعد ذلك بفترة تعلن بريطانيا العظمى انها سوف تحتجز طيارين عراقيين عندها كانوا فى مهمة تدريبية!!!.

لكن ماذا نقول!؟ فهذا هو الاعلام.. وتلك قوته.

مع كل ذلك.. وبعد اسبوع واحد من القرار ٦٦٣ وافق مجلس الامن ايضا على القرار ٦٦٥.. وجاء فيه:

ان مجلس الأمن يشير الى قراراته ٦٦٠ لعام ١٩٩٠..، ٦٦١، ٦٦٢، ٦٦٤ لعام ١٩٩٠م.. وإذ يطالب بالتنفيذ التام والكامل والفورى للقرارات.. وقد قرر المجلس بالاجماع أن يفرض الجزاءات الاقتصادية!! بموجب الفصل السابع من ميثاق الامم المتحدة وذلك فى قراره ٦٦١ لعام ١٩٩٠م. وتصحيحا منه على انهاء احتلال العراق للكويت وهو ما يعرض للخطر وجود دولة من الدول الأعضاء وعلى استعادة السلطة الشرعية للكويت وسيادتها وسلامتها الاقليمية مما يتطلب التنفيذ العاجل للقرارات السالفة الذكر.

---

(١) نقلا عن الأهرام فى ١٩٩٠/١٢/١٣م

واذا يشجب مجلس الامن بالاجماع ماتعرض له الابرايا ء ...:

اولاً: يطلب من تلك الدول الأعضاء التى تتعاون مع حكومة الكويت والتى تنشر قوات بحرية فى المنطقة ان تتخذ من التدابير اللازمة مايتناسب مع الظروف المحددة وحسب الضرورة فى إطار سلطة مجلس الامن لايقاف جميع علميات الشحن البحرى القادمة والخارجة بغية تفتيش حمولتها ووجهتها والتحقيق منها لضمان التنفيذ اللازم للأحكام المتعلقة بهذا الشحن والتى ينص عليها القرار رقم ٦٦١ لعام ١٩٩٠م.

ثانياً: يدعو المجلس الدول الاعضاء بناء على ذلك الى التعاون الكامل حسب اللزوم لضمان الامتثال لاحكام القرار ٦٦٠ لعام ١٩٩٠م. مع استخدام التدابير السياسية والدبلوماسية الى اقصى حد ممكن وفقا للفقرة الاولى رقم واحد.

ثالثا: يرجو المجلس جميع الدول ان تقدم من المساعدة ماقد يلزم للدول المشارة اليها فى الفقرة الاولى رقم واحد من هذا القرار وفقا للميثاق.

رابعاً: يرجو المجلس الدول المعنية ان تنسق أعمالها الرامية لتنفيذ فقرات هذا القرار الواردة أعلاه على أن تستخدم بالشكل المناسب آليات لجنة أركان عسكرية وأن تقدم بعد التشاور مع الأمين العام التقارير الى مجلس الامن ولجانه المنشأة بموجب القرار ٦٦١ لعام ١٩٩٠م. ويهدف تيسير رصد تنفيذ ذلك القرار.

خامساً: يقرر المجلس أن تبقى هذه المسألة قيد نظره النشط!!.

المدقق للقرار ٦٦٥ يفهم منه امكانية استخدام القوة اذا لزم الأمر تنفيذا لأحكام الحصار البحرى!!.

على الفور أعلنت مصادر الكونجرس الامريكية انه: قد بدأ فرض أكبر حصار بحرى عرفه العالم منذ الحرب العالمية الثانية تشترك فيه وحدات من اساطيل ١٢ دولة بقرار من مجلس الامن.. ويشارك فيه الاتحاد السوفيتى!!. ولاول مرة لتنفيذ العقوبات الدولية ضد العراق.

وهكذا كان تصاعد المواقف إلى مايعادل اعلان الحرب فى منطقة الشرق الاوسط المسألة القانونية الغريبة فى القرار ٦٦٥ هو أنه ولاول مرة فى تاريخ الأمم المتحدة

ومجلس الأمن بالذات يسعى المجلس إلى اعطاء سلطات غير واضحة للقيام باعمال غير محدودة.. وبدون تحديد مسئولية المجلس وإشرافه على تلك الأعمال!!!.. الأمر الذى يمثل هيمنة سياسية امريكية على مجريات الحوادث قانونيا وأيضا غير قانونيا.. وكان هذا القرار نواة لنظام دولى جديد!! لاتكون للدول فيه صلاحيات سيادية مطلقة.. فقد أصبحت لهيئة الامم ومجلس الامن تحديداً سلطات مؤثرة تعلو هذه الصلاحيات.

المدهش فى الأمركله ان تلك القرارات صدرت بموافقة الدول الخمس صاحبة النقض أى بما فيها الاتحاد السوفيتى والصين!!

انه عصر المتغيرات.. عصر القوة الواحدة المهيمنة.

اعترض على هذا القرار مندوبى اليمن وكوبا.. وكان اعتراض المندوب الكوبى عبارة عن تساؤلات وجيهة توضح حقيقة المواقع العالمية منها:-

هل هذا القرار قرار الدول الخمس الكبرى؟!

هل بوصفها الدول الخمس التى اسست نظام الامم المتحدة عقب انتصارها في الحرب العالمية الثانية؟!

هل من الممكن القول بأن الدول التى هزمت فى الحرب العالمية الثانية وبالذات ألمانيا واليابان مازالتا دولاً منهزمة..؟!

باسم أى منطق. وقد أقدمنا على اعادة تشكيل النظام الدولى لايعترف لهذه الدول بمكانتها المرموقة فى علام اليوم؟!

أفلم يحن الوقت لتوسيع دائرة الدول التى باتت تتحمل فعلا مسئوليات علي مستوى الكوكب كله وأصبحت تجسد مقوله ان العالم بسبيله فعلا ان يصبح متعدد الاقطاب؟!

هذه الاعتراضات والتساؤلات إنما تضغط على حقيقة تحرك أمريكا وتنفيذها لسيناريو الأحداث فى الخليج.. فهى فى الحقيقة لم تفعل سوى ان سبقت الأحداث لتصبح القوة المرموقة تجاه عدة قوى ناشئة باتت تهددها فعلاً اقتصاديا وسياسيا - بل وعسكريا.

كانت حسابات أمريكا تقوم على حتمية اجهاض أى دولة ناشئة وقوية خاصة فى منطقة الشرق الاوسط البترولية.. وكان الحصار الامريكى يراهن على ان تضييق الحصار على صدام سيؤدى الى اضعافه داخليا واسقاط نظامه بعد تكبيله اقتصاديا بانقلاب عسكرى او باغتياله شخصيا من عناصر مناوئة داخل الجيش العراقى.

لم يكن أمام العراق إلا الطريق الصعب.. الوحيد.. فكانت قنبلة العراق بصلحه مع إيران!!.. مع تنازل العراق وقبوله اتفاقية الجزائر لعام ١٩٧٥م مقابل كسر طوق العزلة والحصار الدولى الاقتصادى المفروض عليه وضمان الحصول على امدادات غذائية ومواد طبية وغيرها عبر ايران.

كان رهان العراق على نظرة إيران العقائدية تجاه امريكا والتى ولدتها النهضة الشيعية الخمينية الاخيرة.. وعدم قدرة اى زعيم من زعماء الدين على مناهضة وكسر أساسيات الفكر الخمينى فى الفترة الراهنة مع التذكير بمسألة عملية اجاكس للمخابرات الأمريكية والتى اسقطت حكومة د/محمد مصدق الوطنية.. وإعادة الشاه مرة اخرى.. ونجح الرهان.. فسرعان ما اتفق الجانبان على اعادة واستئناف العلاقات الدبلوماسية والقنصلية بينهما واعادة افتتاح السفارات ومقار البعثات الرسمية الموجودة في كل من طهران وخورمشهر وبغداد والبصرة.. وسرعان ماتحدثت الصحف القريبة من صنع القرار الايرانى عن قدرة ايران على تلبية احتياجات العراق من المواد الغذائية والأدوية والمستلزمات الطبية..

مرة اخرى يخطئ النظام الأمريكى مع الكرامة العربية.. فاذا مس الأمر الكرامة فى صورة الحصار جوعاً وغضباً فان الكرامة العربية على استعداد لقلب الموائد واتخاذ المواقف الصعبة.

يقينا فإن هذا القرار من أخطر نتائج الأزمة الخليجية.. فقد زعزعت أساسيات كثيرة وهدمت نظريات.. ولكن تبقى الحقيقة دائما قوى من أية عوارض فالتنافر بين نظام الشيعة فى إيران والسنة فى العراق عميق ومتأصل..

والمدهش فى التوازنات الدقيقة للأمور أنه كما تخطئ إيران فى ظنها بأن فى استطاعتها التهام العراق سياسيا بعد أن فشلت عسكريا.. فإن السعودية والكويت

والامارات تخطئ في ظنها الاعتماد على وأمريكا والقرب في صد أي مشكلة عقائدية فالعراق سيبقى السند الاساسي للسعودية والخليج.. هذا هو الأساس الذي لايجب كسره.. كسره الامريكان لاطماعهم.. والسعوديون يتركهم الامر كله لهم..

افكه ما في الامر هو مارفعه المدعون على صدام أن حربه طوال الأعوام الثمانية كانت بلا طائل.. وخسارته لمئات المليارات ومئات الألوف من الأنفس كانت لأجل نزواته العدوانية.. فقط!!.. الخ.

فكيف يفسر هؤلاء الأفاضل موقف السعودية والإمارات وغيرها من الحرب؟! مع نظام الكارانتينا حول الشعب العراقي بأكمله تذكر المتآمرون مسئولياتهم تجاه الرعايا الأجانب في العراق.. وعليه فلم يكن صعبا على أمريكا أن يصدر مجلس الأمن قراراً يقضي بإشراف الأمم المتحدة والصليب الأحمر والمنظمات الدولية المعنية على تسليم المواد الغذائية وتوزيعها على المحتاجين المدنيين في العراق والكويت!!!

على الفور كان رد العراق برفضه لأي جهة بتجاوز سلطانه والإشراف على تسليم وتوزيع الأغذية داخل أراضيه أو داخل الكويت.

وعلى الفور ايضا كان قرار مجلس الزمن الذي نص على «أن العراق يتحمل المسئولية كاملة عن أي ضرر يلحق بسلامة وأمن الرعايا الاجانب في اراضيه ويعني ذلك أن العراق يتحمل مسئولية اية نتائج تترتب - بالنسبة للرعايا الأجانب - على منع وصول الامدادات الغذائية التي تقرر تنظيم قواعد إرسالها إلى الكويت والعراق»!!

أما عن الشعب العربي العراقي.. فلا تسل.!!

المدهش أن عبارات قرار مجلس الأمن رقم ٦٦٥ جاء في عبارات مطاطة تتسع لتفسير الأطراف المهيمنة حسب الظروف!!

أشارت وكالات الأنباء من نيويورك في ١٩٩٠/٩/٨م على إصرار امريكا على الحيلولة دون إرسال أية مواد غذائية أو طبية إلى العراق تطبيقاً للحظر الأقتصادي الذي فرضته الأمم المتحدة.. كما اكد مسئولون أمريكيون في المنظمة الدولية انه ليس من حق أي دولة في العالم إدخال أية استثناء على قرار الحظر من تلقاء نفسها..

أما الحكومة الصينية فقد اكدت لطه ياسين رمضان نائب رئيس وزراء العراق أنها ترى أن الحظر المفروض على العراق لايشمل المواد الغذائية والطبية.. ومن ثم فقد أعلن متحدث باسم الخارجية الصينية أن ماوصفه بالأمدادات الإنسانية الأطعمة والأدوية لايشملها الحظر.

وفي لندن دعا جورج روبر تسون وزير والدولة للشئون الخارجية فى الحكومة الظل الى ضرورة الحصول على قرار من الأمم المتحدة يخول فرض حصار كامل على العراق وذلك للرد على الاختلافات فى الرأى الانسانى.. بين اعضاء مجلس الأمن الدولى.

أهم ما فى الأمر هو تحليل نظرة ونفسية الدول الكبرى تجاه ذلك الأمر الانسانى أولا وأخيرا.. الأمر الذى لايمكن اعتباره عملا حربيا قدر ماهو عملا تخريبيا اجراميا موجها للشعب العراقى بحميع طوائفه.. ومن ثم يمكن تحليل النفسية الأمريكية والغربية تجاه أهل المنطقة عامة.

عندما لم يجد الحصار البرى والبحرى على العراق ظهر تحرك دبلوماسى يهدف وللمرة الأولى فى التاريخ إلى فرض حظر جوى على العراق!!. ورغم الصعوبات الفنية فى تطبيق والزام طائرات العالم بعدم حمل أية مواد تموينية أو عسكرية أو غيرها عن طريق الجو.. أو اعتراضها فى الجو!!.. فقد صدر مثل هذا القرار ومن مجلس الأمن.. الامريكى!!

فى فجر ٢٦ سبتمبر ١٩٩٠م صدر القرار التاسع.. فى أقل من شهرين ويقضى بفرض حظر جوى شامل وقطع كل طرق الاتصال الجوى بالطائرات بين العراق ودولة الكويت المحتلة مع العالم الخارجى!!

رغم غرابة قرار مجلس الأمن ورغم أن تركيا سارعت وعلى الفور بفتح مطاراتها وأرضيها للسلطات الأمريكية والغربية لتستطيع اعتراض أية طائرة متجهة الى العراق فإن الطريق عبر عمان الاردن.. والعراق ظل مفتوحاً رغم كل ذلك.

سافر الأسد الحليف العلوى لايران لاقتناع حكامها باتخاذ الخطوات اللأزمة لتنفيذ الحصار لكنه فشل فى مطلبه!!

كان العماد عون فى لبنان يستخدم موانيه كمنفذ للعراق وعليه فسرعان ماتمت الاطاحة به وبمليشياته.

أما العقيد القذافى فقد أعلن عدم التزام ليبيا بأى خطر وأن الرحلات الجوية إلى العراق مستمرة وأن من يريد أن يرسل شيئا الى العراق فعليه فقط أن يأتى به إلى ليبيا.

أمام هذه المواقف وحتى مع فاعليتها المحدودة فقد قامت أمريكا باصدار قرار من مجلس الأمن بتحميل العراق جميع الخسائر التى لحقت بالأفراد المؤسسات والدول نتيجة عدوانه!!.. ومن ثم صدر قراراً آخراً بقانونية استقطاع هذه التعويضات من أرصدة العراق المجمدة.

ثم سرعان ما اوضحت الدراسات السياسية أن ميثاق الأمم المتحدة يسمح باستخدام القوة - أى بالحرب - تحت مظلة الأمم المتحدة.. فالمادتان ٤٤ ، ٤٦ من الميثاق تفيدان بأن مجلس الأمن بمكنه أن يضع الخطط اللأزمة لاستخدام القوة المسلحة التى تعمل تحت امرته!! وتنص فى هذه الحالة على تشكيل لجنة اركان حرب لتحدد التوجه الاستراتيجى للقوات «المادة ٤٧».. والأعمال اللازمة لتنفيذ قرارات المجلس بالقوة..

وهكذا استطاعت امريكا وبسهولة الحصول على الاذن القانونى للقيام بالحرب.. وبأسم الأمم المتحدة..

ولم يستمر الأمر طويلا ففى اواخر شهر نوفمبر أصدر مجلس الأمن الامريكى. إنذاره الأخير إلى العراق بالانسحاب.. وإلا فالحرب.. وفى موعد اقصاه ١٥ يناير والا فانه يحق للدول الأعضاء فى الأمم المتحدة اللجوء لكل الوسائل الضرورية من أجل تنفيذ قرارات المجلس - العشرة - السابقة!! والتى صدرت حول أزمة الخليج.

هذا هو السيناريو المسبق للاحداث.. بعد أن تم تقنينه.. والملاحظ أنها كلها خطوات امريكية بحتة تمت حتى دون استشارة الجانب العربى المؤيد لها.. بل وبمساعدته الماليه وإلى أقصى حد!!.. وتم تقنينها بكل سهولة رغم معارضة بعض قيادات الدول العربية.

قام الملك حسين بمحاولات دبلوماسية مكثفة وسريعة انتهت بالفشل الزريع لمعارضة امريكا وامراء وملوك البترول العرب.. ولم ييأس الملك فقام بمحاولات أخرى لم يكن حظها من النجاح بأفضل من سابقتها.

قام الملك حسن بمحاولة أخرى للم الشمل ولم يكن أسعد حظاً من أخيه الملك حسين.

أما الرئيس القذافى فرغم موقفه المتوازن من المشكلة واعلانه منذ لحظتها الأولى بضرورة الانسحاب العراقى مع مطالبته بتحجيم الأطماع الغربية والأمريكية تجاه المنطقة فقد واصل مجهوداته التى تحطمت عندما رفض العاهل السعودى الاجتماع به!! وهنا أعلن الرئيس الليبى أن بلاده لن تواصل مساعيها لحل الأزمة سلمياً بعد الآن.

أما الرئيس الجزائرى فقد قام بمحاولات جادة هو الآخر.. ومرة آخرى وبرفق ولطف هذه المرة رفض العاهل السعودى الاجتماع به!!.. وأعلن الرئيس الجزائرى على الفور تخليه عن مساعيه لأية مشكلة عربية بعد الآن.

من الواضح أن الاتجاه الأمريكى - البترولى كان يهدف أساساً إلى لفظ الجهود العربية كقوة مؤثرة فى الأحداث حتى وهى صاحبة هذه الاحداث وانفرادهم جميعا ومعهم جيوش العالم بصدام حسين وجيش وشعب العراق.

يخطئ من يظن من العرب بعد تسلسل تلك الحوادث أن أمريكا لم تجئ إلى المنطقة إلا بناء على رغبة اصدقائها من ملوك وامراء العرب ولصالحهم!! فالأمر حتى الآن لم يظهر بجميع خفاياه واتفاقاته السرية.

وهكذا أصبح أمر العرب خافيا عليهم.. وليس بأيديهم.. ومن ثم فمستقبلهم غير مضمون ضرورة.

تكفى الاشارة إلى انه رغم الخطوات الامريكية السياسية والقانونية التى تستحق الاعجاب فانها قد قررت إرسال وحداتها العسكرية لمنطقة الخليج صباح السبت الموافق ١٠/٨/١٩٩٠م.. أى قبل قرار مجلس الأمن بأكثر من ثلاثة اشهر كاملة..

وبعد الأزمة فقط بأسبوع واحد!!.. اتخذ هذا القرار فى اجتماع استمر ساعتين فقط فى معسكر كامب ديفيد.. وحتى يدون اذن مسبق من الكونجرس الامريكى ذاته.. ثم توالى يعد ذلك وصول القوات المتعددة الجنسيات وأيضا بعض القوات العربية والاسلامية.

أما تقنين السياسات بعد ذلك فهو أمر أمريكى معروف.. يشهد على ذلك مازخرت به قرارات ملجس الأمن طوال أربعة اشهر من بدء الأزمة أدنى منطق يؤكد أن الأحداث انما جرت لغاية وهدف مصلحة امريكا كقوة مسيطرة. وعلى حساب المنطقة بأسرها.

وهل هناك سوى البترول والمال.؟!

(١٢) تغير التكتلات.. اخطر نتائج الأزمة:

تبقى الشدائد والازمات على الدوام الامتحان الحقيقى للنوايا والنفوس والشعارات وتبقى الحكمة دائما فى تناول أى صراع أو أزمة من منطلق إيمانى عقائدى ثابت.. أو أخلاقى قانونى.. تلك الحكمة التى تقلل احتمالات الأسف والندم على أية نتيجة كانت الأزمة فى نهايتها.

فى حرب الخليج الأولى دار الصراع بين إيران الخمينى والعراق.. ورغم مرور أكثر من ثمانية أعوام على هذا الصراع فلم يمكن فضح التيارات التى كانت توجه دفة هذه الحرب.. هى حرب عقائدية بالتأكيد يفهمها أهل المشرق العربى جيداً وكان انطباعها على طوائف المسلمين فى المشرق ملموس ويسهل تفنيدها وتقسيمها.. وهى حرب اقتصادية أيضا ادارت دفتها ووجهتها القوى العالمية على أغنى دول المنطقة بأسرها.

كانت نظرة مصر والمغرب العربى بأسره تجاه الصراع نظرتهم لأشقاء فى محنة على الأقل من ناحية الاعلام.

فى تلك الحرب سرعان ماوضح الجناح السورى والذى سرعان من انحاز بالكامل نحو إيران. ضد أخيه العراق.. هذا رغم اشتراك البلدين فى نظام حكم وحد هو النظام البعثى.. وليس من عجب لترير ذلك اذا علمنا عن تحكم العلويين فى سوريا منذ نكسة ١٩٦٧م. والعلويين طائفة متشددة من الشيعة.. لهم وزنهم فى شمال سوريا.. ونهضة الشعية وبعثتهم الخمينية كان ولابد أن توثر فى الاقربين من طائفته.

انعكس ذلك التيار الجامح على سياسة سوريا تجاه لبنان.. ومجتمع لبنان كانت تتعايش فيه كل الطوائف مع هيمنة مارونيه واغلبيه سنية واضحة. ومنذ احداث لبنان وزيادة القوات الفلسطينية بها حتى كان رد الفعل يرمى الى هدف أساسى هو تشييع اغلب مسلمى لبنان.. ومن ثم فقدتم ضرب المليشيات السنية واجهاضها.. وتمت الموافقة على ترسيخ القدم الشيعية فى صورة الاستعانة بقوات حزب الله الايرانية والتي اتخذت من دمشق محطة لها للتمركز فى لبنان.. وكان محصلة تلك السياسة فى

النهاية على صورة هيمنة شيعية واضحة بعد انحسار القوات السنية وضربها.. وأيضا القوات المارونية هنا كان ولابد أن يثور صراع بين جناحى الشيعة حزب الله وقوات أمل ومرجعه أن حزب الله حزب شيعى اثنى عشرى.. أما قوات أمل فهى شيعية فاطمية.. كما كان للتباين العرقى الإقليمى أثره ولاشك.

ربما كان التفسير المذهبى لجماعات لبنان المختلفة المتصارعة هو الأساس الممكن الوحيد لفهم أحداث لبنان وتيارات ابطالها على تداخلها وقسوتها وحتى عدم منطقيتها.

فى المقابل كان هناك جناح السعودية. العراق.. وحتى مصر كانت حرب الخليج حرب عقائدية خطيرة.. هدف الخمينى منها على القضاء على سنة العراق وجعلها المحطة الأولى لتنفيذ المملكة الشيعية الكبرى كما جاء فى كتابه الخطير «الحكومة الاسلامية».. وكان الهدف الاستراتيجي والنهائى ينحصر فى الأماكن المقدسة للمسلمين فى السعودية.. ولعل ذلك ما يفسر أحداث الحرم المتكررة.

كانت العراق على وعى بما يهددها من أخطار فهى تلمس نوايا التيارات الشيعية وتتعايش معها.. وكتاب الحكومة الاسلامية للخمينى كتبه وهو فى العراق!!. ومن ثم فقد كان هدفها الرئيس هو تحييد تلك النزعة لخطورتها.. وبأى ثمن.

لعل ذلك الاساس العقائدى هو مايفسر طبيعة تلك الحرب الضروس والتى استمرت لاكثر من ثمانية أعوام مع كثرة القتلى والجرحى من الجانبين.. عدا مئات المليارات التى استلزمتها الحرب والتى ساهمت فيها السعودية والكويت والامارات وكان جزء منها على هيئة سلف.. أساس زلزال الخليج.

كان أعظم مشاهد تلك الحرب لنجاح العراق سياسياً فى تأليف شيعة المتباينة ضد التهديد الشيعى الخمينى من سنة وشيعة على السواء.. ثم كانت سياسة صدام فى الاستعانة بكل امكانياته لخدمة تلك الحرب.. وأيضا لبناء قاعدة عسكرية عراقية الأمر المكلف دون شك.. الأمر الذى يفسر وضع العراق الاقتصادى بعد الحرب.

لم تكن كل تلك التحركات بعيدة عن عين امريكا والغرب.. فهى مصدر السلاح لاطرافها ومصدر التكنولوجيا ولوازمها.. وهى المستفادة من كل ذلك.. وهى أيضا من

وضعت عينها على تدمير ذلك البناء واستنزاف المنطقة بعد ذلك.. خطة متكاملة الاركان،.. دائرة لاتجاه.. تكسب على جميع الاحوال طالما ليس فى تلك المنطقة أية استراتيجية موحدة ولا رأى ثابت موحد تجاه قضاياها.

كان موقف مصر- رغم موقف العراق منها بعد كامب ديفيد - يؤكد تفهم السياسة المصرية للمعادلة الغامضة فى حرب إيران والتى لم ترى فيها وسائل الاعالم غير موقف عروبة واخوة أصيلة.. وفقط!!.. غير أن تلك المعادلة كان من السهل معرفتها عن طريق الإعلام السعودى الذى أوضح اصول الصراع ودوافعه ووقف الى جانب العراق.. كانت الحرب إذاً حرباً يرى فيها جميع الفرقاء حياتهم ودينهم تحملها العراق الابى وحده.

بعد نهاية الأعمال الحربية وتوقف القتال كانت هناك تداعيات سياسية عالمية استلزمت الاسراع فى إخراج سيناريو الأحداث.

فجأة وبدون مقاومة تذكر تساقطت الشيوعية..

تخلت روسيا عن أوروبا الشرقية كلها وببساطة شديدة تشير فى حقيقة الأمر الى مبلغ الحقيقة الأقتصادية التى اغتالت ذلك العملاق.. وفجأة رأينا الشعوب تلفظ الشيوعية فى تلقائية عجيبة وفى شعور صادق لاشبهه فيه بل وجدنا الاتحاد السوفيتى ذاته تهدده المجاعة والانقسامات.. ثم اذا به يرتمى فى حضن أمريكا عدوه اللدود يطلب المساعدة ويمد يداً طالما رفعها فى وجهها مرغداً مزيداً.. ثم اذا بالجمهوريات السوفيتية العديدة تبحث بحثاً حثيثاً جريئا عن هويتها وانتماءاتها..

بدا الأمر غريبا على المحللين لفترة.. وكأنه عصر قادم يتميز بالقوة الواحدة المهيمنة.. لكن الأمر لم يكن على هذا القدر من البساطة على الاطلاق فقد تلازم ذلك مع قرب استكمال الهوية الاوروبية الموحدة.. والمتطلعة للقمة والذى لم ينتهج بدوره سوى النهج المنطقى وهو نهج الوحدة الاقتصادية والسياسة تهدم سور برلين وسقط بين ليلة وضحاها.. وتوحدت ألمانيا.. وهى بمفردها لها ثقلها.. فما بالنا لو اضفنا إليها انجلترا وفرنسا وايطاليا وغيرها من العديد من الأقطار الاوروبية القوية الفنية.

كان سقوط «تاتشر» اقوى رئيسة وزراء بريطانية مؤشراً حتمياً لولادة تلك القوة القادمة والتى سوف تهدد بالقطع القوة الامريكية الرائدة وذلك لميل تاتشر لامريكا ومعارضتها لانضمام بريطانيا فى تلك القوة الأوروبية الوليدة.

كان لابد لأمريكا من التحرك وبسرعة لضمان الهيمنة على منابع البترول فى الشرق العربى.. مركز الثروة والطاقة فى العالم.. فكان التحرك الامريكى.. وعن طريق أصدقائها الأوفياء من شيوخ البترول.. فكانت الأحداث.

كان من الطبيعى أن تتفاعل القوى العربية مع تلك الأحداث والمتغيرات العالمية على أن افرازها كان عجباً.

الموقف السورى:

كان الموقف السورى متوقعاً وأن يكون على شئ كبير من التعاطف مع السعودية وإمارات البترول العربية.. وذلك لأسباب عدة منها أنها تتلقى سنويا من تلك البلدان حصتها للصمود والتصدى تجاه العدو الصهيونى.. وأيضا لموقف الكراهية العميق بين حزبى البعث الحاكم في سوريا والعراق.. وايضا للكراهية الشخصية المتعلقة بين صدام والأسد.. وأيضا لأن هذا هو الاتجاه العالمى الموجه القوى للأحداث من ركبها غنم.. ومن تصدى لها هلك.

غير أن تطور الموقف السورى حتى إرساله قوات ومدرعات الى شمال السعودية فى مواجهة قوات العراق فى الكويت كان امراً يستدعى الدهشة والاستغراب فسوريا حسب الاعلانات الرسمية - هى قائدة جبهة التصدى والصمود أمام التوسع الإسرائيلى .. والجولان محتلة منذ ١٩٦٧م.. كما أنها غارقة لأذنيها فى مشكلة لبنان والتى استمرت لما قارب على التسعة عشر عاماً.. أى وببساطة فسوريا منهكة يدل على ذلك اقتصادها الهش.. وديونها الكثيرة.

إن موقف سوريا وتطوراته من الأحداث يثير تساؤلاً فى غاية الأهمية هل غزو بلد عربى لبلد عربى آخر أهم فى مفهوم الاستراتيجية السورية من التصدى لإسرائيل والتى تحتل أراضى سورية.. وغيرها؟!

مايزيد من العجب هو مواقف سورية تجاه اطراف أخرى كانت نظرة سوريا تجاهها تعتبر مسألة محسوبة مقررة.. فنظرة سوريا تجاه مصر منذ اتفاقية كامب ديفيد - المشئومة - كانت نظرتها لصديق عدوتها كما تدعى.. فإذا بها فى ليلة وضحاها- ولأمر لايمس حقيقة ذلك التنافر مباشرة - نرى القوات السورية والمصرية فى خندق واحد.. وضد العراق.!!

يزداد الأمر تعقيدا عندما انضمت إيران للعراق عدوة الأمس.. أيضاً فرغم العلاقات الوطيدة بين سوريا وطهران فقد بات الأمر متعارضاً.. الأمر الذى حد بالرئيس السورى لأن يزور طهران لمحاولة خلع إيران من خندق العراق.. وفشل الزعيم السورى.. الذى وجد نفسه وفجأة فى خندق واحد مع امريكا وضد طهران.

كان من المحتم ظهور التناقضات لتناقض المواقف.. فبعد اسابيع اعلنت امريكا تزويد اسرائيل بصواريخ متطورة للغاية الأمر الذى أثار قلق وغضب القيادة السورية والتى اعلنت واظهرات احتجاجها لمدة يومين.. ثم أن الرئيس الأمريكى اجتمع مع الرئيس السورى فانتهى الأمر.. هكذا!!! ولم نسمع بعد ذلك كلمة احتجاج ضد السياسة الأمريكية والتى اعلنت بعد ذلك مسئوليتها علنا كعادتها على ضمان التفوق الإسرائيلى على جميع الدول العربية!!!

الموقف المصرى:

كان فى الموقف المصرى إشارات تستحق الأهتمام.. فقد كانت شريكا فى المحادثات التى سبقت زلزال الخليج.. بل وأعلن الرئيس المصرى أن للعراق حقاً فى دعواه ضد الكويت.. وكانت مصر تبذل غاية مساعيها لِلم الشمل مخافة وقوع كارثة لكن ما أن تشكلت الأحداث حسب السيناريو الأمريكى لها حتى تغير موقف مصر

تماما.. وانضم بكل قوته إلى الجانب السعودى.. الكويتى الامريكى.. حتى أرسل قوات إلى السعودية.

لاشك وأن السياسيين المصريين كانوا على حقيقة ببعض أسرار الموقف غير ان تطورات الأزمة لازمها منذ بدء التشكل المصرى اعلام موجه فرض نظرة محددة واتجاه محدد.. ولم نسمع عن حقوق العراق ولا كلمة!!

كان الموقف الرسمى المصرى مبنياً منذ تلك اللحظة على ادانته لعملية الغزو.. أى بدأ وانتهى عند الحدث دون الرجوع لأسبابه!! غير أن مايلقى ظلالاً على الفهم هو أن تطور أحداث الخليج وتعقيداتها شهدت أحداثا غريبة إلى حدما.. منها تنازل القيادة الأمريكية على أرباح ديونها العسكرية تجاه مصر والتى تبلغ أكثر من سبعة مليارات من الدولارات.. كما تنازلت السعودية والامارات وقطر عن ديونها كذلك.. وكذلك غيرها.

رغم أن تنازل دول البترول الغنية عن مستحقاتها لمصر لايجب اعتباره فضلاً وذلك لما قدمته مصر من تضحيات منذ حرب ١٩٤٨ إلى حرب ١٩٧٣م.. وأثر تلك الاحادث المباشرة على غنى تلك الدول.. ناهيك عن حقها الذى يبيحه الشرع والدين رغم كل ذلك فإن السؤال الذى يفرض نفسة هو لماذا هذا التنازل فى ذلك الوقت بالذات؟!

الأمر أوضح فيما يختص بأمريكا.. فهى أيضا لم تخسر فلساً.. فقد قدمت امريكا قرضاً عسكريا لايتعدى السبعة مليارات على أن تسترده أكثر من عشرين ملياراً!! وبدلاً من أن تحاسب الحكومة المصرية المسئولين عن ذلك العقد وتعدمهم فى أشهر ميادينها نراها تشكر أمريكا على أن رحمتها من ذلك المأزق الاقتصادى!! تلك السياسات الاقتصادية يدفع ثمنها الشعب المصرى كله باجياله المتتابعة.. واثرها ملموس محسوس لنا جميعا.. ولايحق لأى أحد ايا كان أن يتناولها ببساطة..

كان من الممكن للسياسة المصرية أن تكون ذات تأثير أقوى فى الأزمة لو انتهجت مسلكاً متوازنا بين الطوفين المتنازعين الأمر الذى افتقدنه عندما رفعت حكما قبل أن تبحث فى أسباب النزاع وتفصل بين أشقاء.

المملكة العربية السعودية:

أصبحت المملكة بعد أيام من غزو الكويت صاحبة قضية ورافعة لوء جمعت تحتد من قوات أمريكا والغرب مافاق النصف مليون.. مع هوامش من القوى العربية والإسلامية.

كان قرار السعودية طلبها الإستعانة بقوات أمريكا والغرب قرارا خاصا بسياستها ونظرتها وتقييمها للأمر من وجهة نظرها.. هذا مع أن الشكوك فى منتهى القوة من الادعاء بخظر العراق على منابع البترول فى المنطقة الشرقية.. لاشك فى أن نيادة السعودية ترتكن أولاً وأخيراً على أمريكا فى حمايتها واستقرارها فهل درست سعودية وبجدية نظرة أمريكا إلى حقائق الموقف العالمى وأهمية ضمان منابع البترول عسكريا حتى وإن ضمنتها سياسياً؟!

الرابح فى المشكلات العالمية هم الأقوياء.. أصحاب الترسانات.. والحروب لا شتعل من أجل حقوق الضعفاء قدر مصلحة الاغنياء والأقوياء.. تلك حقيقة التاريخ.. واشكال ذلك الربح سوف تظهر دون شك فى تغيرات اقتصادية ومعاهدات ومواثيق إلى آخره.. لا تهدف إلى حماية الضعفاء قدر ما تشير إلى جشع الاغنياء.. ولعل السعودية أول من سوف تلمس نتائج سياستها.. ومعها بالطبع الكويت.. فهما من دفع ثمن ذلك الحشد الهائل والذى لم يشهد له العالم مثيلا من قبل- مئات المليارات فقدتها السعودية والكويت كان جزءاً منها يسيراً بسيطا كفيلا بتوازن العراق اقتصاديا وماليا.. وهو أقل من حق العراق.

ثم هل يوجد من هو أنسب من العراق العربى المسلم القوى لحماية السعودية الغنية؟ إن موقف العراق من المد الشيعى كان يجب أن يكافىء بشكل آخر تماما خاصة بعد حوادث الحج الدامية منذ عدة أعوام.. فهل تنتظر السعودية حمايتها من الدول الغربية أيضا من ذلك الطوفان الذى يهددها؟!.

المؤسف أن الخاسر فى تلك الاحداث كلها هو الجانب العربى ومنه السعودية وهو بلد تهفو إليه الانفس والروح.. ونحميه بأرواحنا ومهجنا لقدسيته ومكانته عند كل

مسلم.. لكن ماذا نقول؟!.. فهذه هى السياسة العالمية تجاه المنطقة.. وإذا لم تعلم أن القوة الذاتية العربية والإسلامية هى السند الحقيقى والوحيد لأمتنا فقل على الدنيا العفاء.

إن المتأمل للأحداث وما بعدها ليصاب بالرعب والهلع.. فلم يعد الأمر مجرد نزاع عربى- عربى.. بل هو أمر يهم السياسة العالمية الغربية ولا دخل لأهل المنطقة بها ولا وزن- والحقيقة التى لا مفر من التصريح بها أن القوات الأمريكية لها أهدافها والتى لن تنسحب إلا بعد تحقيقها.. هذا لو انسحبت على أى حال..

المسئولون فى العالم كله يتحدثون عن ثوابت أمريكية وعالمية تجاه المنطقة. ونحن لا ندرى عن ذلك شىء.. ومدخلهم سياسة السعودية فى المنطقة.

نظام أمنى للخليج:

تعتبر أمريكا صاحبة الفكرة الأساسية التى تعتمد الوجود العسكرى الغربى فى منطقة الخليج العربى وظهر ذلك تحت مسميات الاحلاف الأقليمية العديدة.. تلك التى بدأت بحلف بغداد.. ثم بالحلف المركزى.. وانتهت بعد ذلك بالقيادة المركزية التى عاصرت الحرب الإيرانية العراقية.. تطورت هذه القيادة تحت مسمى «قوات التأمين للملاحة البحرية».. والتى وفدت على منطقة الخليج فى بداية النصف الثانى من الثمانينات.. وظلت تعمل لحساب الملاحة الدولية باجتهادات فرعية تطوعية حتى عام ١٩٨٨ م.

أما الاتحاد السوفيتى فقد أوضح دون لبس أنه «ليس من شأنه أن يتخذ المبادرة فى شأن اقتراح أى تنظيم اقليمى للأمن.. ويجب على دول المنطقة أن تقدر بنفسها ما يجب أتخاذه بذلك الخصوص».

أما أغلب المجموعة الأوروبية خاصة بريطانيا فترى أن «وجود قوات من مصر وسوريا والمغرب ودول الخليج على أرض السعودية قد يكون بداية شىء جديد هو نظام عربى أمنى للخليج».

أما على أرض الواقع فالأمر يشهد هيمنه أمريكية.. وتحفز أوروبى تجاه المنطقة.. ومن ثم تفرض العلاقة الخاصة الأمريكية بأصحاب العروش والتيجان العربية والبترولية نفسها على الجميع.

رغم أعترافنا بفشل معاهدة الدفاع العربى المشترك فإن المستقبل غير مضىء بالنسبة لأية تحالفات عربية أخرى تخص منطقة الشرق العربية دون الاعتماد وبشكل أساسى على العراق العربى القوى.. فما بالنا نحطم الأمل بأيدينا!!!

إن السياسات العالمية عند دراستها نرى أنها تهدف أساسا إلى جعل هذه المنطقة منطقة عدم استقرار وأعتماد دائم على أمريكا بالذات.. وهذه ابسط الطرق لاستنزاف خيراتها الأمر الذى نلمسه ونحسه جميعا.

أكدت صحيفة الواشنطن بوست الأمريكية أن «الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى قد بدأ فى وضع إطار لترتيبات أمن جديده طويله الأمد لمنطقة الخيلج!!! وأضافت الصحيفة نقلا عن ما يبدو أنه إعادة تخطيط المنطقة عن طريق إقامة ائتلاف عربى فى وجه العراق على حد تعبيرها»[1].

الموقف العراقى:

قد لا يجد المرء الكلمات المعبره عن شعور العراقيين تجاه الاحداث.. فبعد أن أدى العراق واجبه على الوجه الأكمل حماية للمشرق العربى السنى نزع الجميع- عجباً- إلى التنصل من شرعيته وخطورته على المنطقة ووصف أبسط الكتاب حرب الخليج الأولى بأنها نزعة من نزعات صدام- فعلام كان تأييد دول المشرق العربى إذاً؟!

دفع العراق من ماله وشبابه ومستقبله دفاعا عن هذا الهدف الأساسى وكانت النتيجة محاولة تسييسه وتشكيله وتفقيره من حلفائه!!..فلا لوم على العراق وعلى سياسته فهو الجانب الذى عانى من جراء مصداقيته ورجولته.. وترضية العراق وتعويضه أمر لا يمكن أغفاله عربيا وإسلامياً لصالح الأمة الإسلامية قبل صالح العراق نفسه.

---

(١) نقلا عن جريدة الأهرام ١٣/٩/١٩٩٠م

إن خطورة الأمر كلة تكمن فى أن من يفقد العراق السُنى فى جانبه سوف يكسبه بالضرورة عدواً شرساً.. وتكفى نظرة سريعة لتركيبه العراق المذهبيه حتى نتأكد من تلك الحقيقة الواقعية الملموسة.

إن أدنى منطق مفقود فى تسلسل الحوادث.. والعاقل من عقلها قبل أن يتوكل وإلى الله الأمر كله.

المدهش أن معظم البلدان العربية تتفهم دوافع العراق وظروفه ومن ثم كان موقف تلك البلاد تلقائيا وعفويا وليس سياسياً- بل وما زالت معظم تلك الدول متمسكة بموقفها تجاه العراق رغم مرور وقت كاف للتفكير.. ووقت كاف لاستيعاب الاخطار والمتغيرات السياسية والاقتصادية العالمية والعربية.. هو إذاً موقف مبدأى ينبع من فطره عربية إسلامية تمس الغنى والفقر والعلاقة بينهما بين المسلمين.. ويرى الجميع فى العراق المثل الذى يتهددهم.

بعد مدة من الزمن اثبتت المواقف أن التنافر العربى- العربى لم يعد من السهل حله.. والمدهش أن ذلك التنافر يتناسب مع توافق أوروبى لم تستطع الدول الاسكندنافيه والمشهوره بحيادها الطويل أن تتجاهله فانحازت لأوروبا.. وتحليل ذلك التنافر يمكن أرجاعة لأسباب اقتصادية تمس الحياة والمستقبل ونعنى به الحقوق المتبادلة وهى العُملة الأكيدة بين شعوب يجمعها الدين واللغة والتاريخ.. وهذا على عكس الواقع الملموس.

كل هذه المتناقضات واللامعقول تختزن فى اللاوعى العربى المسلم والذى يدرك جيدا حقوقه عند أغنياء المسلمين ومن ثم تطيش الأسهم العربية فى كل اتجاه ويكسب الجميع من أى أزمة ما عدا العرب أصحاب الحقوق أنفسهم.. وحقيقة نخطىء كثيراً عندما لا نلتفت لذلك اللاشعور والذى لا يمكن قهره متى تمكن..

الموقف الإيرانى:

لم تكسب دولة مسبقا كما كسبت إيران من زلزال الخليج.. فما فشلت إيران فى كسبه بالحرب كسبته سلماً وفقط نتيجة لاختلاف الأطراف العربية فى زلزال الخليج..

بل وفجأة وجدت إيران نفسها دولة يتجاذب ودها مختلف المحاور ويسعى لخطب ودها العدو قبل الصديق.

سارعت امارات الخليج ودويلاته بخطب ود إيران علناً اثناء الازمة... وتوقفت الإعلام السعودى عن حملته ضدها- ثم خطب ودها حتى عادت العلاقات الدبلوماسية بينهما!!- ثم وجدت إيران عدو الأمس العراق يأتى اليها ويقرُ بأطماعها.. كل ذلك دون اطلاق طلقة.. يكفى نزاع العرب فيما بينهم.!!

إن الخلاف الايديولوجى - مع كل ذلك - له خصائصه وقوانينه التى تطيح صراعاته وتصبغها بصبغة خاصة. وعليه فإن الصراع الذى اذكى ناره وروى بذرته آية الله خمينى لم ينته.. الأمر الذى تحذر منه السعودية ودول المشرق العربى كافة.. والذى يتضاءل امامه الصلح مع العراق.. بل إن ذلك هو السبيل المنطقى الوحيد لمواجهة هذا الخطر الكامن ومعادلته إن نظرة الشيعة للاماكن المقدسة بالسعودية قديمة وثابتة ولها ثقلها الإيمانى من الناحية الشيعية..اما خدع السياسة والاعيبها فيجب الا تخدع احداً.

إن المحلل لتحرك السياسة الإيرانية فى الوقت الحالى إذا كان ملما بالخلفية العقائدية على حقيقتها ليجزم بأن إيران لها خططها الثابتة تجاه المنطقة.. وهى فى ذلك لاتقل خطرا عن اسرائيل. بل تزيد عنه فى كونها شكل من اشكال الفتنة المتمنطقة بلباس الاسلام مما يخفى حقيقة مقاصدها عن العامة.. ويزيد من فرص نجاحها بالتالى.

نتيجة كل ذلك اللامعقول منطقية نحسها جميعا.. ونشعر بها..إن ما يجب أن تعيه جميع الانظمة العربية أن قوتها إنما يجب أن تنبع من ذاتها.. ولا ترتكن على غيرها بحال.

فلنتذكر قصة شاه إيران.. وسياسته.. ونهايته.. فهى المثال التطبيقى للسياسة العالمية تجاه تلك المنطقة.. الذى لفظه الجميع ولم يشيروا اليه لعلهم لم يستوعبوه.. أو أغلب الظن لايريدون.

(١٣) البترول.. والزكاة:

فجرت أزمة الخليج أكثر من قضية.. وأثارت أكثر من تساؤل.. كان على رأسها الاتجاه الأمثل لتوجهات واستثمارات عوائد البترول العربى.. واماكن ايداعها الافضل بعد تعرضها أكثر من مرة لمخاطر التجميد والاستيلاء.. خاصة بعد أن تأكد فشل استثمار هذه الفوائد فى أمريكا ودول الغرب بعد تجربة شملت عقدى السبعينيات والثمانينات.. تلك التى انتهت بأنهيار سعرى مع صراع الاشقاء.

وقد لا تتفق الاجتهادات لاختلاف وجهات النظر وتعدد زوايا المناولة وأهمية ذلك عند اطراف الأزمة.. وعليه فإن الاتفاق مسبقا على زاوية تناول ذلك الموضوع الشائك له من الأهمية المبدأية نفس مالها من اجتهاد وتعمق ويتفق جميع المسلمين على أن العامل الدينى هو الثابت بين مسلمى العالم.

أسس الاسلام خمسة هى الشهادتين وأقامة الصلاة وأيتاء الزكاه وصوم رمضان وحج البيت من استطاع اليه سبيلا.

فالاساس الاول شهادة ينطق بها اللسان على أن يصدقها القلب.. والثانى عبارة عن رياضة جسدية وروحية وعلاقة تربط بين العبد وربه.

أما الاساس الثالث وهو الزكاه فهو القانون الإلهى العملى الذى يحكم العلاقة بين المسلمين غنيهم وفقيرهم.. وهذا الأساس الهام لأهميته سبق الصوم والحج معاً مع انهما اكبر مظاهر الإسلام بين المسلمين.

أقر الإسلام الفوارق الطبيعية بين افراد المجتمع الواحد ومنها شئون الرزق والثروة.. كما أن ذلك نتاج منطقى للفوارق فى الملكات الطبيعية من ذكاء وغباء.. وقوة وضعف.. وهمة وخمول.. وجمال وقبح ايضا.. والتفاوت بين ابناء المجتمع الواحد انما هو دليل عى تقدم المجتمع وفاعليته ومن ثم تعدد ملكياته ومزاياه.. وليس من الانصاف فى شئ أن نسوى بين المتخلف والمجتهد ومن المسخ أن نحرم ثمرة المجتهد ثم نعطيها للبليد الكسول.. كان من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنى والفقير.

مع ذلك.. فإن المجتمع الاسلامى السليم هو المجتمع الذى لا استغلال فيه ولا قدرة للأغنياء على حرمان الفقراء.. فالإسلام قد أبطل قوة الاستغلال وقدس فى المقابل حق العمل.. مع وجود هذا التفاوت المنطقى والمقبول.. كان ذلك عن طريق تقرير الزكاة.

من ناحية فقد أمر الإسلام بتوزيع المال: "كى لايكون دولة بين الأغنياء منكم" كما جاء فى القرآن الكريم.

وكره كنز المال: "والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم".

كما حر من طغيان الغنى: "إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى".

وحرم الإسلام الربا.. ومنع اتخاذ المال تجارة فى حد ذاتها: "يا أيها الذين آمنوا لاتأكلوا الربا اضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون".

وقال جل شأنه: "وما آتيتم من ربا ليربو فى اموال الناس فلا يربو عند الله" وفى المقابل فقد قدس الإسلام حق العمل وعظم من شأنه فقال تعالى:

"وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون"

ومن سنن المصطفى صلى الله عليه وسلم قوله: "إن افضل الكسب كسب الرجل من يده" وقوله: "إن الله يحب العبد المحترف ويكره العبد البطال"

مع كل تلك الأسس الصحية الإسلامية فى الديمقراطية الاقتصادية فإن الإسلام لم يسقط أو ينسى حق من عجز عن العمل غير متواكل ولا متبطل ولا حق من هو فقير.. ومن ثم فقد فرض المولى ضريبة الزكاة.. وجعلها حقا معلوماً فى مال كل مسلم.

نظام الزكاة هو إذا نظام للتكافل الإجتماعى.. من مشتلزمات الإيمان العمل به.. هذا مع اعتراف النظام الإسلامى بالفوارق والدرجات بين المجتمع فما من طائفة يتساوى الناس فيها جميعا حتى ولو كانوا من الأنبياء والمرسلين أو العلماء العاملين.. أو المجاهدين المجتهدين.

قال تعالى: "تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض"

"فضل الله المجاهدين بأموالهم وانفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما"

"ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم اعمالهم وهم لايظلمون"

"والذين اوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير"

هذه الآيات جميعها وغيرها تقرر حقيقة الهية وانسانية وهو التفاوت الواقعى الملموس بين الناس من أنبياء وعلماء ومجتهدين غير منظور فيها إلى الوجهة المالية خاصة.. لكن هذه الحقيقة مرتبطة فى جانب من جوانبها بالكسب والرزق ولم يبخل القرآن الكريم فأشار ايضا إلى تلك الحقيقة.. فهى سنة الطبيعة ولاتوجد شريعة تبطلها.

قال تعالى: " والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق"

وقال: "نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات"

وقال: "ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض"

وهكذا فإن اية دعوى ترمى إلى تقسيم الاموال بين العرب والمسلمين مناصفة ليست سليمة وتعارض المنهاج الإسلامى كذلك.

غير أن المنهج الإيمانى للعدل الإجتماعى كان فى شكل الزكاة وفرضها وجعلها من اساسيات الإيمان وهذا النظام أكثر عدلاً من غيره فهو لايغبن المجتهد على عمله واجتهاده.. ولايمنع الفقير كذلك من الجد والاجتهاد والعمل.. كما أن هذا النظام يتميز بتوافقه مع اطوار الحياة الانسانية.. ذلك لأن الفقير يغنى والغنى يفتقر.. وتلك الإيام يداولها المولى بين الناس.. ومراحل الأنسان تبدأ بضعف.. فقوة.. ثم تنتهى بالضعف مرة أخرى.. وهى مراحل تؤثر على حياة الإنسان وماديته.. مرة أخرى لانجد اضمن ولا أوفى من نظام المولى فى التضامن الإجتماعى الإسلامى.. الزكاة.

هذا عدل الإسلام إذا ومنهجة فيما يختص بالمال فى حياة الإنسان غير أن عظمة الإسلام حددت تلك الحقوق المتفاوتة فى المادة بين المسلمين وبين مساواتهم جميعا فى الحقوق العامة.. الأمر الذى شدد عليه القرآن وأقره المولى.

قال تعالى: " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله اتقاكم"

وأكد الرسول الكريم هذه المساواة في احاديث عدة منها: "أيها الناس إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء كلكم لأدم وآدم من تراب.. ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى"

وسيرة الخلفاء الراشدين اثبتت ذلك المفهوم بشكل قاطع وواضح تأتى أهمية هذه الاشارة فى احداث الخليج من نظرة الإسلام وقوانينه الثابتة التى تختص بزكاة المال والتى أثارتها الاحداث.. حيث أن محور الخلاف كان المال.. وبقيت المسألة حائرة فى اللاشعور عند الجميع دون توضيح أوقطع.. بل عندما تجرأ بعض العلماء وتناولوها على صفحات جريدة الأخبار المصرية.. صودرت تلك الاعداد ومنعت من دخول المملكة العربية السعودية!!!

أما على الساحة الفكرية والدينية وحتى العقلية فقد اجهضت تماما ولا إشارة لها!!

الأمر بتفصيله وتحديده واضح.. جميع المسلمون يعلمون عن فرض المولى فى الفائض من رؤوس الأموال عند الأفراد وغيرهم "الدول والجماعات" .. وتقدر بحوالى ربع العشر من فائض رؤوس الأموال التى مر عليها حول كامل.

هذا الأمر فرض اسلامى وشهادة ايمان لاخلاف عليها ولا تأويل. هى حق الهى لفقراء المسلمين فى أموال الأغنياء منهم وليست فضلا.. فاذا علم أن ثروة رئيس دولة عربى كما نشرته وكالات أنباء عالمية حليفة له.. هى ستون ملياراً من الدولارات!! فإن حق المسلمين الفقراء فى هذه الثروة وسنويا هى ٥ , ٢٪ من تلك القيمة.. أى حوالى الف وخمسمائة مليون دولار سنوياً.. تتزايد بزيادة الفائض سنويا.. وتقل كذلك وإذا كانت ثروة ملك آخر هى ١٨ مليار من الدولارات فتحسب بنفس الطريقة.. وهكذا..

ذلك حق الله للفقراء فى مال الأغنياء.. ومن أجل ذلك المبدأ الإيمانى قام الصديق ابو بكر بحروب الردة فعدم دفع هذه الزكاة الإسلامية والفريضة الإلهية تتيح حرب مانعيها من غيرهم من المسلمين.

هذه هى زكاة المال.. أكبر امتحان سنوى يمر به المسلم.. يجازى الله به يوم القيامة.. ومن جهة أخرى تضع المسلم المانع لها فى خندق المارقين حتى أنها تتيح قتاله.. هكذا الأمر.. وببساطة.

أما الأمر الآخر أو الجهة الأخرى من القضية فتقع تحت مسمى زكاة الركاز تعلم جميعا أن الإسلام - كما أشرنا - قام بحماية المجتمع من الصراع من فئاته المختلفة فقام بتحديد الحقوق وحفظها وحدد أوجه التصرف فى ثروات المسلمين المتسخرجة من باطن الأرض مثل المعادن ومنها البترول. وحتى تعود بالخير على سائر المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها.

يقول فضيلة الشيخ الغزالى فى تبيان زكاة الركاز:

« .. إذا كان أحد الناس من المسلمين يمتلك أرضا وظهر فيها حديد أو قصدير أو نفط فإنه يملك ما فى هذه الأرض شرعاً وعليه أن يتبرع بـ خمس قيمة المستخرج منها زكاة أو فيئاً.. أما إذا كانت الأرض مملوكة للدولة الإسلامية فإن لها الحق فى التصرف فى العائد بما يخدم ويلبى احتياجات المسلمين كلهم فى انحاء العالم لأن المسلمين فى هذه الحالة شرعاً هم ملاك واصحاب الثروات المستخرجة ولهم حق فى كل المال..وليس الـ خمس فقط!! »

أما عن القاعدة التى تحكم التصرف فى ذلك المصدر من كنوز.. فإن الشيخ الغزالى يوضح الحقيقة فيقول:

« .. التصرف نوعان.. البعض اعتبره صدقة يستحقها فقراء المسلمين.. أو زكاة توزع عليهم ضمن باقى اموال الزكاة وبنفس كيفيتها سواء قدمت لهم على هيئة سلع أو خدمات أو أموال سائلة.. أما البعض الآخر فيعتبرها فيئا.. أى غنيمة لكل المسلمين وهم يتصرفون فيها وفقا لمصالحهم ويحاسبون عليها ويوجهونها نحو المصارف

الشرعية.. وهذه القواعد شرعها الحق ليقى المسلمين شر الفتن والاحقاد.. لذا فمن يبطلها يعتبر خارجاً على جماعة المسلمين وناكراً لاحكام الشرع..».

ثم أن الشيخ الغزالى يذكر الحقيقة على واقع الأمر بكل شجاعة تحسب له فيقول:

«.. والواقع الذى نعيشه يؤكد أن الأمة الإسلامية غير مقيدة أو ملتزمة بتعاليم الإسلام.. واصبحت الأمة خليطا من التصرفات والبدع وصل بعضها إلى حد الكفر... والدول والحكومات تستغل مواردها واموالها بما يخدم مصالحها ومصالح شعوبها.. فما بال بترول المسلمين وثرواتهم الكبيرة.. والكثيرون منهم يتضورون جوعا؟!!.. والخلاصة أن الأمة لايصلحها ولا يحل مشاكلها سوى الأخذ بالأسلام جملة فى كافة النواحى.. والحكومات يجب أن تنفع المسلمين بمالهم ولا تتركه فى أيدى الآخرين ليستغلوه فى هدم ومحاربة المسلمين».

والله لقد أوجز الشيخ فأوعى.

والحق اولى أن يظهر ويعلن.

فقبل حرب الخليج كانت العراق من الدول الغنية وكان فائض ودائعها يربو على السبعين مليارا من الدولارات.. تستحق هى الأخرى زكاة الركاز.

لكن هل يمكن أن نطالب بها صدام؟ فالرجل لم يتول مسئوليته إلا وقامت حرب الخليج الأولى.. فما حساباتها؟!

أما فضيلة الشيخ الطيب النجار فيقول فى ذلك الأمر:

«إن ولى الأمر يقوم بتوزيع اموال الزكاة وله أن يفرق الخير على شعب المنطقة «الدولة» التى استخرج منها البترول.. والولى يحصل على نصيب بقدر متطلباته هو فى الحياة للظهور اللائق وبعد ذلك يوزع على الشعب.. وما يتبقى يودع بيت المال للطوارئ!!».

ورداً على سؤال حول حق المسلمين فى كل مكان فى خيرات الأرض الرسلامية وخراجها أجاب الشيخ النجار:

«الأمة الإسلامية دول وليست دولة.. نحن أمام واقع سياسى مرير فمن ذا الذى ينفذ التقسيم الشرعى؟!.. إلى أن تتوحد الأمة فى ظل خليفة يرتضيه الجميع والنظام الإقتصادى العادل لاسبيل لتحقيقه مادام زعماء المسلمين يجعلون من انفسهم متحكمين فى ثروات الشعوب.. ولا استثنى دولة وأقول أنها توزع الخير بالعدالة على الفقراء ولكنها ربما تحقق بعض العدالة فقط.. وقد كانت عوائد البترول فى العراق أكبر من عوائد بترول الكويت ومع ذلك أهدر صدام هذه الخيرات وحرم شعبها منها!! وتركه يعيش فى مستوى منخفض عن جيرانه فى دول البترول»

والشيخ الطيب النجار قد حكم فى الأمر بنظرة فطرية بحتة.. غير تحليلية ولا أدرى هل مابتبقى من مال يمكن أن يودع فى بيت مال طوارئ خاص بالدولة فى حين مسلمى اخواتهم فى السودان والصومال يموتون جوعاً؟!.. هذا هو السؤال الذى يتجنبه الشيخ.. وهو ايضا طريق الوحدة التى يحلم بها الشيخ الطيب

أما سبيلها فالأمثلة عديدة والاستشهاد بها حاسم.. فقد وحد صلاح الدين الأيوبى العرب قبل أن يطرد الصليبيين.. فكيف؟!

والملك الفاتح عبد العزيز آل سعود فقد وحد الجزيرة العربية وكان سبيله معروفا وعمليا وواقعيا.. الم يكن منهج الفاتحين هو المنهج العملى والإسلامى لتوحيد الأمة؟!.. فما هو ياترى..؟!.. وفى التاريخ الأجابة.

ثم أن ذلك السبيل فيه حل المشكلة الإساسية التى يعيشها العرب والمسلمين.. فالأمر المتفق عليه أن الإسلام يرفض وبشدة التفاوت الفاحش فى توزيع الثروة والدخل الذى تستأثر من خلاله فئة معينة من الأفراد أو دول معينة بالخير كله مما يؤدى إلى تهميش الأغلبية وسلبيتها واغترابها وإثارة حقدها وثورتها.. نظرة سريعة إلى مواقف العرب من اقطاب زلزال الخليج يؤكد تلك الحقيقة بكل تأكيد.

فى دراسة هامة للدكتور/محمد شوقى الفنجرى تحت عنوان «الإسلام وعدالة توزيع الثروة بين الناس» ينتهى د.الفنجرى إلى أن الإسلام يعالج توزيع الثروات والدخول.. بخلاف النظم الوضعية من زاوية استعمال الثروة أو الدخل.. فالمسلم

لايستطيع أن يكنز ماله أو يحبسه عن التداول والانتاج ولا يستطيع أن يصرف ماله على غير مقتضى الفعل وإلا عد سفيها وجاز الحجز عليه.. وهو لايستطيع أن يعيش عيشة مترفة والا عد بنص القرآن شيطانا.. وهكذا فإنه ليس امامه بالنسبة لماله الزائد ،ن حاجته أو كفايته الا أحد أمرين:-

١- إما استثماره فى مشروعات انتاجية تعود بالنفع على المجتمع.

٢- وإما انفاقه على الفقراء والمحتاجين وفى مشروعات فخرية..

أن هذه هى الصورة المثالية الحقة والتى لم تنفذ فإنه من الطبيعى أن يتأقلم ى لمواجهة ذلك الضيف الغير مرغوب فيه إلا بسرقته بطريقة قانونية.

السبعينات وقبل عشرون عاما أو تزيد وصلت فوائض البترول إلى ٣٩٢,٥ لاراً.. نصيب الدول العربية منها ٩٠٪.. وتخطى سعر البرميل فى هذه اجز الـ ٣٠ دولاراً.

وفى الثمانينات انهارت اسعار البترول لدرجة أن وصل سعر بيع البرميل فى سطس ١٩٨٦ اثنا عسر دولاراً.. واستمر على هذا المعدل اربعة سنوات ووصل البرميل إلى ١١,٥ دولاراً قبل الأزمة الخليجية الأخيرة.. علما بأن تكاليف انتاج البرميل فى المتوسط هو تسعة دولارات!!

فما الهدف من تلك السياسة؟.. ومن الذى يرسمها؟!.. ومن الذى ينفذها؟!. ولمصلحة من؟!.

وهكذا.. انخفضت الإيرادات العربية من ٢٥٨,٣ بليون دولارا عام ١٩٨٠م إلى ٦٩,٣٩ بليون عام ١٩٨٦م.. حتى ان تلك الدول النفطية عجزت وسط هذا المخطط أن تحقق موازنة بين الإيرادات التى انهارت والنفقات التى تزايدت نتيجة لانخفاض سعر صرف الدولار.. وهكذا تم سحب ١٨,٥ بليون دولار من ارصدة تلك الدول فى الغرب فى عام ١٩٨٦ فقط!!!

هذا المخطط الاقتصادى السياسى مرجعه الأول والأخير أن نائض رؤوس الأموال العربية توضع فى دول الغرب والتى ترى من مصلحتها استهلاكه واستنفاذه اما وسائل

ذلك فكثيرة وعملية تهم المتخصص فيها.. هذا الواقع المؤلم منشأه البعد عن الدين فى تسيير قوانينه ومبادئه.

قال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم والكفار اولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين"

وقال تعالى: "ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون"

ولم يفعل امراء البترول سوى أن قبلوا النهى.. وانتهوا عن الأمر فى الآيتين الكريمتين.

وهكذا لم تنته الحروب فى تلك المنطقة والمشاحنات منذ اكتشاف البترول بها وهو وسيلة من وسائل دول الغرب فى امتصاص هذا الفائض من ودائع البترول.. والمدهش أن حروب المنطقة كانت دائما متوازنة مع ازمات مالية عند الغرب.. فحرب الخليج الأولى كانت متوازنة مع ازمة مالية اوروبية خانقة.. وزلزال الخليج الأخير توازى مع ارتفاع مذهل فى عجز الميزانية الأمريكية المتدهور منذ سنوات.. والذى انتهى وامريكا اقوى واغنى دولة فى العالم!!.

ليست الحرب دائما سببا للخسائر.. بل قد تكون الحرب وسيلة سريعة ومضونة للأرباح والغنائم.. وأي تفاعل ينقسم دائما إلى جهة رابحة وأخرى خاسرة.

الرابحون فى حرب الخليج كثيرون.. فى المقدمة شركات البترول العملاقة والتى تسيطر على عمليات انتاج البترول وتسويقه على مستوى العالم وهى فى اغلبها شركات امريكية وبريطانية وهولندية وفرنسية.. ومما هو جدير بالذكر أن ارباح هذه الشركات العملاقة ربما تفوق ارباح الحكومات المالكة الطبيعية للبترول!!.

ثم يأتى المنتجون للبترول انفسهم.. وهم على الترتيب الاتحاد السوفيتى وأمريكا وبلاد البترول العربية الخليجية.. أما انجلترا فهى ابرز المنتفعين وذلك لامتلاكها حقل فورتيز للبترول فى بحر الشمال.. وقد بلغ انتاج بريطانيا من هذا البترول اخيراً إلى ٤ ملايين برميل.. وهكذا فإن ارتفاع أسعار البترول ينعش دون شك الحكومة البريطانية.. فالجنيه الاسترلينى والذى كان يبلغ حوالى ١,٦ من الدولار حتى

شهور قليلة اصبح بدور حول ١,٩٥ من الدولار وحتى فى مصر زاد الاسترلينى أكثر من جنيها مصريا كاملا فارتفع من ٤٢٣ قرشً إلى ٥٢٦ قرشاً مصريا قبل الحرب.

وبعد الحرب شهد الدولار إرتفاعا امام معظم العملات الاجنبية..

أما الخاسرون حقيقة من هذه الحرب فهم كل الجانب العربى.. المنتج منها للبترول.. والغير منتج على السواء.. فالدول الغير منتجة عليها أن تستورد البترول باسعاره الحالية المرتفعة نسبيا كنتيجة مباشرة للأزمة.. والدول العربية المنتجة استهلكت فائض رؤوس اموالها للغرب وامريكا بحساب كل الأعباء العسكرية الهامة كما أنها سوف تستجيب لسياسة الإنتاج الذى يخدم الجانب الغربى فى الأساس.

على ذلك الأساس الواقعى والملموس فليس من العقل أن نستمع لتوجهات وسياسة الدول الغربية والتى تدعى تحركها الأخير دفاعا عن المبادئ وليس البترول والماء.. كما ينادى بوش وغيره!!

نستشهد بذكر عدد من الحقائق الهامة التى ذكرها وزير البترول المصرى فى حديثه لجريدة الجمهورية المصرية فى ٢٣/٨/١٩٩٠.. فقد ذكر سيادته:

أن عمر البترول الأمريكى الموجود داخل اراضيها لايزيد على ٨ سنوات فقط.

المحرك الرئيسى للأزمة هو رفض أمريكا امتلاك العراق لـ ٢٥٪ من احتياطيات النفط وليس حماية أحد أو إعادة أحد.

وحول بيع البترول بتراب الفلوس قال سيادته: «ليس الخطأ خطأ الغرب هو خطئنا نحن لاننا عرضنا سلعة رخيصة.. فقد كنا محافظين على زيادة اسعار الوقود بنفس معدل زيادة اسعار السلع المعنية ولكن بعض الدول البترولية اعماها الطمع» ولم يحددها «فضخت كميات أكبر اغرقت الاسواق فزاد العرض على الطلب فانهارت الاسعار!!».

وأخيرا فإنه ينتهى احتياطى العالم عدا السعودية والكويت عام ٢٠١٠م

انتهى حديث الوزير.. المسئول.

هل بعد هذه الاسباب من مختص يعلم مايقوله من حجج لكى نقبل اشعال امريكا والغرب للخيلج مرة ثانية.. وسرقته.. ثم نتلهى نحن فى حرب بعضنا البعض!!

قطع كل هذه الخيوط المتشابكة سياسيا واقتصاديا كان يمكن تلافيها بل واستغلالها لو أن المسلمين اتبعوا اسس دينهم فيما يختص بالمال والزكاة والركاز.

عصى اغنياء المسلمين أوامر المولى.. فحاق بهم وبنا ما نستحقه جميعاً.

(١٤) الثروة العربية:

نظرة سريعة إلى تاريخ المنطقة أساسية فى تفهم طبيعة المشاكل التى نواجهها حاليا سياسيا واقتصاديا.. فالأمر الواضح أن السياسة لايمكن فصلها عن الاقتصاد فى حاضرنا المعقد.

مرت أقطار المنطقة المختلفة عبر تاريخها الحديث بتجارب تكاملية عديدة.. اوضحها فترة الأمبراطورية العثمانية والتى امتدت من ١٢٨١م إلى ١٩٢٤م.. أى إلى اقل من سبعمائة عام بقليل.. وهى فترة زمنية يجب احترامها وتقييم اثرها على مختلف النواحى.. طوال تلك الفترة كان من السهل انتقال عوامل الإنتاج من رأس مال وعمال بصورة يمكن وصفها بأنها تامة وسهلة. وذلك لأن الأمة العربية بأكملها كانت تقع فى نطاق هذه الإمبراطورية الموحدة فعلاً وقولاً.. ولم يكن من المنطق قيام أية عوائق جمركية أو انظمة رقابية أو غيرها بين بلدان الامبراطورية.. ومن ناحية أخرى كانت الامبراطورية العثمانية تتعامل مع العالم الخارجى على أساس تعريفة جموكية واحدة كبلد واحد لكل المنطقة وشعوبها.

بعد نهاية الحرب وتقسيم تركة الرجل المريض بين فرنسا وانجلترا وقع العالم العربى تحت الإحتلال.. وبهذا تم تقسيم العرب ولكن إلى مجموعات، مما سمح - ولمصلحة الدول العظمى - أن تقوم أمثلة من مشروعات تستلزم نوعا من الوحدة الاقتصادية وصورة من صور التكامل بين بعض البلدان العربية المحتلة الأمر الذى يشير إلى حقيقة التكامل بين تلك الدول..

أقام "مركز تموين الشرق الاوسط" مراكز عدة لاصلاح عربات ومعدات النقل الحربية داخل المنطقة العربية حيث كان من اهداف هذا المركز توفير وسائل النقل البحرى للاغراض الحربية ونقل العتاد الحربى إلى ميادين القتال فى الشرق وإلى روسيا وغيرها!! الأمر الذى ادى إلى نشؤ طبقة فنية ومدربة ساعدت على قيام قاعدة صناعية فى المنطقة العربية بصورة عامة وفى مصر بصورة خاصة..

والمثال الثانى يستحق بعض الأهتمام لكونه بين بلدين عربيين ونقصد به تلك التجربة التى عمدت فيها لبنان وسوريا على استمرار الروابط الاقتصادية بينهما كما كانت أيام الأمبراطورية العثمانية.. فقد تم الأتفاق على اقامة اتحاد جمركى تضمن حرية انتقال عوامل الأنتاج والسلع بنى البلدين حتى مع وضع تعريفة جمركية.. كان هذا الأمر منذ بداية الإنتداب الفرنسى على البلدين واستمر بعد استقلالهما سنة ١٩٤١م.. ففى عام ١٩٤٣م وقعت فى دمشق اتفاقية اتحاد جمركى بين البلدين ذات تعريفة جمركية واحدة تتكفل بنقل السلع بين البلدين فى حرية كاملة ودون أية رسوم أو ضرائب مع حرية انتقال عوامل الإنتاج من رأس مال وسلع وعمالة.. مع حرية تداول الليرة السورية والليرة اللبنانية جنبا إلى جنب فى كلا البلدين.

تجربة فريدة تستحق الدراسة والتحليل. غير أنها انفضت سنة ١٩٥٠م هذا رغم أن البلدين يتمم كل منهما الآخر جغرافيا وتاريخياً.

كان ذلك متزامنا مع النزعة القطرية التى سادت المنطقة آنذاك.. هذا رغم أن قيام جامعة الدول العربية كان يجب أن يشجعها فمن - أهدافها كما هو معلن - العمل على اتمام واقامة التكامل الاقتصادى؛ لكن فرص النجاح تحت مظلة الجامعة العربية تضائلت إلى حد بعيد وكان ذلك عكس المتوقع غير أنه كام منطقيا مع تداعى الأحداث التاريخية حيث لم ينظر الحكام لمصلحة المنطقة ككل قدر مصلحتهم الذاتية القطرية ومن ثم باتت التناقضات وتضارب المصالح أمر منطقى.

مازالت تلك هى الحالة والتشخيص الدقيق حتى انفجار الخليج الأخير الذى نعيش تبعاته المدهش فى الأمر حقاً أن تجارب نجاح الاقتصاد العربى كانت فى احقاب وقعت فيها اقطار الوطن العربى تحت الاحتلال.. والتى رمت هى الأخرى لمصلحتها فلم تجدها إلا عن طريق إقامة شكل من أشكال التعاون الاقتصادى كما اشرنا!! تلك هى المأساة.

كان من الخطر على السياسة البريطانية والإنجليزية أن ينظر العرب إلى مصلحتهم ككل الأمر الذى وضح جليا عند تقسيمهم للمنطقة فى بدء حركة التحرير

والاستقلال.. فقد رموا بعبقرية شيطانية إلى تقسيم المنطقة العربية الغنية كوحدات مستقلة فانتزعت الكويت من العراق مثلا.. بينما تمنطقت المناطق السكانية الكثيفة فى بيئات ضعيفة فقيرة.. ولم يتبق من الأمر على المستوى السياسى إلا أن تتبأين تلك الدول اقتصاديا ومن ثم تتعارض المصالح.. ثم حماية ذلك الوضع وصيغته بالصيغة القانونية أو حتى اللاقانونية.

انطبع ذلك التعارض حتى على تاريخ ومصداقية الجامعة العربية.. فرغم الدراسات الاقتصادية العديدة والتى لو نفذت ماكانت هناك دولة عربية واحد تعانى من الأزمة الاقتصادية.. ويرجع الأساس فى ذلك إلى أن الجامعة العربية تفاوت اعضاؤها من الناحية الاقتصادية بشكل ادى إلى تنافرها وليس جذبها.. فقد تكونت الجامعة العربية من احدى وعشرين دولة.. ست منها من اكثر الدول ثراء وغنى.. ودول أخرى كانت فى تصنيف الدول الأكثر فقراً وهى:

السودان واليمن وموريتانيا والصومال وجيبوتى.

هذا التفاوت الواضح كانت له بصمته على المحاولات الجانبية والتى قامت فى محاولات عديدة لايجاد صيغة للتكامل الأقتصادى العربى فلم تعكس هذه المحاولات سوى الاتجاهات السياسية المتعارضة ولم ينعكس ذلك على ايجاد واقع اقتصادى للتكامل العربى بحال.

كانت التكتلات العربية داخل الجامعة انعكاسا لكل تلك الحقائق.. ومن ثم قام مجلس التعاون لدول الخليج العربية المدونة باسم «مجلس التعاون الخليجى».. ثم تلاه مجلس التعاون المغربى.

عكست المحاولة الأولى روح الأغنياء فى التفرد والتميز.. وعدم وجود روح حقيقية للتعاون العربى يتعدى الواقع الاقليمى المتميز لتلك الدول.

أما المحاولة الثانية فلها خصوصياتها والتى تأثرت دون شك بالتعاون الاقتصادى كذلك.. ولا داعى للافاضة فى ذلك.

أما المحاولة الثالثة فكان «مجلس التعاون العربى» والذى انشئ فى فبراير ١٩٨٩م والذى ضم: مصر والعراق والأردن واليمن.. كان ذلك المجلس سياسيا فى المقام الأول والأخير.. فالأعتبارات الجغرافية تفرض نفسها.. فإذا ماكان الهدف اقتصاديا بحتا لكان من الواجب أن تضم هذه المجموعة مصر والسودان وليبيا.

أما المجموعة الرابعة والأخيرة فتلك التى ضمت العراق وسوريا ولبنان والاردن.. راعت تلك المجموعة الأعتبارات الجغرافية والاقتصادية غير أنها كانت جسداً بلا روح.

سبب أخفاق هذه المحاولات جميعها انما يرجع إلى الهدف السياسى الذى رمت إليه مع غياب وعى اقتصادى حقيقى ونظرة عربية فوق قطرية.

وهكذا.. ضاع المنطق والعلم الاقتصادى والذى كان من المحتم أن يولد نوعا من التكامل بين الدول النفطية ذات الفوائض.. والدول العربية الأخرى ذات المقومات الانتاجية والاقتصادية كالارض والبشر والتى تعانى من عوائق مالية.

على ارض الواقع ظهرت آثار كل ذلك وبطريقة جارحة لها معناها.. فقد وصلت استثمارات الدول النفطية العربية فى المنطقة العربية الفقيرة إلى واحد من مائة فى المائة «٠,٠١٪» من جملة استثماراتها فى الدول الصناعية الكبرى!!!

رغم أن هناك أسبابا عديدة لتلك الحقيقة المؤلمة منها تنافر انظمة الحكم فى البلاد العربية.. وايضا صعوبة إنشاء اقتصاد عربى مشترك لأختلاف النظم السياسية والاقتصادية والقانونية فإن أى جهد حقيقى للتغلب على تلك الصعاب سوف ينجح لو صدقت النيه.. وذلك لأن الحاجة ملحة.. والتكامل حقيقة غائبة.

كانت تجربة الاستثمارات الإيرانية فى مصر مثال ناجح رغم الصعوبات السياسية التى جابهته.. فلم تمس تلك الاستثمارات كما حدث فى شركة مصر/إيران للغزل والنسيج رغم تدهور العلاقات بين البلدين أثناء فترة الحرب العراقية.. الإيرانية.

على الجانب الآخر نرى أن فوائض المال التى تمتلكها السعودية والكويت فى كلا من الولايات المتحدة وأنجلترا واليابان تصل إلى حوالى ٧٠٠ مليار دولار اما تلك الأستثمارات فى العالم كله فتصل إلى حوالى ١٠٠٠ مليار دولار!!

هذه هى الأرقام الرسمية.. والحكومية.. يعنى ذلك أننا لو أضفنا الإيداعات الشخصية لكانت أكثر من ذلك بكثير!!!

تحقيق هذا الأمر تحديداً أمر عسير وصعب لأمور عديدة.. وعليه فسوف نعتمد على مصادر أجنبية فى تحقيقه.. وبالنسبة للكويت فقط.

نشرت مجلة اكتوبر - المصرية - بتاريخ ١٢ زغسطس ١٩٩٠ نباء أشارت فيه إلى تقييم أولى لإستثمارات الكويت فى الخارج.. فذكرت:

«.. كشفت مصادر عليمة أمريكية فى واشنطن عن أن حجم الإستثمارات الكويتية» فى الخارج يبلغ حوالى ٢٠٠ مليار دولار وهذا الرقم موزع بين استثمارات الحكومة والأموال الخاصة بالافراد والشركات وأوضحت المصادر الأمريكية أن هذه الإستثمارات والودائع موجودة فى الولايات المتحدة وبريطانيا واوروبا الغربية والدول الاسكندنافية ودول جنوب شرق آسيا والاتحاد السوفيتى.. واليابان.. وفيما يلى صورة تقريبية تحدد ملامح هذه الاستثمارات الضخمة:

(١) فى الولايات المتحدة:

- مجموع الودائع يتراوح ما بين ٤٥:٥٠ مليار دولار
- ٣ مليارات سندات واوراق مالية فى البورصة.
- احتياطى ذهب فى البنك الاحتياطى الفيدرالى.

٣ مليارات فى شركات ومؤسسات مالية.

٢,٥ مليار أسهم فى شركة بترول بكاليفورنيا عام ١٩٨١م

(٢) فى بريطانيا:

- ٩,٨٪ من أسهم شركة البترول البريطانية.
- ١٠,٥٪ من أسهم بنك ميدلاند.

- ١١,٣٪ خدمات مصرفية ومالية.

- نسبة غير معروفة فى "مخازن الايداع والاحواض الجافة فى شركة مارتن الإنجليزية"

- نسبة غير معروفة "فى احتياطى ذهب فى بنك أنجلترا"

(٣) فى المانيا الغربية:

- ١٤٪ من أسهم شركة مرسيدس - بنز.

- أقل من ٢٠٪ من شركة أيه - چى - ميتال.

- أقل من ٢٠٪ من شركة هومف للأدوية والكيماويات «عملاق صناعة الكيماويات»

(٤) فى اليابان:

٨ بلايين أسهم وسندات.

(٥) فى اسبانيا:

٧٢٪ من أسهم توراس الأسبانية القابضة والتى لها ١٢٠ فرعاً للكيماويات والورق والمواد الغذائية والخدمات المالية.

(٦) شركات ومحطات تكرير البترول:

٤٥٠٠ محطة بترول فى المجر وايطاليا وبريطانيا والدول الاسكندنافية.

٤ شركات تكرير بترول فى أوروبا.

(٧) جنوب شرق آسيا:

- ٥,٤٪ من أسهم شركة فى ماليزيا للأراضى الزراعية والممتلكات الأخرى.

- ٣٧٪ من أسهم شركة دايوهنج.. وهى الشركة القابضة لأكبر ٦ بنوك عالمية فى هونج كونج.

إذا كان مصدر هذه المعلومات أمريكيا.. فإنه ولا بد أن حجم الودائع والإستثمارات الرسمية والحكومية للكويت أكثر من هذا بكثير لأسباب اقتصادية وسياسية. هذا بالاضافة إلى حجم الإستثمارات والودائع الشخصية.. هذا فقط بالنسبة للكويت.. فإذا أضفنا لها السعودية.. والإمارات وقطر فإن حجم الودائع النفطية سوف يزيد عن الألف مليار دولار دون شك.

وفى دراسة أخرى أمريكية ايضا ثبت أن الكويت تحتل الموقع الثانى بعد سلطنة بروناى فى مجال الإستثمار الخارجى حتى أن عائداتها من تلك الإستثمارات اصبحت تفوق عائدات النفط ذاته.

أكدت مجلة فور تشون الأمريكية أن الكويت تملك مساهمات ملموسة فى ٤٩٢ شركة من أصل ٥٠٠ الأهم فى العالم!!..

- ففى الولايات المتحدة:

تملك الكويت حصصا مختلفة فى الشركات الأمريكية الممتازة العاملة فى حقول المال والنفط والعقارات بشكل خاص.

- وفى بريطانيا:

تتركز نسبة كبيرة من الاستثمارات الكويتية المباشرة فى الاقتصاد البريطانى وقدرت تلك الاستثمارات بنحو ٣٠ مليار دولار.

- والكويت إحدى اوائل دول النفط التى توجهت للاستثمار فى اليابان وتصل استثماراتها حاليا إلى أكثر من ٢٠ مليار دولار.

- كما تحتل السوق الأسبانية موقعا كبيراً فى الأهمية الإستراتيجية الاستثمارية للكويت فى قطاعات حيوية مثل المصارف والعقارات والصناعات الكيماوية وتتراوح حصص الكويت فى الاستثمارات الهامة الأسبانية بين ٣٤٪ إلى ٥٠٪ وقد اشترى مكتب الاستثمارات الكويتى مؤخراً ٢٥٪ من شركة التليفزيون الأسبانية الخاصة تلفينو.

أما بالنسبة لألمانيا فهناك العديد من الحصص الصغيرة المتنوعة غير المصرح بها فى عدد كبير من الشركات الالمانية حيث:- تمتلك حكومة الكويت ١٤٪ من شركة دايملر بنز.. و٢٠٪ من شركة هوكست للكيماويات وصناعة الأدوية.. ويعتقد أن الكويت اشترت حصة كبيرة فى شركات المخازن الألمانية.. وأن لها حصة كبيرة ايضا فى دوتيشه بنك أكبر المصارف الألمانية.

- كما دخلت الكويت السوق الإيطالية بقوة مع تملك مؤسسة النفط الكويتية لكامل ممتلكات شركة موبيل اويل الأمريكية فى حقل تكرير المشتقات وتوزيعها كما تمتلك حصة قدرها ٦,٧٪ من شركة «إيفيل» احدى شركات اسرة «انيللى» المالكة لأكبر حصة فى مجموعة فيات.. وتؤكد مصادر عربية أمتلاك الكويت لحصص غير معلنة فى عدد كبير من الشركات الإيطالية المدرجة على بورصة ميلانو.

وفى فرنسا تصل مساهمات الكويت إلى أقل من ٥٪ فى أهم ٤٠ شركة فرنسية.. كما تمتلك الكويت من محطات توزيع المحروقات تغطى ٢٠٪ من سوق الدانمرك.. و١٢٪ من سوق السويد.. و٧٪ من سوق بلجيكا كما أنها تملك مصاف لتكرير البترول فى كل من الدانمرك وهولندا.

- وفى اوروبا الشرقية:- اهتمت الكويت تحديداً بالمجر حيث توصلت إلى افتاقيات اولية لشراء مصفاه نفط هناك.. كما تم العمل على تحديث شبكة المحروقات فى البلاد.

- وفى كندا.. تمتلك الكويت مصالح مختلفة فى شركات لأستثمار الغابات والأخشاب وفى قطاع النفط والتنقيب عن الذهب والخدمات الاستثمارية.

- وفى هونج كونج.. تمتلك الكويت أكثر أسهم بنك داوهنج.. ونحو ٩٪ من احواض سمياوانج لبناء السفن فى ماليزيا.

- وحتى فى الصين - وظف صندوق الكويت للتنمية مابين ٦٠٠:٧٠٠ مليون دولار فى مشاريع مشتركة فى حقول النفط والبتروكيماويات والاسمدة وغيرها.

أما استثمارات الكويت فى المنطقة العربية فهو حوالى ٠,٠١٪ من جملة تلك الاستثمارات كلها..!!!.

من الطبيعى أن تنظر القوى الكبرى السياسية والاقتصادية العالمية والمهيمنة على تلك الفوائض نظرة اقتصادية لصالحها.. تستهدف منها مصلحتها الإمر الذى سوف ينطبع على شكل سلبيات فى الإستثمار العربى فى الغرب.

فمثلا.. يتجه سعر الدولار منذ مدة طويلة إلى الإنخفاض فى البورصات العالمية.. والدولار كما هو معروف هو من يقيم به البترول.. ومن ثم ضرب دخل الدول البترولية فى الإساس..

ماذا يمكن أن يحدث إذا تم بيع البترول بعلمة حرة أو ثابتة القيمة؟!.. سوف تتضاعف تلك الثروة قطعا..

ثم لايتبقى سوى أن نعرض الأمثلة على سبيل المثال لا الحصر للسياسة الاقتصادية العالمية تجاه فوائض البترول:

- القروض التى قدمت لدول أمريكا الاتينية بواسطة البنوك العربية «البترولية» المنشأة بأوروبا أو بمنطقة الخليج والبحرين والتى تقدر بحوالى ٢٠٠ بليون دولار أمريكى.. هذه القروض توقفت اغلب الدول المدينة عن سدادها.. الأمر الذى تسبب فى افلاس بعض هذه البنوك العربية!!

- الاستثمارات التى وضعت فى مجال العقارات فى منطقة هيوستون الأمريكية بأمل أن تكون نيويورك المستقبل.. وتكلفت عشرات المليارات من الدولارات ثم أنها تركت خاوية دون استخدام لثبوت عدم الحاجة إليها فى المستقبل القريب!!!

- الاستثمارات التى وضعت فى الاوراق المالية الغربية بصفة عامة والخسائر التى نجمت عنها نتيجة انهيار الأسعار فى جميع بورصات العالم وعلى رأسها بورصة نيويورك عام ١٩٨٧م.

المضاربات على الذهب والفضة فى اوائل عقد الثمانينات والخسائر التى ترتبت على ذلك نتيجة انخفاض سعر الذهب من أكثر من ٩٠٠ دولار للأوقية إلى حوالى ٣٠٠ دولار.

- القيود التى فرضتها الولايات المتحدة وإنجلترا على شراء المؤسسات العربية لأسهم بعض الشركات الأمريكية والإنجليزية مثل N.C.R وBP.. حيث اعتبرت الدولتان انتقال ملكية نسبة كبيرة من أسهم هذه الشركات إلى ايد أجنبية «المقصود طبعا أيد عربية» تهديداً للأمن القومى لهذه الدول!!

- استخدام الدول الغربية لسلاح تجميد الأموال للدول التى لديها فوائض لمزاولة الضغوط السياسية على هذه الدول.

- المضاربة فى الأسواق المحلية مثل سوق المناخ وما أدت إليه من ضياع آلاف الملايين من الدنانير!!

- الإنهيار المتتالى لأسعار صرف العملات الأجنبية وعلى رأسها الدولار الأمريكى والذى تتركز فيه أغلب استثمارات فوائض دول البترول العربية.

من كل تلك الحقائق والوقائع يتضح أن الدول العربية البترولية التى اتجهت لإستثمار فوائض أموالها لدى العالم كله شرقه وغربه دونا عن البلدان العربية الشقيقة خوفا من اوضاعها الغير مستقرة لم تسلم أستثماراتها من الخسائر.. بل على العكس كانت خسائرها دائما فى صورة مستمرة من الإستنزاف تبعا لخطة محكمة.. ومن ثم تصدق المقولة أن لكل سوق إيجابياتها وسلبياتها.. ولاتوجد السوق التى توفر الضمان الكامل لأى إستثمار.. وكم كان من اللأزم ايجاد دراسة مقارنة توضح مدى ونسبة خسائر تلك الإستثمارات فى الدول العربية مقابل الإستثمارات فى العالم كله.. فلا شك فى أن الأموال البترولية البسيطة التى استثمرتها بعض دول البترول العربية فى العالم العربى قد اصابها من الخسائر مالا يزيد بحال عن عشر معشار تلك الخسائر التى اصابتها إستثماراتها فى الدول الأوروبية والأمريكية.

شكلت النظرة الاقتصادية - كذلك - سياسة الغرب تجاه المنطقة.. فرغم أن المنطقة تقع عرفيا تحت الحماية الأمريكية فهى دائما فى صراع متغير.. ومستمر.. وذلك لاستهلاكها اقتصاديا ومن ثم استشعارها بالحماية الأمريكية كسبيل أساسى لحمايتها.. ساعد على ذلك التنافر الإيديولوجى بين بلدان المنطقة بصورة عامة وخاصة.. ومن ثم فإن منطقة الشرق العربى تعتبر واحدة من أهم مناطق الصراع والأزمات عند كل الساسة وصناع القرار فى العالم.. وبالذات فى أمريكا.. وهكذا اعدت السياسة الغربية سلسلة من الأزمات بهدف انهاك المنطقة أقتصاديا ونعنى بذلك فوائض البترول لتلك الدول فى بنوك الغرب.

كان التحرك الأمريكى لضرب حركة مصدق وأعادة الشاة مثلا لتلك السياسة فسرعان ما استتبت الأمور من تكوين جيش مزود بأحدث الأجهزة التكنولوجية والباهظة الثمن طبعا.. حتى اطلق المحللون على ذلك الجيش اقوى رابع جيش فى العالم.. ومع ذلك فإن الغرب نفسه هو من ايد الخمينى واضبغ عليه حمايته وسهل له اهدافه حتى نجح فى القضاء على الشاه وايضا تمزيق جيشه القوى. حينئذ منعت أمريكا عن جيش إيران قطع الغيار والعمال المدربين على تلك الأجهزة المتقدمة حتى أصبحت خردة لاقيمة لها ولا وزن..

من ناحية أخرى قامت أمريكا بامداد صدام حسين بما يحتاجه وسربت له بطرق عدة مباشرة وغير مباشرة اسرار الأوضاع الإيرانية بعد انهيار الشاه مما ساعد العراق فى حربه ضد إيران دفاعاً عن نفسه وعن المنطقة.. وعلى مدى سنوات الحرب المريرة وقفت أمريكا وروسيا واوروبا واليابان والصين تمد هذا.. وتساعد ذلك مما أدى إلى طول فترة الحرب وأستنزاف الدولتين ماليا وبشكل خطير... ومرعب كان الهدف من توجيه الغرب هو أجهاض القوتين واللتين تمثلان القوة الصاعدة الناشئة فى تلك المنطقة الحساسة.. وهكذا خرجت إيران من الحرب ضعيفة لكنها لم تنهزم.. وخرج العراق قويا لكنه لم ينتصر.. وخرج الأثنان مديونان بل ومثقلان بالديون.

شجع نجاح السياسة الأمريكية فى التقدم خطوات أكبر فالأختراق الأمريكى لم يتم فصولا بعد.. وساعدها على ذلك تغيرات عالمية مفاجئة مزقت الأمبراطورية الشيوعية.. وأيضا لأسباب عديدة اقتصادية أمريكية منها أستمرار تضخم العجز فى

الميزانية الأمريكية[1] عاما بعد عام.. ووضوح الهيكل الأوروبى بقوته وغناه.. كان الهدف هذه المرة الدول البترولية الغنية حليفة أمريكا.

وهذه هى السياسة.

من هذا المنطلق الأمريكى كانت سياسة دول البترول الغنية حليفة أمريكا تجاه العراق المثقل بالديون.. وهكذا كانت بداية السيناريو والذى ازداد تعقيداً بهدف اساسى هو امتصاص جزء محترم من فائض أموال البترول فى البنوك الغربية[2] .

تجمع فى منطقة الأزمة جيوش العالم كله وبأقصى قواتهم واسلحتهم التى استخدمت والتى لم تستخدم بعد.. حتى فاق عدد القوات الأمريكية النصف مليون.. بعد ثلاثة أسابيع كانت تكاليف الحملة - المعلنة - ٢,٥ مليار دولار.. وبعد خمسة اشهر وصلت لأكثر من ٣٠ مليار دولار.. كل هذا قبل أن تنطلق رصاصة أو تقوم طائرة بغارة.. أو تقع خسائر هنا أو هناك.

فمن الذى سيدفع فاتورة حساب قوات درع الصحراء؟!.. ومن الذى سيتحمل كشف حساب تحرك وصيانة وإنتشار القوات الأمريكية والغربية فى المنطقة؟!.. ومن الذى سوف يتحمل الدمار وكوارث الحرب؟!.. ومن الذى سيتحمل فاتورة الخسائر الناجمة عن انهيار الاقتصاد العربى.. وانهيار الدخل العربى.. والمصالح العربية كلها ؟!.. ومن الذى سيتحمل أضرار وقف مسيرة التنمية الاقتصادية والاجتماعية لشعوب المنطقة مع تكالبها المؤكد على الأتفاق العسكرى؟![3] .

---

(١) كانت الدراسات تتوقع أن يبلغ عجز الميزانية الأمريكية قبل الحرب لهذا العام فقط مبلغ ٢٣٢ مليار دولار ما لم تتخذ اجراءات سريعة لخفضه.

(٢) قبل الحرب وفى بداية الأحداث أعلنت السعودية عن تخصيص ١١ مليار دولار لتغطية الحشد والذى تضاعف بعد ذلك بكثير.

(٣) كانت أمريكا قد وضعت القيود على الأموال والاستثمارات الكويتية بعد غزو العراق مباشرة لكنها بعد أسبوعين فقط رفعت الخزانة الأمريكية القيود عن تلك الاستثمارات الضخمة وقالت: إن الهدف هو تسهيل العمليات التجارية فى الولايات المتحدة ودفع تعويضات إلى تركيا والدول الأخرى التى تشارك فى حصار العراق.

ليس العراق قطعا المديون بمائة مليار دولار.

فمن هو الطرف الخاسر.. الجديد؟!

أن السؤال الهام الذى يطرح نفسه بكل قوة هو أنه إذا لم يغزو العراق الكويت فهل كانت خطط أمريكا تجاه المنطقة سوف تتحطم وتتغير آمالها؟!

قال وزير الدفاع الأمريكى «تشينى»: إن القوات الأمريكية ذهبت إلى الخليج لتبقى هناك لسنوات!!»

ثم زادنا وزير الخارجية الوضوح وضوحاً فقال فى الكونجرس: «إن الموقف يستدعى إعداد ترتيبات أمنية جديدة فى المنطقة وإقامة أحلاف جديدة لضمان الاستقرار هناك.».

كل هذه الحقائق لا تعنى سوى أن أمريكا لم تأت إلى المنطقة إلا من أجل أهداف اقتصادية واستراتيجية فى المقام الأول أهمها ضمان سيادتها على منابع النفط وأستنزاف مدخرات دول البترول لديها..

يحدث كل هذا والمسلمون يموتون جوعا وعطشا فى السودان والصومال وجيبوتى!!!

عسى أن تكون الرؤية الآن قد وضحت لمن تعجب من نتيجة أجتماع القمة العربية فى القاهرة.. فرغم أن النتيجة جاءت مطالبة بالجلاء العراقى دون قيد ولا شرط فإن هناك عدداً لا بأس به من الدول العربية لم ينظر إلى الأمر إلا بحساب جذوره وأسبابه.. ومن ثم تحفظ على مجرد الإدانة..

فالدول التى رفضت القرار هى: العراق.. فلسطين.. ليبيا.

والدول التى تحفظت هى: السودان.. موريتانيا.. الأردن.

والدول التى امتنعت عن التصويت هى: اليمن.. الجزائر.. وتغيبت تونس

.. كل هذه الدول العربية تعتبر من الدول الفقيرة المديونة ماعدا ليبيا.

أكد خبراء أقتصاديون عرب فى باريس أن الأزمة الاقتصادية وحجم الديون الرهيبة التي تعانى منها الدول العربية الفقيرة كانت وراء موقفها من التدخل العراقى فى الكويت.

وأذاعت المؤسسة العربية لضمان الإستثمار فى تقريرها السنوى أن العلاقات العربية غير متوازنة وروابطها ضعيفة مما يؤدى إلى اختلالات حادة،، وأشار التقرير إلى عدم استقلال الموارد الطبيعية «فى المقابل».. واضاف أن أنتاج البترول ١٥ مليون برميل يوميا فى العام الماضى.. ويمتلك العرب ٦٠٪ من الأحتياطى العالمى ومع ذلك لايستغلون العائدات فى تنمية حقيقية.. وأحد امثلة ذلك هو انتاج اللحوم التي لم تتجاوز ١,٨٪ من الأنتاج العالمى.. و١,٦٪ من أنتاج الأسماك رغم أمتلاك المراعى والشواطئ الغنية!!.. ويشير التقرير الى إنه رغم كل هذه الأمكانات القابلة للاستثمار فى الوطن العربى فأننا نفاجأ بقيام العرب بتوظيف ما يصل إلى ٦٧٥ مليار دولار فى الدول الغربية منها ٢٠٥ مليارات استثمارات مواطنين من الدول محدودة الدخل!!! الأمر الذى ينعكس بشكل مباشر على تدفق الأستثمار العربى.

وعن المديونية العربية تقول مؤسسة الإستثمار فى دراستها: ".. انها مشكلة ضخمة لدى العديد من الدول حتى عجزت بعضها عن السداد والإلتزام تجاه دائنيها مما راكم المتأخرات الخارجية من اقساط وفوائد عليها.. حيث تبلغ خدمة الدين للدول العربية المقترضة ١٢مليار دولار أى ٩٠٪ من متوسط معدل النمو السنوى". تلك هى عمود الاستراتيجية الاقتصادية العالمية الأمريكية تجاه المناطق العربية.

وسوف نضرب مثلا لكل ذلك بدراسة الحالة الاقتصادية لدول عربية رائدة -وقفت فى جانب دول البترول الغنية - وساندتها على المحاور.. بل وتعتبر افضل حالاً من العديد من الدول العربية الأخرى..

كانت مصر تحمل على اكتافها سبعة انواع من الديون العسكرية كل منها بفائدة عالية تم اقراضها فى فترة الانفتاح.. ومع أن ماتقدمه الولايات المتحدة لمصر عسكريا من قبيل "هبة لاترد".. لكن فوائد هذه الديون وحدها ظلت تستنزف الموارد وتلتهم

الجزء الأكبر من المعونات إذ كان لابد من دفع خدمة الديون فى مواعيدها وإلا طبق القانون المعروف باسم «تعديل بروك» والذى ينص على أن الدولة التى لاتدفع فوائد الديون فى مواعيدها تحرم تماما من المعونات كافة..

هكذا كان يتم التكتيف الاقتصادى للدول الدائنة.. حتى أن الأمر - حسابيا - أظهر أن مجموع ماسوف تدفعه الولايات المتحدة لمصر من معونات كان أقل من مجموع ما على مصر أن تدفعه وفاء لأقساط وخدمة ديونها..

من ناحية أخرى.. فإن بعض المعونات أو كلها لم يكن يدفع نقداً..إنما على صورة مشروعات أو سلع أو معدات.. الأمر الذى يعنى أن الأموال تعود الى الشركات الأجنبية الأمريكية بينما خدمة الديون يجب أن تدفع نقداً!!.. وفى هذه المشروعات يعمل العامل الأمريكى بآلاف الدولارات شهريا.. بينما مرتب العامل المصرى عدة عشرات من الدولارات على أحسن الأحوال.

كل هذا بالاضافة إلى أمرين:

الأول: هو إرتفاع الفائدة التى تدفع عن هذه الديون فقد بلغت أكثر من ١٢٪ بينما كان سعر الفائدة خلال فترة الأقتراض حوالى ٨٪.

الثانى: هو أن أموال القروض فى النهاية جزء من الأموال العربية فى البنوك الأمريكية التى تعود وتقرضها للعرب بأعلى فائدة!!

حتى اليابان مع استعدادها الصادق لمساندة مصر فى مختلف النواحى الاقتصادية والثقافية فقد ضغطت عليها دول الغرب حتى تكف يدها عن تلك المساعدة وظلت اليابان تناقش مصر لسنوات حول رفع سعر فائدة الديون من ٢,٥٪ إلى ٣٪!!!

إن المؤسسات المالية الدولية هى فى الحقيقة الجناح الاقتصادى لسياسات الغرب دأبت على مطالبة مصر بتحقيق اصلاح اقتصادى وإلا جمدت الأموال ومنعت المعونات واوقفت التسهيلات الائتمانية.. الأمر الذى لاشك فيه أن سياسة دول الغرب أنما رمت إلى السيطرة على المقدرات الاقتصادية للدول العربية الفقيرة.. والمدهش أن جناحهم السياسى كان على صورة دول البترول الغنية وعلى الأخص الكويت.. الشقيق!!

كان ثمن مصر من موقفها أثناء أزمة الخليج الأخيرة اسقاط بعض هذه الديون!!

الهدف السياسي من كل تلك السياسات الاقتصادية يجب أن يكون واضحاً ويشدد عليه وهو محاولة الولايات المتحدة سبق الزمن واحكام سيطرتها على منابع البترول خاصة بعد التغيرات العالمية السريعة من سقوط وأنهيار الإمبراطورية السوفيتية إلى قرب ولادة الدولة الأوروبية العظمى الممتدة والتي سوف تهدد دون شك السيطرة الأمريكية العالمية على ثروات ومقدرات العالم العربي..

حاولت الدول الأوروبية في بداية الأزمة تحييد الأوضاع الأمريكية[1] وذلك عن طريق طرح مجموعة من الحلول في بداية أزمة الخليج وكانت تلك الحلول تنطوي على عنصرين غاية في الأهمية.

١- الحث على حل الأزمة الراهنة سلميا وسياسياً.

٢- النظر بجدية إلى التعاون مع العالم العربي ومحاولة حل المشاكل المستعصية في المنطقة "وهو أمر لم يسبق له مثيل في تاريخ التعامل مع الأوروبيين" غير أن امريكا نجحت في تسيير دفة الأحداث حسب اهدافها الأمر الذي اجبر الأوروبيين على الأشتراك معها طمعا في نصيب من الكعكة والتي كادت ان تكون جميعها للأمريكيين وحدهم.

ومع تداعي الأحداث فإنه من اللازم أن نتنبه إلى ذلك الموقف الأوروبي والتعامل معه بكل جدية وتوازن يخدم المصالح العربية ويوازن نظرة امريكا للهيمنة الكلية على المنطقة.. فنظرة امريكا واوروبا سوف تتعارضان تجاه المنطقة.

نقلا عن جريدة «البايس» الأسبانية في ١٤/٩/١٩٩٠ تحت عنوان "علاقتنا مع العرب" وبقلم اميليو مينيديث دل فالي سفير اسبانيا في أوروبا والسفير السابق في الأردن يذكر فيها السفير نظرته الأوروبية تجاه المنطقة فيقول: «... اننا في الغرب سوف ندخل في عصر يجب علينا أن نبذل فيه كل الجهد - كما يقول أ.م. روزنتال -

(١) ظهر ذلك واضحاً في بيان السوق الأوروبية تجاه الأحداث في ١٣/٩/١٩٩٠م.

بأن الدول العربية خطيرة.. لا لأن العرب يولدون والسكين فى فمهم.. وإنما لأنهم - بمساعدة أمريكا - لايحكمون إلا بواسطة دكتاتورين.. والدكتاتوريين لا أمان لهم لأنهم غير منتجين..»

الحقيقة المحسوسة أن ذلك التعارض المحسوس الغير معلن حتى الآن سوف يشكل السياسة والأحداث فى الحقبة القادمة للمنطقة العربية.

(١٥) التزامن الإسرائيلى

من المؤكد أن لإسرائيل موقفها من الأحداث الجارفة التى اطاحت بأمن الجناح الشرقى من الأمة العربية.. خاصة مع تزامن المتغيرات السوفيتية ومانتج عنه من زيادة خطيرة فى هجرة اليهود السوفيت إلى فلسطين المحتلة.. ورغم أن جميع الأطراف لم تبغى من مواقفها تجاه الأزمة إلا أهدافها ومصالحها فإن الجميع كانوا يخشون الحرب ماعدا أمريكا وإسرائيل.. غير أن اقصى ماكان يقلق أمريكا هو أن تنقلب موازين القوى فى المنطقة إذا ما لجأت اسرئيل إلى عمل ايجابى ومن ثم شددت أمريكا على إسرائيل فى عدم التدخل فى تلك الأزمة ولأى سبب كان،، ولها اجرها على ذلك.

كان الطريق المؤدى لحل سلمى للأزمة يفتح وبالضرورة الطريق إلى الحل القاتل بالنسبة لإسرائيل.. فسوف يؤدى حتما إلى مائدة المفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية فى حوار حول الاستقرار... الخ.

أما الحرب فكانت أمل إسرائيل لأجهاض القوة الناشئة العربية العراقية.. والوحيدة التى تستطيع تهديدها..

لكل تلك الاساسيات قامت وسائل الإعلام المؤيدة لجبهة دول البترول بتصوير غزو الكويت بأنها كانت الفرصة الذهبية والتى حققت لإسرائيل مزايا تفوق خيال أكثر العناصر تطرفا فى إسرائيل.. وإن اسرائيل قد كسبت على كافة الأصعدة كما لم تكسب من هذا الغزو حتى أن المتتبع للأحداث ليعجز عن ملاحقة الثمار التى جنتها وتجنيها إسرائيل من ذلك كله.. وأن هذا الغزو:

١- اعطى لإسرائيل الفرصة لتصعيد أعمال القمع والإرهاب ضد الإنتفاضة..

٢- اعطى لإسرائيل فرصة لاتمام عمليات توطين المهاجرين اليهود السوفيت فى هدؤ.

٣- طعن الإنتفاضة فى مقتل نتيجة حرمان سكان الإراضى المحتلة من التحيويلات النقدية والعينية والتى كان يرسلها اليهم ذويهم فى الكويت والسعودية.

٤- اعطى لإسرائيل فرصة لتحسين صورتها فى وسائل الإعلام العالمية مع الصاق صفة الإرهاب بالدول العربية من خلال تصوير قادتهم بأنهم يحاولون تحقيق طموحاتهم الشخصية على حساب إسرائيل!!

وكأن إسرائيل كانت تنتظر هذا الزلزال الخليجى لتحقيق اهدافها!! إن تصعيد اعمال القمع الوحشية ضد اطفال الأنتفاضة الابطال لم يتوقف منذ ثلاث سنوات.. منذ ذلك الحين ويوميا يسقط بطل صغير شهيداً ويجرح العشرات حتى باتت تلك الأنباء من المتواترات التى لاتثير الانتباه.. وللأسف الشديد... اما عن توطين المهاجرين فإسرائيل ماضية فيها على أية حال.. ولم تقم اعتراضات جدية من الدول العربية ولا من غيرها... بل وليست هنا معوقات سوفيتية ولا إعتراضات أمريكية حقيقة على هذا الغزو الاستيطانى الواضح الصريح.. والمضحك المبكى فى الأمر أن الاصوات العربية التى اشارت لذلك المخطط المأساوى والكارثة التى تهددنا جميعا لم تعتمد سوى كلمات واشارات من هنا وهناك فقط لإثبات الوجود فى المناسبات.. أما عن طعن الإنتفاضة الفلسطينية فى مقتل فإن إسرائيل لم تقدر عليها طوال أكثر من أربعة أعوام.. ولن تقدر بأذن الله ومعونته فما دخل المزايدين العرب بكل ذلك.. هى بطولة أطفال الحجارة(١) وحدهم والتى يرمى الجميع للألتصاق بها فى كل مناسبة وحدث.. بل لقد قطعت دول البترول المعونة عن ذلك الشعب المحتل لموقف منظمة التحرير من الأحداث!!..

---

(١) الكاتب اليهودى الكبير ريتشارد كوهين كتب فى الواشنطن بوست ساخراً من غباء حكومة شامير فى مواجهتها لإنتافضة أطفال الحجارة فقال فى سخرية: «إنه بعد سقوط الضحايا بدلاً من أن يأسف شامير على ماحدث القى اللوم على منظمة التحرير الفلسطينية وعلى الرئيس العراقى بتدبير مشروع شيطانى لصرف الأنظار عن أزمة الخليج... لكنه لم يوضح لماذا وبعد ثلاثة اعوام من التعامل مع الإنتفاضة لم تتعلم إسرائيل كيف تسيطر على التجمعات؟!.. ثم تساءل قائلا: كيف يبرر مواجهة الحجارة بالرصاص؟!

هذا موقف إسرائيل من الأحداث الحية.. فما هو موقف دول البترول منها كذلك؟!

المحلل المنصف لهذه الادعاءات كلها لايجد مبرراً حقيقياً لها غير أنها ترمى إلى اتخاذ زلزال الخيلج واحداثه كحجة تدرأ عن البلدان العربية جميعا مسئولية الكارثة الحية لأبطال الإنتفاضة فى فلسطين المحتلة..

الحقيقة الماثلة الملموسة هو أن إسرائيل تتحرك لاهدافها فى المنطقة دون مقاومة تذكر.. هذا الإعتراف فى ظننا هو البداية الحقيقة لتصحيح المواقف؛ كل ذلك كان نكاية بالفلسطينين نظراً لموقفهم من الأحداث بسبب تأييد القيادة الفلسطينية لموقف العراق مع أن هذا الموقف بالذات كان يجب أن تكون له دلالته ومعانيه عند تحليله.. فبحساب المكسب والخسارة السياسية والإقتصادية فإن الموقف الفلسطينى بدا وكأنه يغامر بنفسه.. فما هى الاسباب التى دفعته لذلك؟!

وسط هذه التدعيات العربية كانت لليهود نظرتهم.. تلك التى وصلت الذروه يوم الأحد الاسود الثامن من أكتوبر -١٩٩٠م.. وسط ذروة التجمع الدولى فى السعودية حيث وقعت مجزرة دامية فى ساحة المسجد الأقصى الشريف.

توجهت مجموعة من المتطرفين اليهود من جماعة امناء جبل الهيكل إلى ساحة المسجد الأقصى لوضع حجر الأساس لمعبد يهودى.. وعلى الفور تجمعت جموع غفيرة من الفلسطينيين إلى منطقة مسجد قبة الصخرة لمنع ذلك.. وفجأة اطلق عليهم جنود الاحتلال الرصاص فاستشهد على الأقل ٣٢ وسقط عدة مئات!! وتحولت ساحة المسجد - ثالث الحرمين الشريفين عند المسلمين!!- إلى ساحة قتال دامية وكان رد الفلسطينيين على الرصاص بالحجارة والدماء!!

على الفور شهدت منطقة حى المغاربة مصادمات دامية حيث تجمع آلاف اليهود للصلاة عند حائط المبكى.. ثم قامت قوات الاحتلال بشن حملة اعتقالات شملت المئات من بينهم المناضل الفلسطينى البارز فيصل الحسينى.. وعلى الإثر امتدت الاشتباكات حتى شملت منطقة القدس.. وتوالى وقع الضحايا..

ولم تكن احداث الخليج هى المؤشر لإسرائيل لهذه المجزرة والتفكير فيها فهذه الجرائم لم تتوقف منذ أن سقطت القدس الشرقية والضفة الغربية كانت أولى المحاولات

الكبيرة فى المسجد يوم ١٩٧٩/٨/٢١م.. عندما جرى اشتباك النار فى المسجد واحراق المنبر.. منبر صلاح الدين بأكمله واحراق السطح الشرقى والجنوبى للمسجد.

وفى عام ١٩٧٣م شهد المسجد الاقصى عمليات اقتحام بواسطة اعضاء من الكنيست ورفعت حركات التطرف الصهيونية شعاراتها هادفة لهدم المسجد.. مثل حركة امناء المسجد.. وحركة كاخ.. وحركة هتحيا.. وحركة جوش ايمونيم.. وغيرها.

وفى عام ١٩٨٠م اقتحمت مجموعة من بعض هذه الحركات ساحة الحرم القدس وكررت نفس المجموعة عملية الاقتحام فى عام ١٩٨١م.

وفى عام ١٩٨١م شهد العالم كله اعنف محاولات اقتحام المسجد الاقصى عندما حاولت مجموعة كبيرة من شباب اليهود تحطيم ابواب المسجد والتسلل إلى داخله وتصدى لهم المواطنون الفلسيطينيون ووقع ضحايا..

وابتداء من عام ١٩٨٢م اتخذ علميات الاقتحام الشكل المسلح.. فقد قام يهودى بقتل أحد الأشخاص خلال محاولته انتهاك حرمة المسجد.

وفى الثامن من مارس من نفس العام اقتحم ١٥ شخصاً مسلحين بالبنادق والخناجر باب السلسلة المؤدى إلى الحرم القدسى.

وبعد حوالى شهر واحد وفى ١٩٨٢/٤/١٠ حاولت مجموعة أخرى اقتحام المسجد وتزايدت هذه المحاولات سنة ١٩٨٣ وجرت أكثر من محاولة لنسف المسجد الأقصى!!.

وفى عام ١٩٨٥م اعترفت السلطات الإسرائيلية نفسها بأن جماعة يهودية سرية تخطط لنسف المقدسات الإسلامية فى القدس.

ومنذ سنوات تفجرت مظاهرات عارمة فى القدس الشرقية أنضم اليها الفلسطينييون من القدس الغربية فى اعقاب اكتشاف مجموعة من اليهود وتقوم بالحفر تحت المسجد الأقصى بدعوى الكشف عن آثار يهودية فى المنطقة!!.. وتصدى لهم المتظاهرون الفلسطينيون وتمكنوا بعد جهد وأصابات من ايقاف الحفر تحت المسجد.

وفى ٢٣/١٠/١٩٨٩م وجه مفتى القدس الشيخ سعد الدين العلمى رئيس المجلس الإسلامى الأعلى فى القدس الدعوة إلى مئات من الفلسطينيين لاداء الصلاة فى الحرام القدسى لأثبات عزم المسلمين على الدفاع عن مقدساتهم وإظهار مدى تعلق المسلمين بها فى وجه التهديدات الصهيونية.. وكان ذلك رداً على اعتزام مجموعة من المتطرفين الإسرائيليين من اتباع امناء جبل الهيكل وضع حجر الأساس لـ "الهيكل الثالث" فى حرم المسجد الأقصى وداخله!!.. وذلك بدعوى أن المسجد يقوم على انقاض هيكل سليمان.

ثم بعد عام واحد فقط من تلك الواقعة حدثت مذبحة المسجد الأقصى التى اشرنا اليها.

قبل تلك الحادثة بايام قليلة كشف اسحاق شامير عن نواياه حيث القى خطابا قال فيه: «انه يأمل فى اقامة احياء يهودية جديدة فى القدس الشرقية العربية.. كما كشف عن خطة لاقامة حيىُ يهودى كبير فوق جبل الزيتون».

وفى تعليق عمده القدس تيدى كوليك عن الاحداث قال الرجل: إن احداث يوم الاثنين «المجزرة» كانت نتيجة مباشرة لما اعلنه شامير يوم الأحد.

إن الحقيقة المعروفة المحسوسة أن حاخامات اليهود والذين يهيمنون على الحكومة والحياة السياسة يعلنون ويحلمون بآمالهم فى إزالة المسجد الاقصى وقبة الصخرة واعادة بناء هيكل سليمان.

يقف امامهم وأمام اطماعهم اطفال الحجارة.. والعرب جميعا يتفرجون بعد تلك المجزرة بيومين وافقت لجنة مشتركة للكونجرس الأمريكى بمجلسيه النواب والشيوخ على قانون المساعدات الخارجية.. وكالعادة كان نصيب اسرائيل منها نصيب الاسد حيث بلغت حوالى مليار دولار كمساعدات عسكرية واقتصادية ونقدية بالإضافة إلى ٧٠٠ مليون دولار معدات كل هذه الحقائق يقرأها العالم كله ويفهم معانيها.. ويسقطها العرب جميعاً.. إلا اطفال الحجارة الابطال.

الأمر ببساطة شديدة أنه إذا كانت نظرة اليهود للقدس على انها عاصمتهم الموحدة الدينية والابدية لدولة اسرائيل فإن سلطات الاحتلال معنية بلاشك باضفاء

الطابع اليهودى على القدس وازالة المقدسات الإسلامية منها الشاهدة على عروبة المدنية.

فما دخل أزمة الخليج بكل تلك الخطط اليهودية الحية الملموسة؟!

إن مارفعه البعض إن هو إلا نوع من الاسقاط يعرى ويكشف الإنهزامية العربية الاسلامية تجاه أهم قضاياها.

بل المدهش أن بعض الاقلام تهاوت فدعت بدورها لطرد الفلسطينين من مصر والقضاء على مصالحهم بها!!

بينما كانت القدس.. ثالث الحرمين تشتعل ناراً وتكسو دماً كان مجلس الجامعة العربية يجتمع وينفض فى تونس وتنسحب وفود.. وتغضب أخرى وتسعى وفود أخرى للتوفيق بين الأطراف المختلفة فى وجهة نظرها تجاه احداث القدس!!

كل ذلك من أجل بيان يستنكر مذبحة الاقصى.

كان أقوى المدافعين عن الموقف الأمريكى هو المندوب السورى الذى صرح بأن امريكا أصبحت دولة صديقة!!.. كان واضحاً أن سوريا ترد الجميل لواشنطون على سكوتها إزاء ازاحة عون وبسط النفوذ السورى على بيروت جميعها.

اما موقف مصر فقد كان يرى أن أدانة امريكا لمساعدتها إسرائيل لن يفيد فى جهود التسوية!!

وهكذا جاء بيان الجامعة العربية فى النهاية وقد خفف اللهجة فاستنكر بدلا من أن يدين!!.

اما على الصيعد الشعبى فقد عبر عنه مواطن امريكى من أصل مصرى مهاجر ويدعى السيد عبد العزيز نصير.. فقد تفاعلت الأزمة فى نفسيته وهو على بعد مئات الآلاف من المكيلو مترات من أرض الاحداث فقام ودبدون سابق انذار باغتيال مائيركاهانا الحاخام الإسرائيلى ورمز الكراهية اليهودية السوداء تجاه المسلمين والعرب.

المدهش انه وفى نفس الوقت اشتعلت المظاهرات فى العالم كله تندد بوحشية اليهود..« ١٥ ألف أمريكى يتظاهرون من أجل حل سلمى فى الشرق الأوسط».. وفى جميع بلدان أوروبا وغيرها.

هذه هى حقائق التداعيات العربية السوداء تجاه أهم قضايانا الدينية..!! تجاه القدس ثالث الحرمين الشريفين.

تبانيت المواقف العالمية تجاه كارثة القدس الشريف تبعا للمواقف الدولية فى أزمة الخليج الأخيرة.

فى الوقت الذى لم تستطيع فيه امريكا أن ترفع حق النقض «الفيتو» ضد مشروع قرار يدين إسرائيل لفعلتها النكراء فإن واشنطن أصرت على نقطتين:

الأولى: رفض قرار تقدمت به فلسطين تحمل فيه الأمم المتحدة المسئولية المباشرة عن سلامة الفلسطينين فى الضفة والقطاع والقدس الشرقية وهى الأماكن الفلسطينية المحتلة عقب حرب ١٩٦٧م.

الثانية: عدم الربط بحال بين قضية الخليج وقضية القدس.. وذلك لأن هذا الربط سوف يفضح الميزان المتأرجح لأمريكا فى تناولها لكل من القضيتين العربيتين.. فلسطين والكويت.

المدهش أن ذلك كله تزامن مع موافقة الولايات المتحدة على قرض لإسرائيل بمبلغ ٤٠٠ مليون دولار لبناء مساكن للمهاجرين اليهود السوفيت فى الأراضى المحتلة.. واكتفت بتأكدات يهودية أن هذا القرض لن يستخدم فى بناء مساكن فى الأراضى المحتلة!!(١).

هذه هى موازيين الحكم الأمريكى على الصراعات فى المنطقة.. تتباين فيها الموازين والقوانيين بحيث لاتخدم سوى المصلحة الأمريكية ونظرتها واطماعها فى ثروات المنطقة.

---

(١) استعملت تلك الأموال بعد ذلك فى بناء مستوطنات فى الأراضى المحتلة..

أما المجموعة الأوروبية فانها وفى سبيل تحديد مكانتها المرتقبة المرموقة فى القوى العالمية المهيمنة كان ولابد أن تكون لها كلمتها.. ونظرتها للأحداث.. ومن ثم كانت مواقف دول غرب اوروبا وبلا شك أكثر تشدداً وأكثر غضباً من سياسة بعض الدول العربية ذاتها.. وليس لذلك علاقة بعدالة اوروبا قدر مايعنى موقف اوروبا من أحداث العالم ونظرتها لمنطقتنا العربية.

قام الرئيس ميتران فى حديثه امام الجمعية العامة للأمم المتحدة بربط أزمة الخليج بالنزاع العربى الفلسطينى.. كما قام وزراء خارجية السوق الأوروبية المشتركة بالتنديد بعنف بالموقف الأسرائيلى.. واتخذ البرلمان الأوروبى الموحد قراراً يدين فيه حكومة اسرائيل.

ليست تلك المواقف مجرد رد فعل لجريمة إسرائيل قدر ما هى سياسة ترى فيها اوروبا الموحدة مصلحتها فى المنطقة.

اتخذت المجموعة الأوروبية المشتركة قراراً عام ١٩٨٦ جمدت فيه اتفاقيات التعاون العلمي والتقنى مع إسرائيل.. ترمى فيه اوروبا إلى تقليل الهيمنة الإسرائيلية على المنطقة من جهة.. ومن أخرى فإن مصلحة اوروبا ترتبط إرتباطا وثيقا بدول المشرق العربى خاصة دول البترول.. كما أن معظم الدول الأوروبية تقع على البحر الابيض ويهمها بالقطع اقامة علاقات حسنة مع الدول العربية وسياسة يتم بها معادلة الهيمنة الأمريكية على المنطقة.

على أن إسرائيل وتجاه كل ذلك لم يزعجها سوى التدخل العالمى فى مسألة داخلية!!.. فلجنة التحقيق الإسرائيلية اكتفت تبوجيه اللوم للبوليس بسبب مذبحة المسجد الأقصى.. هذا كل مافى الأمر.. ثم أنها - أى إسرائيل - اعلنت رفضها استقبال بعثة تقصى الحقائق والتى كان مجلس الأمن قد قرر إرسالها إلى إسرائيل.. وعليه فقد قرر السكريتر العام للأمم المتحدة عدم إرسال البعثة.. هكذا.. اما بالنسبة للعراق فالأمر قد اختلف قطعا تبعا لتطورات الأزمة حتى الآن.!!

قال عمار بن جمعة القائم بالاعمال الجزائرى فى أول تصريح مشترك باسم اتحاد المغرب العربى:

«إن الحزم والتصميم اللذين ابداهما مجلس الأمن فى أزمة الخليج اصبحا مطلوبين لمعالجة جميع جوانب القضية الفلسطينية».. ورغم ذلك فبعد اشهر قليلة - كما هى العادة - عفا الزمان عن جريمة إسرائيل ضد العرب العزل وفى المقابل تصاعد الموقف فى الخليج حتى الانفجار.!!

أما العراق فقد صدقت نظرته لتعقيدات الموقف.. فبعد أيام قليلة من غزوة للكويت وفى يوم ١٢/٨/١٩٩٠م كانت مبادرة العراق التى دعا فيها إلى حل جميع مشاكل الشرق الأوسط فى ضوء قرارات مجلس الأمن وعدم الاقتصار على حل مشكلة دون سواها.

نعم.. كانت كارثة بيت المقدس دليلا على صحة نظرة العراق تجاه الأحداث فمشكلة الخليج كذلك لايمكن اعتبارها سوى رد فعل تجاه السياسة الأمريكية نحو المنطقة بصورة عامة.. والعراق بصورة خاصة كما أشرنا.

فى قمة هلسنكى اظهر جوربا تشوف رغبته فى الربط بين أزمة الخليج وأزمة فلسطين.. وعلى النقيض كان الرئيس الأمريكى بوش.

وفى المؤتمر الذى عقد فى نهاية مؤتمر القمة عجز بوش عن الاجابة على سؤال صحيفة حول موقفه من تنفيذ قرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن بالنسبة لفلسطين!!..

وكما غابت اجابته غاب الموقف ومعناه. - على اهميته - عن اجهزة الأعلام.. الموجهة!!

إن سياسة الربط والفصل معروفة فى السياسة الدولية.. وليس أدل عليها من مثال اتفاقية كامب ديفيد.. فعندما تراجع الرئيس السادات وقبل معاهدة صلح منفردة مع رسرائيل مع وعود غامضة حول قضية فلسطين سرعان ما نقضها مناحم بيجن.. واعتذر عنها الرئيس كارتر فيما بعد.. وانتهى الأمر!!

إن موقف إسرائيل للرفض سهل معرفه دوافعه فهى التى سوف تدفع ثمن تلك التسوية.. من مكاسبها وارض العرب.. اما العجيب الغريب فهو موقف الدول العربية

التى رفضت مثل هذا الربط.. ثم انها المضعفة لموقفها سياسيا من مسألة قرارات الأمم المتحدة الواجبة التنفيذ تجاه فلسطين.

أما الأمر المدهش حقا والمثير للغضب ايضا فهو للمفكرين والسياسيين الذين تنادوا بضرورة تجريد العراق من أسلحته وقوته الضاربة دون تجريد اسرائيل من اضعاف أضعاف إمثال تلك الأسلحة ومنها النووية الذرية والصواريخ الأستراتيجية وغيرها!![1].

إين مصلحة العرب من كل ذلك التخبط الأستراتيجى سياسيا وعسكريا!؟ إن أخطر مافى هذا التنافر والتعارض العربى هو أنه يعكس بشكل مباشر وغير مباشر مدى قناعة العرب - المسلمين - انفسهم إلى قدسية القدس وإلى القضية الفلسطينية برمتها وبما تستوجبه من نظرة لا قطرية.. ويعكس ذلك بالتالى النظرة اللاشعورية والنفسية الانهزامية تجاه مشكلة من اخطر مشاكها:

لك الله يا فلسطين.

(١) بل وصل الأمر إلى حد أن بعض الكويتيين طالبوا حكومتهم بالأعتراف بإسرائيل والتعامل معها كدولة صديقة!!!.. تباً لهم.

(١٦) الانفجار:

يمكن القول بأن أزمة الخليج الأخيرة كانت بمثابة التفاعل الحاسم والذى أظهر واوضح اشكال التناقض السياسى والأقتصادى العربى.. وأظهر النفوس على حقيقتها.. ونظرة العالم الغربى وتعايشه واهدافه مع كل تلك المتناقضات.. ومن ثم تعارض وتوافق تلك القوى كذلك.. ومن ثم فإن الدراسة المتأنية والعادلة للتيارات المتصارعة قد توضح نظرة التوى المتعارضة لبعضها البعض هذا رغم الضباب السياسى والاعلامى الكثيف.

قالت تاتشر محذرة صدام.. بعنف هيستيرى نسائى: «إن على صدام حسين أن ينسحب من الكويت.. وعليه أن يفهم أن القوة المتعددة الجنسيات لن تنتظر إلى الأبد.. وعليه أن يفهم أن انسحابه لن ينهى الحصار الأقتصادى على العراق فالحصار سوف يستمر حتى نطمئن إلى أن العراق لم يعد لديها القوة على أن تشن أى عدوان.. وعليه أن يفهم ايضا أن انسحابه لن يعفيه من المحاكمة كمجرم حرب!!».

وكأن "ملكه" السياسة البريطانية تقول لصدام حسين لاتنسحب.. فما قيمة الانسحاب إذا بعد أن ارغت وازبدت وهددت فى كل الأحوال؟!

أما جورباتشوف فقد صرح – رغم فشل وتعثر محادثات بريماكوف – «إن الحرب حل غير مقبول.. وعلى العرب أن يجدوا حلاً للأزمة.. حلاً عربيا سليما».

أما ميتران.. فقد لوح من بعيد وبضرورة الربط بين مشاكل الشرق الأوسط وبحل مشكلة الخليج حلاً مترابطاً مع أزمة الخلاف العربى الإسرائيلى المرمنة.

أما المانيا الموحدة واليابان.. فقد اضطرتا تحت ضغط الولايات المتحدة أو تحت ماجد من عوامل وحقائق نتيجة لتلك الأزمة إلى الإقدام على تعديل دستور كل منهما بحيث يتمكنا من إرسال قوات خاصة بهما تشارك فى جوقة الخليج العسكرية.. الأمريكية الدولية!!.. فرغم كل الشواهد على الساحة الدولية فلن يكون الأمر لأمريكا وحدها بعد سنوات.

أما على المستوى العربى فإن أزمة الخليج قد أحدثت انقساماً فى العالم العربى كما لم تحدثه إية أزمة من قبل.. هذا الوضع وفقط عند تحليله يؤكد أن الخلافات امتدت إلى جذور وفروع الأزمة ولم تتوقف عند الحدث ويرجع عمق هذه النظرة إلى أن اغلب شعوب المنطقة ضحايا للسياسة الإقتصادية البترولية كما هو الحال بالنسبة للعراق.. ورغم أن البصمة العربية على توجيه الأحداث فى منطقة الخليج باهتة وضعيفة فإن الأمر الذى لاشك فيه أن تلك البصمة سوف تكون أقوى على المدى الطويل بعد تلك الأزمة.

أما عن الموقف الأمريكى.. فقد كان فى الحقيقة هو المحرك والمسيطر والمهيمن والمخطط لكل تلك الأحداث.. أما على السطح فقد كان أهم مايميزه دقة التخطيط التى تستحق الإشادة.. فقد سار فى خطين متعارضين ظاهراً.. فقد تم تجميع كل القوى الأمريكية وكأنها سوف تحارب العالم كله.. ثم سارت ايضا فى خط دبلوماسى هذفه الأساسى إحراج صدام حسين وإلقاء اللوم عليه واظهاره بصورة المعتدى.

وهكذا اختلطت الأوراق وتشابكت الأهداف.. حكاية اشبه بالكلمات المتقاطعة.. ورغم كل ذلك فإن الدراسة المتأنية للأحداث كانت تشير وبكل تأكيد إلى أن الهدف الأساسى كان الاقتصاد العربى كله.. والمال العربى.. والبترول العربى.. كان هذا هو الهدف الأستراتيجى للتحرك الأمريكى الذى رسم وخطط لكل مراحل هذا السيناريو البغيض.

مختلف التقارير العسكرية رسمت صورة للمنطقة عن نوعية الحرب المنتظرة واتساع مداها وآثارها المختلفة.. رغم تفاوت قوى الطرفين.. وذلك نتيجة احتمال استخدام اسلحة التدمير الشامل من بيولوجية وكيميائية ونووية تكتيكية وغيرها.. وكنتيجة محتملة لأحراق وتدمير آبار البترول الكويتية والعراقية.. وأكدت الدراسات كلها أن الأمر يمكن أن يحول المنطقة بأسرها إلى أرض غير صالحة للحياة البشرية وعلى مدى عشرات السنين.. ومن المنطق القول أن هذه الصورة تهدد ضمنا الأهداف العسكرية الاستراتيجية الأمريكية والاقتصادية ايضا!!.. فيد الحرب عمياء.. وذراعها باطشة وسلطانها غشوم.

لم تخرج الدراسات عن احتمالات الموقف فى الخليج عن عدة احتمالات:-

(١) الأول: ينطلق من افتراض تسوية سلمية فى المنطقة فى غضون الأشهر القليلة التى تلت الغزو.. مع انسحاب عراقى من الكويت.. والغاء عقوبات الاسرة الدولية على العراق.

(٢) الثانى: يقوم على افتراض فرضية إطالة الجبهة العسكرية والأقتصادية فى الخليج مع استمرار احتلال العراق للكويت.. وبقاء الحصار كما هو عليه وكان هذا الإفتراض قويا حيث إنه يزيد من نسبة الفائدة الأمريكية التى ترمى إلى استنفاذ فائض المال العربى البترولى.

فى هذه الحالة فإن الخطر كل الخطر يكمن فى تعميق الجبهة العراقية الإيرانية وقوتها الأمر الذى يشكل تهديداً أكيداً على أمن المنطقة على المدى المتطور والبعيد ايضا.. كما أنه سوف يساعد على إرتفاع اسعار البترول الأمر الذى سوف يترك بصمته على التطور الاقتصادى للدول الأوروبية الموحدة واليابان والأقتصاد الأمريكى ايضا.

(٣) الثالث: تصعيد النزاع العسكرى فى الخليج بعد فشل المحادثات.. وفى هذه الحالة ورغم قوة الولايات المتحدة الهائلة مع أكثر من ثلاثين دولة عالمية أخرى فإن امتداد القتال إلى آبار البترول ومناطق تكريره احتماله كبير وخطره أكبر.

احتمال الخيار العسكرى كان يمتاز إذا بصعوبته وتكلفته العالية مع خطورة بناء ترتيبات اقليمية جديدة كنتيجة مباشرة للحرب فى هذه المنطقة الحساسة.. الأمر الذى تؤكده دراسة الواقع الأجتماعى والعقائدى للمنطقة الأمر الذى لن يكون مدخلاً للأمن قدر خلق وتقوية بؤر لإستمرار المنازعات وتهديد المنطقة ومستقبلها.

وبينما إنقسم العرب فى تصوراتهم للأحداث المقبلة نسى الجميع أن القرار بيد غيرهم.. وله هو الآخر مصلحة ومن ثم نظرته.. وهذا أهم أخطاء العرب.. المسلمين وهو سبب نهى القرآن عن ولاية غيرهم دون شك.

وهكذا فى فجر يوم الخمس ١٧ من يناير ١٩٩١م اشتعلت السماء فجأة واخترقت الأرض.. وامتلأت السماء بالطائرات وانهالت الصواريخ على بغداد.. دار السلام.

وقامت الحرب..

الفهرس

رقم الإيداع

١٩٩١/٥٢٩٨

I.S.B.N.

977 - 208 - 063 - 3

مطبعة اطلس



imprimerie atlas

LE-CAIRE: 11-13 RUE SOUK EL TEWFIKIEH, R.C.100731,TEL:747797

القاهرة : ١١-١٣ شارع سوق التوفيقية س.ت ١٠٠٧٣١ ت ٧٤٧٧٩٧

انفجار الخليج

العراق المغبون وكلمة للتاريخ

فى أزمة الخليج الأخيرة كان من السهولة ملاحظة دور الإعلام الموجهة والذى لم ينظر إلى الأحداث إلا بمنظار محدد يخدم وفقط جهة واحدة من جهات الصراع فى الأزمة وطرف واحد من أطراف الأزمة ونجح الإعلام - فى دوره المرسوم.

لكن تداعيات المواقف بعد ذلك أوضحت الحقيقة التى تناولها الكاتب فى فترات الأزمة الأولى.. ولم يستطع نشرها آنذاك لأسباب عديدة.

وتبقى الحقيقة دائما أقوى من أية صراخات إعلامية تبغى قلب الحقائق والمنطق والحقوق.. حتى وأن تناولها إعلام من هنا وهناك.. ونجوم فى التخصص.. أو ذاك.. إن مواجهة مواقف الأطراف المختلفة فى أزمة الخليج فى فترة ما بعد الحرب تظهر حقيقة النوايا والأهداف للأطراف المتباينة.. وتوضح أيضا أين الحقيقة وسط ضباب الإعلام والذى ما زالنا نعيش أجواءه..

د. أحمد محمد كمال

مكتبة مدبولى